زهــراء طـليطـلــة

زهـــراء طليطلـــة

روايـة

د. محمد عبدالمجيد عامر

اسم الكتاب: زهـراء طليطلـة
اسم الكاتب: د. محمد عبدالمجيد عامر
تدقيق لغوي: فريق المكتبة العربية
تصميم الغلاف: مروه صلاح
الإخراج الفنيّ: جمال عبدالرحيم
الطبعة / الأولـى – يناير ٢٠٢٠
رقم الإيداع: 3693 / 2020

Arabiclibrary2017@gmail.com
Facebook.com/arabiclibrary2017

جميع الحقوق محفوظة للمكتبة العربية للنشر والتوزيع، ولا يجوز استخدام أي من المواد التي يتضمنها هذا الكتاب، أو استنساخها أو نقلها، كليا أو جزئيا، في أي شكل وبأي وسيلة، سواء بطريقة إلكترونية أو آلية، بما في ذلك الاستنساخ الفوتوغرافي، أو التسجيل أو استخدام أي نظام من نظم تخزين المعلومات واسترجاعها، دون الحصول على إذن خطي من الناشر.

إهـــداء

إلى مَن قالت لى ذات مرة:

"الحب الحقيقي يصادفنا فى العمر مرة واحدة، لذا عندما تتعثر به؛

استمتع قدر استطاعتك وعش التجربة بكل كيانكَ ووجدانكَ،

والأفضل ألا تخبر أحدًا بسعادتكَ؛

فالآخرون عادةً ما يفسدون الأشياء الجميلة.

وإن قررت الكتابة يومًا؛ فحلِّق بخيالك وارتحل بعيدًا

كى تُخرج للعالم شيئًا يستحق القراءة"

إليكِ وفقط أهدى أولى كتاباتى.

(الفصل الأول)

"وستبقين أنتِ وحدكِ دائماً؛

حلمى الجميل كلما وضعتُ رأسى على وسادتي

والأمل الذى أتوق إليه مع كل إشراقة جديدة"

أقبل الصباح الحالم حثيثًا تسبقه أنفاسه العطرة، تتبَّع خطى الفجر الواعد، بأنامله الفضية وهى تداعب بنعومة جنبات الأفق الناعس، ثم امتدت لتهدهد فى رقة وحنان طرقات وأزقة المدينة العريقة والتى كانت تكسوها أجواء غير اعتيادية حيث امتلأت أحياؤها المختلفة برائق الزينات وتراقصت فى سمائها الرايات البديعة، المخضبة بشتى ألوان السعادة والبهجة، لتجعل حالة استثنائية من النشوة والفرح تفوح من داخل جدران بيوتها العتيقة.

بعدها انطلقت تلك الأنامل الرمادية مهرولة، لتفك القيود الذهبية لقرص الشمس القابع فى عرينه، ليصحو من غفوته متثاقلًا، لكن ما أن تذكر هذا اليوم الفريد فى تاريخه حتى هبَّ مسرعًا، يحثُّ الخطى ليكون شاهده الأول، فبعث بأولى طلائعه النجيبة بزيها الذهبى اللامع لتستكشف الأجواء من حوله، فأطلت بوجهها المشرق خلسة من بين ثنايا أسترة الفجر المسدلة على الأفق والتى ما لبثت أن تلاشت وتوارت شيئًا فشيئًا.

كان أغلب عُمَّار وقاطنى المدينة، ما زالوا يغطُّون فى سباتهم العميق، عكس صغارهم الذين باتوا ليلتهم يتهامسون فيما بينهم عمَّا سيشهده الصباح من أحداث عظيمة فلا حاجة الليلة لنومهم اللذيذ أو لأحلامهم السعيدة حسبهم ما فاضت به أرواحهم البريئة من لهفة وما وعدهم به خيالهم الرحب النقى من مفاجآت عجيبة، جراء ما ترامى إلى آذانهم الصغيرة من حكايات العامة فى الأيام الماضية وما شاهدته أعينهم فى الشوارع من استعدادات لهذا اليوم الخالد.

فقد جاب المنادون والمغنون أرجاء المدينة الواسعة يعلنون بالكلمات الرنانة ويشدون بالأغانى العذبة المبهجة عن هذا الحدث الفريد.

كما علقت الزينات والرايات فى جلِّ شوارع المدينة وطرقاتها بالإضافة إلى السرادقات الضخمة التى نصبت بكل موضع يتسع لها، استعدادًا لاستقبال ولائم القصر العظيمة، وظلت وفود الأمراء والحشود من الوزراء وكبار رجال الدولة والقواد تقبل إليهم من كل حدب وصوب.

وعلى النقيض من الخارج، كانت الأجواء بداخل قصر المأمون العظيم فى حالة نشاط دائم وحركات دؤوبة مستمرة لكل من به فترى الخدم بحديقته الخلابة عاكفين على تهذيب زهوره الفاتنة وتشذيب شجيراته ونباتاته الحسان، بينما تنهمك فرقة أخرى فى إعادة ترتيب وتجميل مجالسه المتعددة، أما فى بيت الطعام فقد شرع الطهاة النوابغ والذين جُلِبوا من شتى بقاع المملكة فى إعداد كميات هائلة من الأطعمة الشهية والمشروبات اللذيذة جهزوا لها أممًا عظيمة من الأنعام جمع فيها بين المشَّاء والطيَّاروالعوَّام بناءً على مرسوم ملك البلاد لهم بإزكاء المطابخ وتوسيع المشارب وإرغاد الموائد والمشاكلة بين مقادير الأخباز والآدام والإغراب فى طهيهم مع تعطير الأباريق والصحاف النفيسة بخالص الأطياب الزَّكية والتنويع فى محتوياتها بين الحاروالبارد والحلووالحامض.

أما بداخل أروقة القصر فما زالت نساؤه الحسان منكبات على إعادة تنظيم هيئته لإضفاء مزيدًا من الجمال على مقتنياته الفارهة فوق ما بها من جمال أخاذ ساحر وبهاء فريد واستثنائي، يبدون وكأنهن يتمتعن بذوق عالٍ رفيع وحس جمالى نادر يتجلى ذلك من مشهد القصر البديع الخلاب الذى صار أشبه بلوحة فنية آية فى حسنها وتفردها ومدى روعة تناسق وانسجام قسماتها وكأنه أحد قصور الفردوس.

بعد سويعات قليلة بدأ القصر فى استقبال ضيوفه الغفيرة فقد كان على موعد مع إعذار (يحيى) حفيد المأمون بنى ذى النون والذى عُرف بالإعذار الذنونى مفخرة الأندلس وأهل المغرب على أهل المشرق حيث فاق فى بذخه وترفه عرس (بوران بنت الحسن) التى تزوجها المأمون العباسي.

بكَّر كبير الوزراء (أبو بكر ابن الحديدي) مصطحبًا صبيه الصغير وبرفقته صديق عمره ذو الوزارتين (أبو عامر بن الفرج) فى الحضور ليقفا على آخر الاستعدادات وليشاركا المأمون شرف استقبال ضيوفه الكرام وحشوده الجليلة.

أجلس (ابن الحديدي) صغيره فى أحد مجالس الاستقبال وأوصاه بألا يترك مرتبته حتى يفرغ له، لكن فضول الطفولة الفطرى وتمردها الغريزى أغرى الفتى بتفقد عجائب القصر العظيم فغافل الغلام الموكَّل برعايته وتسلل إلى باحة القصر يتجول فى أروقتها المهندمة وضواحيها البهية حتى قادته قدماه الحديثتين إلى باب القصر فتسلل خلسة إلى داخله.

كان القصر قد أضحى جوهرة دُرِّية نفيسة تزينها الخطى الخفيفة المحترفة لنسائه الفاتنات وفتياته الجميلات وهن يختلن كالمهوات الرشيقة بفساتينهن الرائعة مع الحركات والرقصات البديعة لجواريه الحسان.

وكن جميعهن منشغلات بالاستمتاع والابتهاج عدا إحداهن التى بدت مكترثة لكل التفاصيل فظلت منهمكة فى توجيه التعليمات للخدم والإشراف على تنظيم الحفل حتى لا يشوب بهاءه هفوة أو يعكر صفوه تقصير.

كانت لا تكف عن الهرولة هنا وهناك رغم ما يبدو عليها من إرهاق واضح وإنهاك شديد يتجلى فى شحوب وجهها الجميل والهزال الكبير الذى تمكن منها ورغم تحاملها هذا وتفانيها الشاق إلا أن على الجانب الآخر جلس فريق من نسوة القصر اللاتى لم يفارقن مقاعدهن يرمقنها بنظرات حقد حادة تخرج من أعينهن كسهام مسمومة لو تمكنت منها إحداها لاخترقت عظامها وأضلعها اختراقًا.

ظل الفتى يتأمل جنبات القصر الفسيح إلى أن لمعت عيناه العسليتان كبريق الزيت الصافى فى وجه الشمس، ما أن لمحتا تلك القطة البيضاء الرقيقة وهى تتخطى الحشود برشاقة لتسكن أحضان المرأة الدؤوب المتفانية والتى التقطتها بمهارة وكأنها تضم درَّة فريدة إلى شكمجيتها العاجية المطعمة باللآلئ؛ فكانت أشبه بشجرة كريسماس تعود إليها إحدى قطعها المتساقطة.

حقًّا لقد كانتا تمتلكان من الحسن الفردوسى ما يفوق حدود الوصف والتخيل، ذواتا وجه أبيض ناصع رائق القسمات كصفحة جدول عذب رقراق تعلوه لؤلؤتان زرقاوان تلمعان كأنهما انعكاس السماء فى تياره الهادر.

طلبت منها تلك الدُّرَّة الصغيرة السماح لها باللعب مع قريناتها فى حديقة القصر فوافقت على مضض بعدما فشلت فى مقاومة الرغبة المتقدة فى عينى صغيرتها فقد ورثت عنها جمالهما وزرقتهما، لكنها أوصتها قائلة:

- موافقة لكن بشرط أن تعدينى بأنك ستحافظين على نفسك يا "ليلي" وألا تبتعدى عن "سيليا".

لتبتسم الصغيرة بهدوء فكشف ثغرها الدقيق عن بقايا اللؤلؤ المخبأ بداخله وهى تقول "أعدك يا أماه"، ثم أشارت والدتها على إحدى الوصيفات بمرافقتها.

خرجت "ليلى" بصحبة "سيليا" إلى حديقة القصر وتبعهما الفتى الذى يبدو وكأن عقله الصغير وقلبه الأخضر قد فتنا بتلك القطة البيضاء التى أخذت تركض فى الحديقة كفراشة منتشية فتنافست ورود الحديقة وأزهارها فى استنشاق عبير حسنها الآسر حتى أينعت وأزهرت كما لم تزهر من قبل. فطن الصغير إلى ولع قطته المدللة بالورود حيث تركت أقرانها وألعابهم الطفولية واختارت مطاردة العصافير والفراشات وسط الأزهارِ الفواحة، لكنه حار فى كيفية جذب انتباهها إليه ليتذكر حديث والده عن ذلك الموضع الذى خصصه المأمون لأزهاره الفريدة ونباتاته النادرة فقد ظلت كلماته عن مدى حسنها تراوده كثيرًا فى أحلامه فهرع يغافل الحراس ويبحث عن ذلك الموضع السحرى حتى اهتدى إليه أخيرًا فدخل من إحدى جنباته الخلفية غير آبه لاتساخ يديه وملابسه الجميلة أو لقميصه الذى تمزق جراء زحفه وسط الأشجار، كانت أزهار البستان آية فى الروعة والإبداع وندرة ألوانها وأشكالها مما زاد من حيرة الصبى لكن ما أن وقعت عيناه على وردتى التيوليب الزرقاوين هاتين الكأسين الزنبقيتين الأنيقتين فى جمالهما واللتان تختالان وكأنهما حوريتين تزهوان فخرًا بنضارتهما وندرتهما فذكرتاه بزرقة عينيها الصافيتين ليقوم على الفور باقتطافهما ويهرع بعيدًا عن هذا البستانى الذى كان مقبلًا باتجاهه.

اقترب اللص الصغير من "ليلى" ووقف يتحين الفرص ليهديها باقته المختلسة من حديقة والدها حتى غفلت عنها جاريتها قليلًا فوثب معترضًا طريقها لكنه تجمد فجأة فى موضعه وضاعت الكلمات فوق شفتيه، فبدا وكأن عينيها اللامعتين قد ارتحلتا به بعيدًا عن عالمه المألوف حتى ضل دربه الوعر ولم يعد يعرف للعودة طريقًا.

لكنه سرعان ما استفاق من غفوته على صيحات "سيليا" من بعيد تبحث عن "مولاتها الصغيرة" ليجد ثغرها مبتسمًا وهى تمد يدها قائلة بصوت ملائكى "مرحبًا أنا ليلى." لم تكمل الملاك الصغيرة كلماتها حتى أعطاها اللص وردتيه اللتين كان يخبئهما خلف ظهره، لكن خجله الرقيق كان قد عقد لسانه فتبعثرت الكلمات فوق شفتيه، لتدفعه كبرياؤه الطفولية للركض بعيدًا عنها.

****

"لا يعلم المرء وجهته الحقيقية حتى يبلغها"

يُقال إن أصعب ما بالحياة؛ هو أن تصبح الحياة ذاتها عبئًا عليك، أن تتحمَّل يومك الثقيل آملًا ألا يأتى غدك، والذى تستجديه هو الآخر؛ أن يمر سريعًا ليصبح أمسكَ؛ فتحيا هكذا حتى تفنى حبات عمرك المنفرطة.

تفتح ورقتى جفنك كل صباح لتنتظر المساء يأتى فى إيقاع بطيء ورتابة قاتلة، فقد نفد شغفك بالحياة، وانعدمت رغبتك بكل ما يتعلق بها، لذا تتعشم أن تجد ضالتك فى عالم آخر، وحياة أخرى سلواك أنها ما زالت مبهمةً لك، يدفعك إليها فضولك، حتى وإن كانت تلك الحياة الغامضة لا سبيل لها سوى من خلال المرور عبربوابة الموت وأهواله، التى عبَّرعنها "توماس هبس" عند وفاته بقوله:

أنا على وشك القفز فى ظلام، ولو كنت أملك العالم فى هذه اللحظة لدفعته لشراء يوم واحد فى الحياة.-

لكنها فى النهاية تظل حياة جديدة وعالمًا آخر بمعالم مجهولة بعيدًا عن هذا العالم الذى مللناه بل بغضناه وبغضنا كل ما يربطنا به.

وكما قال الكاتب الكبير"ألبيركامى":

"عندما تموت هذا العام، فإن الموت سيتجنبك العام القادم" فالموت يبقى - دائمًا وأبدًا- قدرًا حتميًّا وملجأ من لا ملجأ له.

وها أنذا مجددًا، أستيقظ رغمًا عني، عملًا بمقولة "مارك توين"

"امنح كل يوم الفرصة لأن يكون أجمل أيام حياتك".

رغم أنى صرت أستعذب غيبوبة النوم، ربما لأنه يشبه الموت إلى حد كبير، أو ربما رغبة منى أن تتحقق يومًا ما أمنيتى الوحيدة منذ أن أضع رأسى على وسادتى كل ليلة مستسلمًا لذلك الغريم الذى صار عزيزًا عليَّ؛ فأصحو وأكتشف مجددًا أنى ما زلت على قيد الحياة، بل على قيد المعاناة الأبدية.

ظللت أحدق فى سقف الغرفة بشرود إلى أن انتبهت لتلك القطة الرقيقة التى تموء بجانبى فى دلال وغناج.

كانت هذه هى (فريدة) التى فردت ذراعيها الأبيض الغض فى تثاقل تتحسس بلطف واحترافية قسمات وجهى التى نحتها الدهر بحرفية شديدة، لتتوقف ككل مرة عند تلك الندبة البارزة فيه ثم تقوم كعادتها لتطبع عليها قبلة الصباح، لكنها تفتح خلفها الباب لحفنات لا تنتهى من القبلات الشهية، فأجدنى أثب كالثور الهائج، أكيل لها العديد من الطعنات اللذيذة والتى تنتهى بارتجافنا معًا وكأن بنا مسًّا من جانٍ أحمق.

تخور بعدها قواها وقواى لنرتمى مرة أخرى فى الفراش واهنين كجسدين رخويين؛ فنسترخى لدقائق أو ربما لساعات قبل أن نقرر الخروج من تلك الجنة مرغمين.

حقًّا لقد كانت أنوثتها الطاغية تشعرنى بكامل رجولتي.

بدأ هاتفى يرتجف هو الآخر فوق الكمود، التقطته فوجدت به العديد من المكالمات الفائتة كان أغلبها من تلك المذيعة الحسناء صاحبة برنامج "مشاهير خارج الحدود".

وكانت تريد إخبارى بقدومها أمس من القاهرة، وتودُّ التأكيد للمرة المليون على موعد تصوير حلقتها القادمة والتى سأطل فيها ضيفًا عليها بالإضافة إلى زوجها رجل الأعمال والمهندس المعروف.

بالطبع كنت أتفهم إلحاحها الشديد هذه المرة نظرًا لتملُّصى منها كثيرًا فى السابق.

نهضتُ سريعًا؛ فقد كان على إنجاز عدة أمور قبل الانتقال إلى مدينة هامبورج، حيث سيتم تصوير الحلقة هناك، بينما كنت أنا أقيم فى إحدى ضواحى العاصمة برلين.

استفاقت "فريدة" هى الأخرى من غفوتها وهبَّت من الفراش تختال برشاقة ألمها، لتقوم باحتضانى من الخلف بينما كنت أقف أمام المرآة أحدق فى هذا الوجه الذى لم أعد أعرفه ولم يعد هو الأخر يتذكرنى.

استدرت وقمت باحتضان وجهها الجميل بين يدى فقد كانت رائعة الجمال لدرجة تجعلك تُقبّلها وترغب أن تظل تُقبلها طيلة حياتك؛ فدومًا كان مبدأى أن المرأة التى تجعلك تشتهيها وترغب فى تقبيلها كلما نظرت إليها؛ لا تُترك مهما كلفك الأمر.

وكنا قد تقابلنا لأول مرة؛ فى أحد مقاهى مطار كولونيا بون الدولي، وبعد أن أخبرتنى أنها تعمل مضيفة بشركة مصر للطيران؛ شعرت بتلك الرغبة تتقدُ بداخلى بل وتكاد تأكل كل قطعة بي، ناروقد استعر أجيجها فأحرق بُنيانى من القواعد.

ثم تملكتنى رغبة عارمة فى ضمها واحتضانها، ولم يكن هذا بالأمر الصعب على هذا الجراح المشهور المتمرس فى العديد من الأمور يأتى إغواء النساء فى مقدمتها، ولم تكن هى لترفض مغازلتى لها أو دعوتى للعشاء خاصة وأنها ما زالت فى

طور التعافى من آثار صدمة انفصالها عن زوجها السابق، ذلك القبطان السكّير؛ فقد كانت تعانى حرمانًا كبيرًا، جعل مهمة اصطياد هذه المضيفة الحسناء وجلبها لفراشى أمرًا هينًا، لأجدها جميلة شهية كقطع السكر فى فنجاني، فأنا أنتمى لتلك الفئة التى لا تحتمل مرارة القهوة.

ولو قُدّر لى يومًا أن أغير مسارى المهنى لافتتحت شركة طيران ووظفت فيها كل النساء الجميلات؛ فلا أشهى من أن تشاركك فراشك امرأة جميلة.

ثم هممت بتركها والمغادرة على وعدٍ أن تجمعنا يومًا صدفة ما؛ فما أروع الأشياء حينما تأتى بلا ترتيبٍ مسبقٍ، كالمال، العمل، النساء، باستثناء الحب فما أسوأه حينما يأتى صدفة؛ فالحب الذى يأتيك صدفة ابتعد عنه ما استطعت! فهذا الحب محكوم عليه بالشقاء الأبدي.

لكنها استوقفتنى لتخبرنى أنها ستلحق بى إلى محطة القطار لتوديعى قبل عودتها إلى القاهرة.

انطلقت سريعًا إلى المشفى الذى أعمل به، لتتعثر عيناى بتلك الباقة الرائعة من النسوة الحسان؛ فتخصص مثل تخصصى قلَّما تجدُ به امرأة قبيحة أو حتى متوسطة الجمال؛ فتخصص العيون للجميلات، الجميلات وفقط، وكعادتى كنت أسلم عليهن بعينى فقط مع رسم تلك الابتسامة الجافة الحازمة رغم ملاحظاتى لتلك النظرات المتقدة فى أعينهن لكن متى تعلَّق الأمر بالعمل فأنا شخص آخر، أترك كل أشيائى السيئة بالخارج وأرتدى عباءة الجراح النابغة، ودع الغموض يغلفك، فيراك البعض شيطانًا مريدًا، بينما يقسم الآخرون بملائكيتك.

فذلك أفضل بكثير من أن تكون كالكتاب المفتوح يقرؤك الجميع، أو أن تكون مُتوقَّعًا من الآخرين؛ فالتناقض والغموض يصنعان حولك هالة من التساؤلات تجعلك كقضيب ممغنط ينجذب إليه كل ما يحيط به.

لذا لم أكن لأسمح لأحدٍ بالاقتراب؛ فأنا من أوقعهن فى الشَرَكِ، لا العكس، كى أظل دائمًا القطب المسيطر فى العلاقة، مَن يكتب سطور البداية ويختتم فصول النهاية، وكما يقولون "تكمن قوة العلاقة بيدِ من يبدى اهتمامًا أقل".

قمت بإجراء قائمة عملياتى المؤجلة منذ ثلاثة أيام نظرًا لقضاء "فريدة" إجازتها السنوية كلها فى فراشي، ولم أكن لأتركها وحيدة.

بعدها طلبتُ من "عم إبراهيم" سائقى الخاص أن يُقلَّنى إلى محطة القطار.

لم يجادلنى عن سبب ذهابى بالقطار وذلك لعلمه أنى لن أفصح له عن شيء؛ فما أجمل ألا تبوح بأسرارك لأحدٍ حتى وإن لم تكن تلك بأسرار.

وكان "عم إبراهيم" رغم أُمِّيتهِ فطنًا، لديه من خبرة الحياة والحكمة ما جعلنى رغم كبر سنه؛ أستجديه للقدوم والعيش معى هنا فى ألمانيا بعد وفاة زوجته، ثم جعلته سائقى الخاص.

ودَّعت (عم إبراهيم) بعد أن استفسرت منه عن حال ابنته (مريم) ليخبرنى أنها قد رزقت بمولودٍ جديد منذ يومين وقد أسمته (محمد) تيمنًا بى؛ فأثنيت على صنيعهم، متمنيًا لحفيده عمرًا مديدًا، ثم أعطيته بعض النقود ليرسلها لها كهدية للمولود الجديد.

كانت عقارب الساعة تشير إلى الثالثة عصرًا وموعد انطلاق القطار فى الخامسة، ورغم علمى بذلك؛ إلا أننى فضلت الذهاب لمحطة القطارات مبكرًا كى أمارس هوايتى القديمة بالجلوس على رصيف المحطة ومتابعة حركات الرُّكاب

والمارَّة؛ فقد صرت مغرمًا بلغة الجسد، مولعًا بقراءة ما تبوح به الأجساد، وردود الأفعال اللا إرادية التى يظنها الجاهل عشوائية؛ فأجسادنا لا تكذب أبدًا.

وأفضل أسلوب تحيا به هذه الحياة، هو أن تنتقى مقعدًا مناسبًا، ثم تجلس وتشاهد خطى القدر تمر أمامك، لكن إياك أن تتدخل لتعديل مسارها.

لذا وضعت سماعة الهاتف فى أذنى وبدأت أستمع إلى مجموعتى المنتقاة من أغنيات فيروزونجاة وأنغام، فلم تكن تروقنى الأغانى الغربية مطلقاً.

ثم انطلقت مع أصواتهن الشجية أعبر أثير الحب، وأجوب زوايا الكون الفسيح؛ فهذا أقل ما يليق بهن كونهن لسن ببشر وإنما نساء هبطن من السماء. أسندت ظهرى للوراء، ورحت أتابع بصريًّا ذلك الشجار المحتدم بجوارى بين رجل وامرأة، بدت وكأنها تعاتبه على شيء ما، بينما ينفى هو عن نفسه هذا الاتهام، لكنه كان يلوح بيديه ويحك أنفه كثيرًا أثناء الحديث، تزوغ عيناه بعيدًا كأنه يتحاشى النظر إليها؛ فعيوننا لا تقوى على النظر فى وجه من نكذب عليهم، فالعين أكثر حواسنا حياء، لكن برغم ذلك لو أمكن لى نصحها لطلبت أن تغفر له ذلته تلك، فلا شيء يجعل الرجال أكثر رقة من غفران كذبة صغيرة أو خيانة عابرة.

بعد فترة أحسست بثقل فى رأسي، يبدو أنها من تبعات موقعة الفراش الصباحية؛ فلم يكن العمل يرهقنى مطلقاً.

ثم فتحت علبة سجائري؛ لأكتشف أنها فارغة، فقد أسرفت اليوم فى التدخين، فتوجهت لأحد الأكشاك المتناثرة برصيف المحطة لأبتاع علبة جديدة، لكن قلبى انخلع ما أن وقعت عيناى على العنوان الرئيسى لإحدى الصحف اليومية والذى كان يتناول التفجير الذى حدث صباح اليوم بمحطة القطارات بلندن، وقد كنت قد سمعت به هذا الصباح، لكن ما أفزعنى هى صورة هذا الإرهابى الذى قام

بتفجير نفسه فى تلك العملية الانتحارية، وكان يُدعى (أبو عمار المصرى) فقد بدا لى شخصًا أعرفه جيدًا.

لكن صرف انتباهى عنه؛ ذلك الكتاب القابع فى الرف فوق مجموعة الجرائد وسط مجموعة من الكتب والروايات العالمية الأخرى، حيث بدا لى هو الآخر مألوفًا، بل مألوفًا جدًّا، لكن كيف لهذا الكتاب أن يعبر كل هذه الحدود حتى تتم ترجمته ويصل إلى هنا، أبلغ هذا النجاح وحقق هذه الشهرة العالمية؟! تناولته، ثم وقفت متسمرًا أمام غلافه، ولم ينتشلنى من شرودى العظيم هذا، سوى صوت قد سمعته هذا الصباح، فكان هذا صوت (فريدة).

جلسنا معًا فى المقهى، لتلاحظ ذلك التوتر والارتباك الكبير الذى يعتريني، فقد كنت مشتتًا جدًّا، أحاول لملمة كيانى وأفكارى المبعثرة دون جدوى، لتحتدّ على (فريدة) لأول مرة منذ لقائنا، مصرَّة على معرفة السبب وكأنها كانت تشكُّ سابقًا فى أمرٍ ما وقد تأكدت لتوها منه؛ فأمسكت بيديها، ثم ضغطت عليها بقوة وأنا أقول:

-رفقًا بى سيدتي؛ فأنا كأى رجل شرقي؛ قد أجيد الركض وراء الأشياء لكنى حتمًا لا أجيد اقتناءها.

وشعرت بأن ساعة الاعتراف قد حانت، وأن جرس البوح قد دقَّ مرارًا، حتى أزعجنى وأزعج كل المحيطين ضجيجه، وأنه لا بد الآن من الجلوس على كرسى الاعتراف وإزاحة الستار عن كل ما هو مكنون بداخلى وما أضمرته أعوامًا داخل حجرات قلبى وأخفيت ملامحه حتى عن ذاتي.

ولكن كيف أعترف لنفسى أننى أعيش نفسًا أخرى، وأننى سجين جلدي، وأن دقات قلبى الخافق تلك ما هى إلا صرخات سجين يقضى فترة عقوبته الأبدية خلف

قضبان قفصى الصدري، ويرتجف من الوحدة والوحشة وحرقة الفراق وضربات الحنين الموجعة.

أيامى تمضى كجبال تقبع فوق صدري، وليالٍ صارت خانقة تشنق روحي، أستجدى منها أنفاسى فتحنُّ على بها تارة، وتضن تارات أخرى.

فقد بدأت الحكاية عندما كنت طالبًا بالفرقة السادسة بكلية الطب البشرى بالإسكندرية؛ فتاريخ الجرَّاح المشهور كله يُقسَّم إلى ما قبل وما بعد هذا الفترة؛ فما حدث خلالها جعل حياتى تأخذ منحنى آخر؛ تحديدًا منذ ذلك اليوم فى أوائل شهر شباط (فبراير) من عام ٢٠١٠.

حيث اصطحبت صديقى (مصطفى كمال) طالب البكالوريوس بكلية الهندسة و(محمود موسى) الطالب بالفرقة الرابعة بقسم التاريخ بكلية الأداب؛ فى رحلة من الإسكندرية إلى القاهرة لزيارة معرض الكتاب.

ورغم أن الرحلة كانت تقتصر فى الأعوام السابقة علىَّ أنا ومحمود؛ إلا أننى فوجئت باتصال (مصطفى) بى فى وقت متأخر من الليل ليخبرنى برغبته فى الذهاب معنا إلى معرض الكتاب.

ولا أخفى ما انتابنى من فضول ودهشة لمرافقة مصطفى لنا، خاصة وأنا أدرى الناس باهتمامات مصطفى وآخر ما قد أتوقعه منه زيارة معرض الكتاب ولكن على أية حال فأنا أحب مرافقته لما يتمتع به من الروح المرحة وأسلوبه الممتع وهو يسرد لنا مغامراته النسائية، فقد كان اصطياد الفتيات اهتمامه الأول وهوايته الوحيدة، وكان يسهِّل من مهمته؛ ما يتمتع به من مقومات جسدية رشيقة ووسامة واضحة، لكن لهوه هذا جعله يرسب بالكلية عامين متتاليين.

أما (محمود) فقد كان أكثرنا التزامًا وتدينًا وكيف لا وهو ابن (الشيخ موسى صابر) إمام وخطيب مسجد القائد إبراهيم، وكان متوسط الطول، ذو لحية خفيفة مهذبة، وصاحب ملامح هادئة تجعلك ترتاح له من أول مرة، ورغم تفوقه فى الدراسة إلا أنه قد رسب عامين متتاليين هو الآخر وذلك نظرًا لوفاة والدته التى كان متعلقًا جدًّا بها.

بينما أنا فقد كنت وقتها نحيفًا، حاد الملامح، وأرتدى نظارة طبية تجعلك تفطن أنى طالب بإحدى كليات الطب حتى لو لم يكن البالطو الأبيض راقدًا على كتفى كعادته، وكنت وقتها على دين (مصطفى)، نمتلك نفس الشغف والاهتمامات، وكانت لنا العديد من الغراميات والعلاقات النسائية المخجلة.

فى الطريق بدأ مصطفى ثرثرته المعتادة بسؤالنا عن سبب ذهابنا إلى معرض الكتاب قائلًا:

-لا تقنعونى أنكم ستقطعون كل هذه المسافة لمجرد شراء مجموعة من الكتب بينما يمكنكم ابتياعها ببساطة من على رصيف الجامعة، لا بد وأن هناك سببًا آخر تخفونه خاصة أنت (موجهًا كلامه لي)، وبالطبع، لا بد وأن يتعلق هذا السبب الخفى بمواعدة إحدى الفتيات.

فقلت له:

-وما سبب ذهابك أنت يا مصطفى؟!

فقال مازحًا:

شراء الكتب بالطبع.

لم تكن من عادة (مصطفى) أن يخفى عنا شيئًا، بل كان دومًا يتباهى بغرامياته أمامنا، فيبدو أن هناك أمرًا مختلفًا هذه المرة.

هنا أخرج (محمود) ورقة من جيبه وأخذ يقرأ علينا قائمة الكتب التى كان يخطط لشرائها طيلة العام، وكان يدخر من مصروفه اليومى لهذا الغرض، وأعد قائمته بناء على ترشيحات القراء على مواقع التواصل الاجتماعي، بالإضافة لتقييم بعض أصدقائه لها.

أما أنا فلم أكن من ذلك النوع الشغوف بالقراءة، لأقرأ كل ما يقع أمام عينى أو أعجَبْ بما يُعجبْ به الآخرون، بل كنت أحب اقتناء الكتب الخارجة عن المألوف بل والشاذة فى موضوعاتها، تلك التى أشعر بأنها تلحُّ على لقراءتها.

فقد كانت فلسفتى فى الحياة عامة، أن أفضل الأقدار هى تلك التى تسعى خلفنا وتضعنا عنوة فى دروبها دون تدخل منا، ربما هذه الفلسفة نابعة من عشقى الزائد للغموض؛ فكم أعشق الدروب المجهولة وكم تلهمنى الغيبيات.

ثم بدأ (مصطفى) يقصَّ علينا آخر مغامراته النسائية، وراح يسترسل فى وصف مفاتنها، فضاق الأمر بمحمود الذى كان يرفض الخوض فى مثل هذه الأمور ويعتبرها مجاهرة بمعصية يأثم عليها هو الآخر، فطلب من (مصطفى) الكفّ هذا اللغو (على حد قوله) ليستفزه (مصطفى) بقوله:

-أنت غاضب لأنك لم تستطع حتى الآن أن تجعل جارتك (حبيبة) تحبك، بينما أنت تهيم بحبها، لو كان أحدنا مكانك، لجعل النوم يجافى أهدابها.

هنا بدأت علامات الهم والحزن تظهر على وجه (محمود) الذى قال بعد صمت:

لن أجادلك يا (مصطفى) فمثلك لن يدرك معنى الحب الحقيقي، ولن يطرق الحب بابه يوماً.-

فقال (مصطفى) متماديًا فى استفزازه:

-على أية حال لن أكون يومًا أسوأ منك، لن أتعلق بحب لا أمل له، ولن أجعل امرأة تتلاعب بعواطفي، أو أنتظر ضياع حلمى أمام عينى ولا أحرك ساكنًا.

كانت كلمات (مصطفي) القاسية تسقط كالجمر على صدر (محمود) الذى تملكته كآبة عظيمة جعلت الكلمات تتحشرج فى حلقه وهو يذكر لنا مقولة جلال الدين الرومي

"لا تجبروا أحدًا على اعتناق أرواحكم؛ فالحب مثل الدين لا إكراه فيه" ثم أردف:

-يكفينى منها أنى أعيش أفضل لحظات حياتى ما أن يعبر طيفها بخيالي، أجل، عندما ألتقيها تتعامل معى كصديقها وأنا أتعامل معها كحبيبة أعشقها؛ فأتلذذ بالقرب منها، وحتى لو لم تشعر بحبي لها يومًا، حتى وإن لم تكن لى مطلقًا، يكفينى أننى أحبها وسأظل أحبها طيلة حياتي، يكفينى أن أرى السعادة لا تغرب عن ملامحها حتى وإن شاركها غيرى هذه السعادة؛ فهذه المشاعر لن يفهمها مثلك يا (مصطفى).

فقال (مصطفي) فى غيظ موجهًا حديثه إليَّ:

-ماذا يقول هذا؟! لقد أفقدته تلك الفتاة عقله، أنضيِّع عمرنا هباءً فى حب مَن يستغلنا ولا يشعر بنا؟! أتوجد امرأة على وجه الأرض تستحق حبًا كهذا؟!

التفتَ إلى (محمود) وكأنه ينتظر تعقيبًا مني، كنت أشفق على حاله كثيرًا، وكنت أنا الآخر أجده مثاليًا، متماديًا فى حبه لها أكثر من اللازم، فلا يوجد فعلًا امرأة تستحق أن يفنى أحدهم أجمل لحظات عمره وشبابه لأجلها.

بدا (محمود) كالغريق الذى يتمنى أن يجد قشته معى ليتعلق بها رغم يقينه بعدم جدواها، عيناه تتوسلان فى ضراعة أن أبارك أحلامه التى أراها أنا أيضًا غير منطقية ولا تستحق العناء، فإن كانت تستحق حبه حقًّا لشعرت به منذ زمن، أو ربما تعلم جيدًا أنه يحبها، لكنها تتظاهر بالجهل؛ لأنها لا تبادله مشاعر الحب، ربما هى روايات الحب من أفسدت هذا الشاب المتدين الوقور، فذكرنى بأبيات (الدرامى) حين قال:

قل للمليحة فى الخمار الأسود. ماذا فعلتِ بناسكٍ متعبد
قد كان شمّر للصلاة ثيابه. حتى وقفتِ له بباب المسجد
فسلبت منه دينه ويقينه. وتركته فى حيرة لا يهتدى
ردى عليه صلاته وصيامه. لا تقتليه بحق محمدِ

والطريف فى هذه الأبيات أن (الدرامي) الذى عاش فى العصر الأموى الأول، كان من الشعراء والظرفاء فى الحجاز وكان دائم التغزل بالنساء الجميلات لكنه بعد تقدم العمر به تنسك وترك نظم الشعر لكن فى إحدى زياراته للمدينة المنورة صادف تاجراً صديقه يحمل ضمن تجارته (خُمر عراقية) وشكى له أنه باع جميع الألوان إلا الأسود؛ فوعده (الدرامي) بمساعدته ونظم هذه الأبيات التى تغنى بها مغنيى المدينة ليشاع بأن (الدرامى) رجع عن زهده وتنسكه وعشق صاحبة الخمار الأسود فلم تبق إحداهن إلا وقد اشترت خمارًا أسود.

وبعدما أيقن ببيع كل الخمر السوداء، عاد إلى تنسكه ولزم المسجد ليكون هذا أول إعلان تجارى فى التاريخ.

وبعيدًا عن قصة (الدرامي) هذه لم أستطع تفهم موقف (محمود) أو التعاطف معه ربما لأنى باختصار شديد لم أجرب الحب مطلقًا، لذا لا أدرى ماهيته أو ما

الذى سيتغير فى قناعاتى إن أنا أحببتُ يومًا، وكنت أعد قصص الحب مجرد خيال وأوهام، لا وجود لها على أرض الواقع؛ فصمتُّ لحظات طويلة ثم قلت:

-رفقًا بمحمود يا (مصطفى) نحن لم نعش تجربته ولا ندرى ما بقلبه لنجزم بأنه مخطئ أو مصيب؛ فمثلى ومثلك يا مصطفى غير أهلٍ للحكم، لأننا لم نجرب الحب يومًا ولم نتذوق طعمه بعد، وكل تجاربنا السابقة ما هى إلا مجرد علاقات عابرة.

كنت فى واقع الأمر أحاول التخفيف قليلًا عن (محمود)، لكنى فعلًا فى كل علاقاتى النسائية لم أشعر يومًا بوجود ما يسمى بالحب، وكنت دائمًا ما أشعر داخلى بشيء ما مفقود، فأستمتع فى بداية العلاقة لكن سرعان ما ينتابنى الملل والضجر، فأختلق الأعذار للهروب بعيدًا، ثم تبدأ الكرَّة من جديد.

لهذا تكونت قناعتى الشخصية عن الحب والنساء مثل (مصطفى)؛ بأنه لا وجود للحب إلا فى الكتب والروايات.

لكنى ما زلت أخوض العديد من العلاقات النسائية، وما زلت أبحث عن هذا الشيء الغامض المبهم، الذى سيحرك كل ذرة بكياني، يقلب حياتى الرتيبة رأسًا على عقب؛ فيستثير جنون جوارحى ويلهبها ليحلق بى بعيدًا عن عالمى التقليدي، بعيدًا عن هذا الواقع المتوقع.

لكنى بالطبع لا أرغب فى هذا النوع من الحب الذى يعيشه (محمود)، بل أريد أن يشاركنى الطرف الآخر مشاعري؛ فيشعر بما أشعر أنا به، ويخشى مما أخشى أنا منه، يلهبه اللقاء ويقتله الحنين والاشتياق، وتكويه فكرة الفراق كما تكوينى أنا.

لا أتمنى حبًّا مستحيلًا معدومًا فيه الأمل فأنا لا أدرى هل أقوى على احتماله مثل محمود أم لا.

كما أرى أنه لا مثالية فى الحب؛ فالحب أنانى بطبيعته، لا يرضيه سوى الامتلاك، فإما أن تكون لى أو يحترق العالم من بعدي؛ فكيف أسعد لامتلاك شخص آخر ما تمنيت وحُرِمت أنا منه؟!

وصلنا أرض المعارض، وهناك تركنا (مصطفى) متعللًا بمقابلة أحد أصدقائه، بينما شرعت أنا و(محمود) بالركض وراء الكلمات.

فاتجهنا نحو بعض مخيمات دور النشر وبدأنا نطالع بعض إصداراتها المتنوعة، كان (محمود) كعادته منظمًا يدرى جيدًا عما يبحث، بينما أنا، فكنت أنتظر الكتاب الذى سيبحث عني، وينادينى، فانتظرت، لكن طال انتظارى كثيرًا، ولم أشعر حتى بقصاصة ورق واحدة تهاتفني، ومضى الوقت سريعًا كان (محمود) خلاله قد حصل على مبتغاه بينما لم أبتاع أنا كتابًا واحدًا؛ فمن الجيد أحيانًا أن تدرك ما تبحث عنه.

ثم ذهبنا إلى أحد المطاعم الموجودة داخل أرض المعرض لنتناول شيئًا أثناء انتظارنا لمصطفى الذى كان قد أخبرنا منذ ساعة أنه أمامه خمس دقائق فقط ويلحق بنا، لا أجد تفسيرًا منطقيًا لقدوم (مصطفى) المباغت لنا، ثم غيابه كل هذه المدة سوى أنه حتمًا يواعد إحداهن وعلى الأرجح هى علاقة جديدة؛ لتجعله يستغرق كل هذا الوقت، بالطبع ليتمكن من إحكام شراكه حولها جيدًا.

وأثناء جلوسنا، كان (محمود) دائم النظر إلى وعلامات الحيرة والتردد واضحة على وجهه وأخيرًا أفصح قائلًا

-محمد، أتعتقد أننى مخطئ بتعلقى بحبيبة؟! أتراه عملًا أحمقاً كما قال (مصطفى)؟

نظرت إليه، كان يتصبب عرقًا فى هذا الطقس البارد، وكل شيء به يرتجف حتى لسانه تتلعثم الكلمات به، ترتعش يداه وهى تمسك بفنجان القهوة، بينما تحدق عيناه بي، وكأنهما تريدان أن تستشفا ردِّى قبل أن يبوح به لساني؛ فقلت له بعد أن أخذت نفسًا عميقًا:

-محمود، أنت لديك من النضج والثقافة ما يؤهلك كى تعرف كنه ما يختلج بصدرك، وأيضًا انت تعرف مَن تعلق بها قلبك وتستطيع أن تحكم عليها، أتستحق كل هذا الحب أم لا؟ فالحب كأى شعور ممتع له ضريبة يجب أن تُدفع، لكنهم يعدُّون عذابه جزءًا من متعته وجماله، لكنى أرى أن الحب الذى لا يسعدك لا يجب أن نطلق عليه حبًّا بل هو انتحارًا بطيئًا، وقد قال رسولنا الكريم "حبك الشيء يعمى ويصم"، ثم ذكَّرته بإحدى كتابات جبران خليل جبران؛ يحكى فيها أن الجمال والقبح تلاقيا ذات يوم على شاطئ البحر، فقال كل منهما للآخر:

-هل لك أن تسبح؟

ثم خلعا ملابسهما وخاضا العُباب وبعد هنيهة عاد القبح إلى الشاطئ وارتدى ثياب الجمال ومضى فى سبيله، وجاء الجمال أيضًا من البحر ولم يجد لباسه وخجل كل الخجل أن يكون عاريًا ولذلك لبس رداء القبح ومضى فى سبيله، ومنذ ذلك اليوم والرجال والنساء يخطئون كلما تلاقوا فى معرفة بعضهم بعضًا، غير أن هنالك نفرًا ممن يتفرسون فى وجه الجمال ويعرفونه رغم ثيابه، وثمة نفر يعرفون وجه القبح، والثوب الذى يلبسه لا يخفيه عن أعينهم، ثم أردفت:

-حبِّك لحبيبة يجب أن يُصادف هوى فى قلبها هى أيضًا، يجب أن تدرك أن هناك شخصًا فى هذا العالم، على بعد بضع خطوات منها يعشقها كل هذا العشق، لا غاية له سوى راحتها وسعادتها؛ فإن صادف هذا قبولًا لديها، كان خيرًا لك ولها.

لكن إن أتت الأمور بما لا يشتهيه قلبك، حينها يتحتم عليك الكف عن هذا العبث، فأنت تقتل نفسك فى كل لحظة تُعلّق قلبك بها أكثر، وتؤجل كارثة ستحدث يومًا ما لا محالة، فقد يكون عشاقها كثر؛ فيأتى من هو أجرأ وأشجع منك فيبوح لها بما تعجز أنت عن البوح به؛ فيفوز بها، بل ربما تكون هى بالفعل مغرمة بشخص آخر وتعيش هى الأخرى قصتها فى وادٍ آخر غير واديك؛ لذا يجب عليك أن تزيح الستار عن كل مكنوناتك يا صديقي.

جاءت كلماتى كرصاصات اخترقت صدر (محمود) الذى قال وهو يجاهد ليمنع الدموع المتأرجحة فى عينيه من التساقط:

لكنى أخشى إن أنا أفصحت لها عن حبي؛ فربما أفقدها إلى الأبد.

فقلت له:

-إذن ستكون قد أرحت واسترحت؛ ففى كل الحالات ستفقدها إن لم تكن هى الأخرى تبادلك مشاعرك.

ليقول (محمود) فى حسرة ويأس:

-لكنى أُفضل أن أفوز منها ببضعة لقاءات الآن على أن أخسرها للأبد؛ فهذا أمرٌ لا أقوى على احتماله، كما أنها أخبرتنى أكثر من مرة أنها تحلم بشخص شهم ومثقف مثلي.

فقلت محتدًا عليه:

-تتمنى شخصًا مثلك لكنك لا تدرى هل تتمناك أنت أم لا؟! فقد لا يعدو هذا عن كونه مكر وخبث نساء يا محمود.

قلت هذه الجملة، ثم سكتنا بضع دقائق، قطعها (مصطفى) وهو يقول بعد أن لكزني:

- لقد فاتكم الكثيريا شباب، فقد كنت لتوى مع أجمل من رأت عيناي. -

ثم أسهب بقوله:

-وجهها كالبدر الساطع فى تمامه، شعرها يلمع كسلاسل ذهبية ما أن تعانقه شمس النهار، ويمتزج بجبينها المشرق فتشع بهاء وروعة، صوتها كشجن الناى وقت الغروب، وخصرها كغزال يختال فى البراح، قدها كعود ريحان يختال وسط الياسمين، ونهداها كـ.

هنا قاطعه (محمود) بحنق شديد مطالبًا إياه بالتوقف عن الحديث، فتداركت الأمر سريعًا وحاولت التخفيف من توتر الوضع بقوله:

-من هى سعيدة الحظ التى جعلتك تنتشى هكذا، وأخرجت البحترى الكامن بداخلك.

ليعقب (محمود):

-بل تعيسة الحظ.

فقال مصطفى:

-إنها صديقة جديدة تعرفنا من خلال (الفيسبوك)، لم أرها سوى اليوم، لكنها فاقت توقعاتى لها فى كل شيء، جمالها، حديثها، كل شيء بها رائع.

فقال محمود:

-وبالطبع سيكون مصيرها مثل الأخريات ما أن تصل مبتغاك؟

هنا صمت (مصطفى) قليلًا قبل أن يقول:

-لا أدري.

بدا (مصطفى) وكأن به شيئًا مختلفًا هذه المرة، شيئاً لم أعهده عليه من قبل.

جلسنا بعدها قليلًا، ثم غادرنا المطعم، لكن (محمود) كان يمشى شاردًا، متثاقلًا جراء الكتب الكثيرة التى ابتاعها، ليوافق على مساعدتنا له بعد إلحاح، وكأنه يقتنى إحدى الكنوز النفيسة التى لا يأتمن عليها أحدًا.

انطلقا مغادرين المعرض والقاهرة، بينما ظل (محمود) على شروده، يبدو أن كلماتى كانت قاسية أكثر من اللازم، لكن المصارحة دائمًا لها وجعها وكان لا بد من إيقاظه من غفوته.

بينما كان يبدو (مصطفى)، أكثرنا سعادة، فقد ظل يتحدث عن صديقته طول الطريق، وكانت تلك هى طبيعته المعتادة عندما يتعرف إلى فتاة جديدة وتعجبه.

وصلنا الإسكندرية فى المساء، وبعد أن قمت أنا و(مصطفى) بتوصيل (محمود) إلى بيته مع كتبه؛ لم أسلم فى طريق العودة من سخرية (مصطفى) الذى قال لى مازحًا:

-أرى أنك قد اشتريت المعرض كله يا صديقي!

فقلت له:

-أحيانًا يكون الاستغناء بما لديك، خيرٌ من اقتناء ما لا تحتاجه.

فمد (مصطفى) يده داخل حقيبة كان يحملها، ثم أخرج كتابًا وقدمه لى قائلًا:

-كنت أعلم جيدًا أنك لم تذهب هناك لشراء الكتب، لذا أحضرت لك هذا الكتاب.

فقلت له متعجبًا وأنا أتناوله:

-ما هذا! أصرت تبتاع الكتب يا (مصطفى)، لقد عاد زمن المعجزات.

ليرد مازحًا:

-هذا فقط لتعلموا أن لا أحد يتوقعني.

تأملت الكتاب بلا مبالاة، فكان مكتوبًا على غلافه الأمامي:

"ما زلت أنتظرك"، للكاتبة زهراء طليطلة.

لم أكن قد سمعت بهذا الاسم من قبل، فدفعنى الفضول لآخذه منه؛ فعلى أية حال، لن أعود من المعرض خالى الوفاض حتى من خفى حُنَين.

وصلت المنزل ودخلت غرفتى ثم ارتميت على الفراش من شدة الإرهاق ورحت أغطُّ فى سُبات عميق، وحينما أفقت من نومى ليلًا، وجدت كتاب (مصطفى) على الطاولة المجاورة للسرير، فالتقطه، ورحت أقلب صفحاته، فوجدت مكتوبًا فى مقدمته هذا الإهداء:

"إلى ذلك الحبيب الذى لم ألتقه بعد، أوربما التقينا وافترقنا فى عوالم سابقة؛ كما ستجمعنا معًا أزمانٌ قادمة بلا شك، لكننا سنفترق مجددًا، فهذا قدرنا الذى لا مفر منه، فلقاؤنا كفراقنا أمران حتميان، وأقدارنا لن تكون يومًا حليفتنا؛ لذا دعنا نظل على حبنا العظيم وعهدنا الخالد، دعنا نظل دومًا على انتظارنا المقدس. ما زلت أنتظركَ فانتظرنى"

"زهراء طليطلة"

ورغم اكتشافى أن الكتاب ما هو إلا رواية لكاتبة ما زالت مجهولة بالنسبة إليَّ، إلا أننى وجدت بداخلى فضولًا كبيرًا يغرينى بالشروع فى قراءته، وبالفعل بدأت أقلب صفحاته وفصوله حيث جاء بها الآتي:

كانت النشوة لا تزال مسيطرة على معسكر المسلمين، بعد تمكنهم من دحر الجيش القشتالي، واسترداد قلعة أيوب من أيديهم، إلى أن قام الوزير (أبو عبدالله بن عبدالعزيز) وكان كبير قادة المأمون (يحيى بن ذى النون) على الثغور؛ باستدعاء قائدى ميمنة وميسرة جيشه؛ (خالد بن الحديدى) و (عبدالرحمن بن الفرج). دخل الفارسان خيمة قائدهم، فناولهم رسالة كان ممسكًا بها وهو يقول "احزما أغراضكما فإنكما ستعودان إلى طليطلة، فالملك قد أرسل فى طلبكما" ليرد (خالد) متعجبًا "أمن خطبٍ هناك يا سيدى؟!" فرد القائد وهو يربت على كتف (خالد)

"ليس لدى علم يا خالد، لكنه يريدكما على وجه السرعة".

-ولكن يا سيدى لا يمكن أن نترك ميدان المعركة فى تلك الظروف فما زال العدو متحفزًا لنا وإن علم بمغادرتنا، فقد يحدث ما لا يُحمد عقباه، كما أن رحيلنا سيفتُّ فى عضد الجند ويأخذ من حماستهم ونحن نعد العدة لمعركةٍ فاصلة.

-أعلم يا (خالد) لكننا لا نملك سوى السمع والطاعة؛ فلا بد أن هناك أمرًا هامًا.

امتطى الفارسان ظهر جواديهما، وانطلقا جنوبًا باتجاه جبال الشارات حتى بلغاها وكانت سلسلة جبلية عظيمة، تمر بها أودية نهر يانة أو الوادى اليانع، وكان أعرض نهر بالأندلس، كما تحتوى على الكثير من البقر والغنم الذى يتجهز به الجلابون إلى سائر البلاد ولا يوجد شيء من أبقاره وأغنامه إلا فى غاية السمن حيث يضرب به المثل فى جميع أقطار الأندلس، عبراه وهما يطويان الأرض طيًّا تحت أقدام جواديهما.

ثم أرخى الظلام سدوله عليهما، فترجلا وانتقيا موضعًا يبيتان فيه ليلتهما، ليجمع (عبدالرحمن) بعضًا من الحطب، ثم أوقد فيه النيران، وجلس الرفيقان حوله يلتمسان دفئًا، يخفف قليلًا من وطأة البرد القارس فى تلك الليلة، كان الظلام حالكًا، والرياح قوية تضرب بعنف الأشجار التى تحاصرهما كجيش متحفز يتحين الفرص للانقضاض عليهما.

قال (عبدالرحمن) وهو يدلك أصابعه المتجمدة فوق النار:

-أخيرًا سنلتقى أهلينا بعد هذا الغياب الطويل، وستحصل أنت على فرصة لتقترب من حبيبتك وربما يحالفك الحظ فتفوز منها بلقاء يا صديقى، قالها عبدالرحمن وهو يبتسم.

فتغيرت ملامح (خالد) فجأة وبدأ يتصبب عرقًا رغم هذا البرد القارس، ثم تمالك نفسه وهو يقول والله يا (عبدالرحمن) إنى لأشتم رائحة عطرها وأنا على بعد آلاف الأميال منها؛ فلم يغب طيفها ولو مرة واحدة عن مخيلتي، حتى ونحن فى خضم المعارك وتحت وطأة السيوف.

رفقًا بنفسك قليلًا، فلم تعد هى تلك الفتاة التى كنتما تلهوان معًا بحديقة القصر فى صباكما، بل لقد أصبحت اليوم أميرة عظيمة، سيدة نساء عصرها، أرفعهن قدرًا وأغزرهن علمًا وجمالًا، حتى قيل إن كان أهل قرطبة يفخرون فيما مضى بامتلاكهم مدينة الزهراء مفخرة الزمان ووجهة العلماء، فإن لأهل طليطلة اليوم، زهراء لا مثيل لها، تتنفس وتحيا بين ظهرانيهم، تفيض حسنًا وتشع علمًا، حتى صارت حلمًا بعيد المنال وموضع شغف من الجميع، ولقَّبوها بزهراء طليطلة.

فقد صعَّبَتْ عليك حربك يا صديقى ومنافسوك هذه المرَّة؛ يفوقونك فى الكثير من الأمور؛ لذا ستكون معركتك القادمة أكثر ضراوة.

صمت (خالد) وكأن هموم الدنيا كلها قد أُلقت فوق لسانه فأخرسته، ليلاحظ ذلك (عبدالرحمن) فحاول التخفيف قليلًا عنه بتعقيبه:

-لكن إن كانت تكن لك هى الآخرى هذا الحب؛ فلن يحول بينكما سوى الموت.

فقال خالد

-وهذا جلَّ ما أخشاه يا (عبدالرحمن) أن يفرقنا الموت.

ثم طلب من صديقه أن يسلم عينيه للنوم حتى يستطيعا استئناف سفرهما فى الصباح.

****

الفصل الثانى

"الحب الكبير يولد كبيرًا ويحيا كبيرًا، وحب الصغار يولد فى سماعات الهواتف، ويموت على طاولات المقاهى"

استقيظت فى الصباح؛ لأجد رواية الزهراء ما زالت بين ذراعىَّ، لأكتشف أنى قد شاركت (خالد) و(عبدالرحمن) سباتهما وسط مروج الأندلس.

لكن تبادر إلى ذهنى هذا السؤال؛ أهناك حقًّا امرأة جديرة بأن يحبها رجل كل هذا الحب؟

فهذا (خالد)؛ الفارس الشجاع الذى شهد المعارك الطاحنة، وجابه الموت أكثر من مرة؛ ها هو يرق ويضعف أمام حبه، وهذا صديقى (محمود)؛ الشاب الوفى الطيب والمثقف، يضنيه الحب هكذا؟

فسابقًا كان الحب فى اعتقادى؛ هو أغبى فكرة يمكن أن تخطر بعقلك، وأحمق عمل يمكن أن تقدم عليه، فهو باختصار؛ أسوأ ما قد يحدث لك يومًا، لكنه للأسف؛ شرك محكم ولا بد للشراك من فرائس ساذجة، لذا حاول قدر استطاعتك جعله فى ذيل اهتماماتك وآخر أولوياتك.

ثم تذكرت موعدى مع صديقى (يوسف) اليوم فى الجامعة للتقديم فى بطولة الشطرنج هذا العام بعد أن انقطعت عنها العامين الماضيين، لتزامنها مع امتحانات الكلية.

رغم أنى حملت لقبها فى الأعوام الثلاثة الأولى منذ التحاقى بالجامعة وقد كانت براعتى بالشطرنج نابعة من حبي لأبى، الذى كان مولعًا بها قبل سفره للخليج للعمل هناك.

فكان يحضر لى شرائط الفيديو وكتب تعليم الشطرنج وكان يسعد كثيرًا كلما تطور مستواى حتى برعت به، لكنى لم أفز عليه ولو لمرة واحدة، فلم يستطع أحد غيره هزيمتى منذ أن احترفت اللعبة.

فالشطرنج بالنسبة لى موقعة حربية، والرقعة هى ميدان المعركة، أما منافسينى فهم ألدُّ أعدائى إلى أن أرى الهزيمة فى أعينهم بعدها يمكننا أن نصبح أصدقاء.

ورغم اعتذارى فى العامين الماضيين؛ إلا أن إصرار (يوسف) جعلنى أقرر المشاركة هذا العام إنتقامًا له من بطل العام الماضى الذى هزمه فى المباراة النهائية، فهذا واجب الصداقة كما قال (يوسف).

التقيت يوسف وما أن سجلت اسمى ضمن المتقدمين؛ حتى وجدته يخبرنى بأن المسابقة ستبدأ بعد قليل !. كيف وأنا لم أتدرب ولم أراجع خططًا للشطرنج منذ أكثر من عام حينما كنت أتمرن للعب مع والدى فى إجازته الأخيرة لأتمكن من هزيمته، لكنه لم يدعنى أفوز عليه تلك المرة أيضًا، فما أقسى الآباء هذه الأيام.

وبالفعل انطلقت المسابقة، فرحت أشاهد بعض المباريات، لأقف على مستويات المنافسين.

لعب (يوسف) مباراته الأولى، وكان خصمه شرسًا بحق، لكن (يوسف) نجح فى هزيمته فى نهاية المطاف.

ثم لعبت أنا خمس جولات متتالية، أسعفتنى خبرتى بالفوز بها، لينتهى اليوم وقد صعدت برفقة (يوسف) للأدوار النهائية، لكنى كنت مرهقًا لدرجة جعلتنى أعود سريعًا للمنزل لأرتمى فى أحضان فراشى وأغط فى سباتى.

ثم استيقظت فى المساء، لأجد والدتى وأختى الصغرى (ريحان) أمام التلفاز تشاهدان إحدى الأفلام العربية القديمة، والتى كانت تعشقها أختى عشقًا يجعلها تفرضها علينا فرضًا وإلا تَحوَّلَ البيت لساحة معركة، فى النهاية تفوز هى بها كل مرة.

ذهبت إلى المطبخ، وأعددت كوبًا كبيرًا من القهوة لأتمكن من طرد ذلك الصداع اللعين الذى ينقر كالدَّقاق فى رأسى، فكما يقولون الصداع هو عقاب العقل لنا على كثرة التفكير.

لم يروقنى الفيلم الذى كانت (ريحان) مشدوهه له، رغم أنها تراه للمرة المليون، فذهبت إلى غرفتى، وأغلقت الباب ليقع بصرى على رواية الزهراء، فتناولتها وبدأت أقرأها مجددًا.

****

استيقظ (عبدالرحمن) على رائحة شواء نفَّاذة، ليجد (خالد) يقلب أرنبًا بريًا فوق النار كان قد نجح فى اصطياده حيث كان كغيره من الفرسان مولعًا بمطاردة الحيوانات البرية.

يخبرنى أنفى أنك وقعت على صيد سمين يا صديقى قالها عبدالرحمن مازحًا، ليرد خالد:

-لقد استغرقنى هذا الأرنب ساعة من الترصد والترقب لاصطياده، وهذا سبب كاف ليجعله أشهى ما سيداعب جوفى.

أكل الفارسان ثم قاما إلى جواديهما وانطلقا باتجاه مدينة طليطلة التى وصلاها فى مساء اليوم التالى، فدخلا من باب المردوم، ثم عرجا على (حمام زيد) بالحى اليهودى القديم، فاغتسلا من عناء الرحلة الطويلة بعدها توجها إلى جامع المردوم، الذى بنى على نفقة عمه (أحمد بن الحديدى) الخاصة وقد شيَّده (موسى بن على البناء) من الحجر الجرانيتى والآجر، وقد كان بديع البنيان.

ما أن فرغ القائدان من صلاة العشاء؛ حتى تقدم نحوهما شيخ عجوز يتحامل على نفسه، ما أن رآه خالد حتى اندفع نحوه فى شوق بالغ كان هذا هو العلامة الشيخ (أحمد بن مغيث الصدفى)، الذى تتلمذ خالد على يديه.

وبعد أن اطمأن عليهما الشيخ، سألهما عن أحوال جيش المسلمين المرابط فى الشمال، فطمأنه (خالد) بما فتح الله عليهم من نصر على أعداءه. ليبشره الشيخ بأنه قد رأى فى المنام رؤية عظيمة، وأنه سيكون له شأن عظيم بإذن الله. فتهللت أسارير خالد لما يعلمه عن الشيخ من كرامات، ثم عانقه طويلًا.

بعدها ودعهما (ابن مغيث) وهو يدعو لهما بالصلاح والتوفيق.

فانطلقا معًا ليشده بصرهما روعة بساتين المدينة وحدائقها والتى لم تكن بهذا البهاء والروعة فى آخروجود لهما بالمدينة.

كانت الحدائق خلابة ورائحة الزهور التى تعبق بأنفاس المارَّة خارج أسوارها تجعلك تحلم بكل ما هو جميل، فقد كان المأمون مولعًا بالأزهار بكل أنواعها وخاصة النادرة منها، عهد بإنشائها إلى العالمَين؛ ابن وافد وابن بصال وحثهما على جلب شتى أصناف الزهور والعناية بها، فشيدا (الحديقة النباتية الجامعة)، درة الحدائق فى زمانها، حيث يتوسطها قبة مائية كبيرة يتوزع منها الماء إلى كامل الحديقة حتى يصل لقصر المأمون المقام فى وسطها فمن شدة إتقانها؛ أطلق عليها (المنية المنصورة).

لكن ما ذهب بعقليهما، هو (البيلتين) أو حوضى طليطلة فقد كانا فى قمة الإبداع المعمارى وقد شُيِّدا فى بيتٍ مجوف فى جوف نهر تاجه بباب الدباغين، ومن عجيب صنعهما؛ علاقتهما بالقمر فمع زيادته، يزدادان بالماء وحين ينقص القمر ينقصان، دون أى تدخل خارجى ومقدار الزيادة والنقصان نصف سبع فى اليوم والليلة، لذا بعد سبعة أيامٍ من بداية الشهر يكون قد امتلأ نصفيهما بالماء وفى اليوم الخامس عشر يمتلآن بالماء، ثم يبدآن بالنقصان حتى آخر الشهر، وينعدم منهما الماء فى اليوم التاسع والعشرين.

كما زاد من انتشار الحدائق بطليطلة ولع ابنته (ليلى) بالأزهار حتى إنها خصصت جانب كبير من حديقة قصر اللؤلؤة لأبحاثها المتعددة على النباتات بغرض استنبات سلالات جديدة واستخلاص الأدوية من بعضها.

ودومًا كانت تلك هى شيم الملوك فى كل زمان، فالملك والمال يحثان على الإبداع.

دخل (خالد) على والديه اللذين تهللا لرؤيته وعانقاه عناقًا حارًا وأخذا يتحسسان جسده ويستنشقان أنفاسه ليملآن روحيهما منها ثم بكيا طويلًا ليمسح خالد دموعهما ويربت على كتفيهما ليطمأنهما أنه بخير.

"لقد اشتقت إليكما كثيرًا يا والدى"، قالها (خالد) وهو يذرف دموعه التى اندفعت كنهر شقَّ دربه على وجهه.

توقفت هنا عن القراءة حيث غلبتنى دموعى التى بدأت تنهمر كالمطر، عندما تذكرت والدى الذى اشتقت له كثيرًا؛ فثمة أشياء لا يملأها إلا حكمة الأب، ولن نهنأ بأمان أبدًا سوى فى كنفه؛ فهو دومًا الميناء والمرسى وبغيابه نصبح كمركب ضال تتقاذفه الأمواج.

ثم قطع نوبة الشجن؛ رنة هاتفى لأجد (محمود) يخبرنى بصوت متقطع ومتحشرج، أنه قد اقتنع بكلامى معه فى المعرض وقرر أن يبوح لـ "حبيبة" بكل ما يضمره لها من مشاعر الحب، وقد اختار يوم زفاف أختها غدًا، فرصة لذلك؛ حيث ستكون فى مزاج جيد لتستقبل الأمر.

فأخبرته أنه قد اختار الصواب، وشجعته على تنفيذه، رغم ما بى من شعور يخبرنى أنه سيعود مثقلًا بخيباته، فالحب شعور فاضح وعدوى لا يمكن السيطرة عليها، وإن كانت (حبيبة) لم تشعر بحبه لها طيلة هذه الأعوام؛ فلن تشعر به الآن، واعترافه لها لن يغير من واقع الأمر فى شيء سوى أنه سيجعله يستفيق من غفوته ويكف عن التعلق بأوهامه.

كما أننى كنت أجدها أنانية، بل قمة فى الأنانية سواء بقصد منها أو غير قصد، كونها تحجم مشاعره نحوها فى خانة الصديق بينما هو يطمع أن يصبح الشريك الأوحد.

لذا يجب عليها الآن الاختيار؛ إما أن تحصل عليه كاملًا أو لا شيء منه على الإطلاق، فهذا يعد عدلًا.

أغلقت الهاتف مع (محمود) لكنى لم أجد فى نفسى القدرة على إكمال القراءة خاصة وأن لدى أشياء كثيرة غدًا، لكنى تحاملت على نفسى وأحضرت بعض كتب والدى الخاصة بالشطرنج، كى أراجع بعض الخطط، لأن منافسى الغد يُتوقع أن يكونوا على مستوى عالٍ، وأنا لم أخسر مباراة فى الماضى؛ حتى أخسر اليوم، كما أننى لا أحتمل فكرة الخسارة من الأساس.

نزلت مبكرًا من المنزل فى صباح اليوم التالى؛ لألحق بيوسف فى الجامعة، فوجدت (مصطفى) بصحبته؛ فقال لى (يوسف) بجدية:

لا بد أن يفوز أحدنا بالبطولة، لن ندع (حسام) يفوز بها مجددًا. -

فقلت مستوضحًا الأمر:

-ومَن (حسام) هذا؟

ليرد (مصطفى) وقد تعالت ضحكاته:

-إنه (حسام حلمى) صديقى بكلية الهندسة وهو مَن فازعلى (يوسف) في المباراة النهائية العام الماضى.

فقال (يوسف) وقد بدا عليه الانزعاج:

-لقد حدث ذلك لفقدانى التركيز بسبب مرض والدى المفاجئ صباح يوم المباراة، لكنى اليوم سأوريكم كيف يُلعب الشطرنج.

فقال (مصطفى) مستفزًا إياه:

-لا يا صديقى، عندما يرغب المهندس فى القيام بشيء، فالطبيعة ذاتها لا تقوى على الوقوف بوجهه، كونه الوحيد القادرعلى تطويعها متى أراد.

ثم لعبنا مبارياتنا، وفزنا بها، وكان أدائى قد تحسن كثيرًا عن الأمس، ورغم قوة خصومى اليوم، إلَّا أننى تمكنت من الوصول للمباراة النهائية، ليأتى الدور على (يوسف) ليلعب مباراته قبل النهائية وكان خصمه فيها شابًا أبيض البشرة، طويل القامة يكاد يقترب طوله من المائة والتسعين سنتيمتر، جسمه متناسق، مهندم وأنيق فى زيه، وكان يرتدى نظارة طبية تجعلك ترتاح له سريعًا، وكان يدفعها باتجاه عينيه بين الحين والآخر فى حركة لا إرادية.

وكانت ملامحه الحادة وعينه اليقظة توحى بأنه متقد الذكاء، ثم اقترب منى (مصطفى) وأخبرنى أن هذا هو (حسام حلمى) صديقه وبطل العام الماضى.

جلس (يوسف) و(حسام) على جانبى رقعة الشطرنج؛ فكان (حسام) رزينًا، هادئًا، ويبدو واثقًا من نفسه وقدراته، يعلم جيدًا ما يفعله، بينما كان التوتر والخوف مسيطرين على (يوسف) يتجلى هذا فى تلك الرعشة التى تملكته والتخبط الواضح فى نقلاته، فقد جاءت رغبته الزائدة فى الثأر لهزيمته وإفراطه فى الشحن المعنوى لنفسه؛ عليه بالعكس.

بالطبع، كان ذلك أمرًا طبيعيًا؛ فلسنا كلنا نستطيع أن نتمالك أعصابنا، عندما ننظر فى عينى من هزمنا، كما أن لا أحد يقبل أن يُهزم مرتين، وخاصة إن كانت الهزيمة من نفس الشخص، كونك تستطيع إقناع نفسك بأن المرة الأولى ما هى إلا مجرد صدفة أو ضربة حظ، أو حتى غفوة وكبوة عابرة، لكن الثانية فهى تأكيد لأفضلية وتفوّق غريمك عليك.

أعطت نقلات (يوسف) العشوائية والمتخبطة فى البداية؛ الفرصة لحسام ليسيطر على المباراة منذ البداية، وحاول (يوسف) بعدها أن يتدارك الأمر، وبالفعل تحسن أداؤه كثيرًا، لكن أخطاء البدايات، كلفته تجرع مرارة الهزيمة مرة

أخرى، وجعلت النهاية محسومة لغريمه الذى لمعت عيناه تحت نظارته فى خبث شديد لم أعتقد فى الوهلة الأولى أنه قد يمتلك خصلة كهذه.

يبدو أن النظارات الطبية لا تختلف كثيرًا عن نظيرتها الشمسية، فكلتاهما تخفي خلفهما الكثير من الأشياء السيئة، ثم قلت لنفسى:

-حسنًا لقد جاء برجليه إلى ميدانى؛ إذن فليتحمَّل عقابى، ففى لعبة الملوك؛ أنا أبرع الناس فى تلقين الدروس والعبر.

مدَّ (حسام) يده ليصافح (يوسف)، ثم قال له:

-فرصتك كبيرة فى العام القادم يا (يوسف)؛ فسأكون قد تخرجت وتركت الجامعة.

كتم (يوسف) غيظه، ثم توجه نحوي وحدق بى فى أسى وكأنه يطالبنى بالثأر، فأومأت رأسى وكأني أقول له:

فقط انتظر لتشاهد.-

فى المساء، جمعت كل ما لدى من كتب الشطرنج ووضعتها أمامى على الطاولة، ثم رحت أطالعها، فلا مجال للصدفة أو التراخى أو أى هفوة غدًا، وكما قال ألبرت أينشتاين:

عليك أولًا؛ تعلم قواعد اللعبة جيدًا، ثم تعلم أن تلعب أفضل من الآخرين""

لذا عكفت على مراجعة جميع الخطط والأفخاخ، وبعدما انتهيت منها؛ عدت إلى فراشى راغبًا فى النوم، لكنه لسبب ما أجهله؛ امتنع علىَّ، مما دفعنى لاستئناف قراءة الرواية مجددًا.

****

"جلس ابن الحديدى مع ولده (خالد)، ليطمئن عليه وعلى أحوال الجند فى الثغور الشمالية للمملكة، ويطلعه على ما آلت إليه الأمور داخل طليطلة، فأخبره كيف ازدهرت المدينة فى عهد المأمون حتى صارت تضاهى قرطبة جمالًا بل تفوقها.

كما أخبره عن اهتمام الملك بالعلم والعلماء وبناء دور العلم والحدائق والقصور التى صارت حديث الأقطار وصارت المدينة وجهة العلماء والعامة حتى أصحاب المهن والحرف خصصت لهم الأحياء خارج المدينة كى يسهل على العامة الوصول إليهم وتوفير المواد الخام لهم ولا ينزعج الأهالى بوجودهم كحى الدباغين والصباغين والكمادين.

ثم تطرق الحديث إلى الأميرة (ليلى بنت المأمون) فما أن ذُكرت على مسامع (خالد) حتى ارتجفت أوصاله كلها وتغير ماء وجهه فاحمرت وجنتيه كعذراء فى خدرها، ليخبره أبوه بأنها صارت هى الأخرى حديث الأقطار كلها؛ يتناقلون أخبارها ويضربون بها الأمثال.

كما أن لها دور كبير فى تزيين المدينة بالحدائق العامة وإغداق العطايا على الفقراء ونشر العلم عن طريق الدروس التى صارت تعطيها للفتيات والنساء فى دار العلم.

أعلم أن الأميرة (ليلى) كانت مولعة بالعلوم منذ صغرها. قالها (خالد) وهو يحاول إخفاء زفرة عميقة خرجت رغمًا عنه، ليقول أبوه: "لقد تعلمت الكثير على يد عمها (أرقم بن عبدالرحمن) رحمه الله، كما أن المأمون (يحيى بن إسماعيل الظافر) قد أرسل فى طلب أنبغ علماء العصر إليها فى كل مجالات الحياة حتى صارت درَّة تمشى على أرض طليطلة وصار (المأمون) يخشى عليها حتى من نفسها"

ثم سكت قليلًا، لتظهر علامات الحزن على وجهه قبل أن يردف: "لكن لا ينفى حذر من وقوع قدر".

فقال (خالد) فى لهفة: "أحدث لها مكروه يا أبى؟! ولمَ أرسل الملك فى طلبنا والنزاع لا يزال قائمًا على الحدود؟"

-هذا ما سأخبرك به الآن يا بنى؛ فأنت تعلم أن الأميرة (ليلى) قد تلقت الكثير من العلم على يد أستاذها أبوالحجاج (يوسف بن سليمان الشنتمرى)، الذى قدم مع جدها (إسماعيل) من شنتمرية عندما ولاه أبوه (عبدالرحمن) حكم طليطلة، وقد نشأت صداقة قوية بين ابنته (سمية) والأميرة (ليلى)، أثناء وجودهما معًا بالقصر، وتقول الأميرة إنها وصديقتها قد قطعتا على نفسهما عهدًا بأن من تسبق قرينتها فى الزواج، فإن الأخرى تحضر عرسها.

وها هو عرس صديقتها مطلع الشهر القادم، والأميرة ليلى تنوى الوفاء بعهدها والبرَّ بقسمها؛ فقال (خالد) وعلامات التعجب والاستنكار بادية على وجهه.

أنذهب لشنتمرية؟! الآن يا أبى، فى هذه الظروف بينما ينتظر الجميع لنا زلة؟! هذا الأمر يعد جنونًا وانتحارًا، ولكن ما علاقتى أنا وعبدالرحمن بذلك؟! ليرد أبوه قائلًا:

"الملك يريدكما أن تقودا الجند لحراسة موكب الأميرة؛ نظرًا لما أثبتماه من شجاعة كما أنه لا يمكن أن يأتمن أحدًا غير ابنى وزيريه على ابنته ودرَّته.". فقال (خالد) منزعجًا:

"أيعقل هذا يا أبى؟! أيجعلنا نترك ساحة المعركة والأمة كلها فى هذه المحنة وعلى أعتاب معركة الحسم، من أجل أن تبر فتاة بقسمها لرفيقتها؟! لقد كان (عبدالرحمن) محقًا فلقد أفسد الترف عقولهم.

ليرد عليه أبوه قائلًا:

"يا بنى، أنت لا تعلم مدى حب المأمون لابنته ومكانتها عنده؛ فهو على استعداد تام ليفرط فى ملكه كله ولا أن تؤذى شعرة واحدة منها". ليقول (خالد) غاضبًا:

"هذا شأنهما يا أبى لكنى لن أجاريهم فى هذا العبث، وغدًا سأحزم أغراضى وأعود للمعسكر، وأنت يا أبى أتوافقه فى هذا؟!". فقال ابن الحديدى:

"يا بنى أنا أخشى عليك غضب المأمون إن أنت عصيته؛ فالملوك لا يؤتمن غدرهم، ويعلم الله كم اغتممت منذ أن علمت بالأمر ليقينى التام برفضك له ولو كان على عنقك". فقال (خالد) بحزم وجدية:

"إذن ما دمت على رأيى يا أبى، فلن أطيعه فى هذا الأمر أبدًا، ولن أبيع دينى أو أقايض على نصرته؛ خوفًا على رأسى؛ فأنا واقفٌ بين يديه غدًا، وإن عُرض علىَّ هذا الأمر فسأقولها فى وجهه، وليقضِ ما هو قاضٍ. فإنما هى أعمار بيد خالقها لا يُزاد عليها ولا يُنقص منها".

هنا قام (ابن الحديدى) واحتضن ابنه ثم أجهش بالبكاء وهو يقول:

"إياك والتطاول على الملوك يا بنى، وأنا أخشى عليك بطشه إن أنت أهنت كبرياءه برفضك، فدعنى أنا أصيغ له الأمر على طريقتى، لقد أردت فقط أن أتأكد من رأيك هذا، والآن نم وأرح صدرك فلا شك أنك متعب جدًّا من أثر السفر، وغدًا سيُكتبُ لنا الخير جميعًا بإذن الله".

فقام (خالد) مودعًا أباه وصدره يكاد ينفجر حنقًا وغضبًا.

فى الصباح، ذهب (أبوبكر يحيى بن الحديدى) إلى قصر الناعورة، واستأذن لمقابلة الأميرة (ليلى) التى رحبت به،

ثم بادرته قائلة:

"لقد علمت بوصول (خالد) أمس، عساه بخير، هل أطلعته بأمر السفر؟"

ليطرق (ابن الحديدى) رأسه قليلًا، قبل أن يرفعها وهو يقول:

"تعلمين يا ابنتى ما يكنَّه لكِ الجميع من حب واحترام، فأعناقنا أرفع من الشعرة أمام برك لقسمك، لكن كما قلت لكِ سابقًا، ليس من الحكمة قطعكِ هذه المسافة، فأنتِ تعلمين كم صار المترصدون لأبيك كثر، بعد أن اتسع ملكه شرقًا وغربًا، ولن يجدوا أمرًا أعظم من أن يفجعوه فيكِ".

فحدقت الأميرة بوجهه بعد أن استنبطت أنه قد أخبر ابنه ورفض، لتقول وقد بدا عليها الانزعاج:

"وما جدوى ما وصلنا إليه إذن؛ إن كنا سنعيش سجناء بين جدران القلعة، ما قيمة الحياة بدون حرية الاختيار الأمر ليس مجرد برٍّ لقسم، بل تمرد على ذلك الخوف الذى يجعلنا نخشى مغادرة الفراش". لتسكت فجأة، حاولت أثناءها ابتلاع بعض الأنفاس ثم نفثتها فى غضبٍ وهى تقول:

"أهذا رأيك يا عماه أم رأى خالد؟"

فقال ابن الحديدى:

"هذا رأى العقل والحكمة يا ابنتى قبل أن يكون رأيى أو رأى خالد".

فقالت ليلى:

"إذن دعنى أسمعه من (خالد) بنفسي".

فخرج (ابن الحديدى) وأرسل فى طلب (خالد) الذى أتى إلى القصر، وترجل عن فرسه عند بوابته، لتصطحبه (سيليا) مُربية الأميرة، التى أخبرته أنها تنتظره ببستان الناعورة ثم تركته، ليسير وحيدًا بين النباتات الخلابة والأزهار المبهجة

الفواحة، رغم بداية فصل الشتاء حيث أنعم على ورقاتها بحبات الندى لتتساقط منها على الأرض كقطع اللؤلؤ، وتختال أغصانها كعروس تزفُّ إلى مخدعها.

أُخِذَ (خالد) بروعة القصر وبخاصة بحيرتيه البديعتين، حيث يوجد على أركانها تماثيل لأسود مصنوعة من الذهب الإبريز، فاغرة أشداقها حيث ينساب منها الماء نحو البحيرتين، كما أن فى قعر كل بحيرة؛ حوض رخام يسمى المذبح، وهو مصنوع من المرمر الرفيع، وقد نقشت عليه صور حيوانات وطيور وأشجار.

كما يوجد فى وسط المذبحين؛ شجرتان عاليتان من الفضة، يدخل الماء من أسفلهما إلى أعلاهما فيُصبُّ من فروعهما كرذاذ المطر، مصدراً أصوات عذبة تريح النفس، كما أن بذروة الشجرتين، عمود ماء ضخم منضغط الاندفاع.

نظر (خالد) أمامه ليجد الأميرة (ليلى) فى فستان أزرق تلمع به حبات اللؤلؤ الأبيض كقناديل زيتية تغازل شمس الصباح، وتتدلى أكمامه فوق أصابع يديها كورقتى يقطين نضرتين، بينما هى تختال كالفراشات فوق أرجوحتها الوردية ووجهها يبرق كياقوتة صافية وسط الورورد الزاهية والتى تتمايل نحوها لتستنشق عبيرها ثم يحملها النسيم بعيدًا قبل أن تقبل نحوها مجددًا، وكأنه يراقصها فى انتشاء، وكانت رأسها تتحلى بذلك التاج المرصع بحبات اللؤلؤ والماس يجعلها كأميرة خرجت لتوّها من كتب الأساطير.

كانت دقات فؤاده تتسارع كأنه يود الإفلات من صدره، بينما ترتجف أوصاله حتى إنه لم يعد قادرًا على الاقتراب أكثر.

بينما بدت هى هائمة فى وادٍ آخر، لم تنتبه بعد لوجوده، تأملها فكانت كاملة الأوصاف، رائقة الجمال، ذات وجه أبيض تكسوه النضرة، عينان واسعتان قد تخضبتا بلون السماء، يفوح عطرها السحرى فيذهب بالعقل، أشبه بملاكٍ حالم، بل حوراء من الحور العين نزلت لتوّها من الفردوس الأعلى، أجل تكاد تضاهيهن حسنًا وبهاء، وكأن الخالق يخبرنا أنه لا مدى لإبداعه، وكى يعلم الصالحون ما ينتظرهم بالسماء. أليست تلك التى لو أطلت بوجهها من السماء، لأضاءت ما بين السماء والأرض ولظلَّت الأعناق معلقة بها إلى قيام الساعة، أوليست هذه التى لو تفلت بالماء الملح الأجاج، لأصبح عذبًا فراتًا، بل لصار عسلًا مصفًّى؟!. لقد امتلك ابن ذى النون درَّة من درر الزمان، تُعادل فى حسنها كل ما حازه أبناء ذى النون، بل إنها كنزهم وثروتهم الحقيقية. وما أشقاك يا ابن الحديدى لقد صار حلمك عصيًا جدًا.

ظل (خالد) متسمرًا كالصخرة فى موضعه، بينما يرتجف كل شيء بداخله، فما أعجب هذا الحب الذى يجعل فارسًا صنديدًا مثله؛ قارع الموت كثيرًا ولم يهابه لحظة، نازل أعتى الفرسان فكان ثابتًا جسورًا، وها هو يقف أمامها فتنال منه حمرة الخجل، وتخونه رباطة جأشه! كيف وهو الذى صال وجال فى شتى ميادين المعارك ورحى الحرب تدور من حوله، تطحن الجميع، وهو يزأر كالأسد الكاسر، يدوى صوته كهزيم الرعد، يصمُّ المسامع فترتعد فرائس الأعداء، وتنقضُّ مضاجعهم لذكره.

وبعد أن اختبر الموت ثبات قلبه مرارًا حتى صار الموت ذاته يفر منه؛ ها هو قلبه اليوم يخفق أمامها كالفتيات البكر.

ثم حمل النسيم العليل عود وردٍ، وداعب به يده فأمسكه ليجده زهرة (إكليل الجنة) فقطفها واتجه نحوها، فما أن انتهت لوجوده، حتى جثا على ركبتيه، وهو يحدق بالأرض، مادًا إليها يده بالوردة قائلًا:

"لقد تشرفت العيون والورود برؤياك يا مولاتى، فتأملته بعينيها الزرقاوين الواسعتين كقبة السماء الصافية، ثم ما لبثتا أن لمعتا فصارتا كموجٍ ناعم يتراقص ببحر لُجّى. حقًا تعجز الكلمات عن وصف مدى جمال عينيها التى أهدتها إياها أمها القوطية (ماريا) التى تزوجها المامون فامتزج الجمال الغربى بسحر وأصالة الشرق"

فقالت الأميرة "كيف تتشرف العيون برؤياى وهى تتحاشى النظر إلى؟!" فرفع خالد رأسه وهو يقول:

"ما من عين على وجه الأرض تقوى على تحمُّل نور وجهك يا مولاتى"

لترتسم ابتسامة صافية على شفتيها الوردتين قبل أن تقول:

"لم تتعلم قط من أخطائك القديمة يا (خالد) ألا تخشى غضب الملك عليك مرة أخرى، إن علم أنك ما زلت تقطف زهور حديقته؟!".

وكانت الأميرة ترمى إلى ذلك اليوم الذى تسلل فيه (خالد) وهو صبى صغير من وراء الحراس، ودخل حديقة القصر فأعجبته زهرتين زرقاوين كونهما تشبهان لون عينيها التى كانتا شديتى الزرقة، لكنه قام بخلعهما من جذورهما، ثم أهداهما للأميرة بعدما شفيت من مرضها الذى كاد يودى بحياتها ولكن لسوء طالعه كانت هذه ضمن مجموعة من الزهور النادرة التى جلبها (ابن بصال) من أفريقية لإستنباتها بالحديقة، وكان يعتنى بها المأمون بنفسه نظرًا لبهائها وروعتها، لذا استشاط غضبًا ما أن علم بالأمر، وكاد يدق عنق الحراس، لولا أن تقدم الصبى بشجاعة واعترف بجريمته ليرفع الظلم عن الحراس، فعفى عنه (المأمون) لحسن

صنيعه أثناء مرض الأميرة، لكن أمره بإحضار الأزهار، فأخبره (خالد) أنه قد ألقى بها فى النهر، فرد عليها خالد قائلاً:

"لكنها هذه المرة هى من استجدتنى أن أُهديكى إياها، فيا له من شرف ما بعده شرف أن يداعب عطرك وريقاتها، ويا لها من نشوة إن هى فازت منك بنظرة أو لامست صفحات وجنتيك الكريمتين". لتقول الأميرة وقد ازدادت وجنتيها حمرة وخجلًا:

"ما زلت تجيد الغزل يا (خالد). كنت أخشى أن تكون حياة الجندية وقعقعة المعارك والسيوف قد غيَّرتك". فقال خالد:

"كل شيء قابل للتغيير يا مولاتى إلا المحبة الصادقة، تظل كامنة فى أشد المواضع أمنًا بالقلب لا يصل إليها شيء حتى صاحبها لا يستطيع تغييرها".

هنا نظرت إليه الأميرة وقالت بمكرٍ:

"كيف تزعم أنَّ لى محبة بقلبك، ثم ترفض مرافقتى وحمايتى؟!" فقال (خالد) وقد اتخذت ملامحه الجدية:

-حاشاى أن أرفض مرافقتك أو حمايتك يا مولاتى، فنفسى فداءً لكِ، لكنى أرى أننا نقحم أنفسنا فى أمرٍ نحن فى غنى عنه، والأعداء تتكالب علينا من كل مكان، جيش ليون وقشتالة من الشمال، وجيش (ابن هود) من الشرق، والأوضاع الأمنية بالأندلس كلها غير مستقرة، فسلامتك تأتى دومًا فى المقام الأول.

-إن كنتَ تخشى علىَّ حقًا، فلا تدعنى أذهب وحدى، فإنى ذاهبة بكَ أو من دونك، لكن تذكر أنك تتنكر اليوم لوعدك القديم، ألست أنتَ من وعدنى بأن تكون ملاكى الحارس متى احتجتك؟

قالتها الأميرة وهى تتأمل عينى (خالد) بابتسام، فنظر خالد فى عينيها، لتخونه تنهيدة حارة خرجت من صدره رغمًا عنه، حاول بعدها التقاط أنفاسه، فقال بكلمات متقطعة:

"أما زلتِ تتذكرين هذا الأمر يا مولاتى؟" لترد الأميرة قائلة:

"وهل يعقل أن أنسى مَن كان سيدفع حياته ثمنًا لإنقاذ حياتى يومًا؛ فأنا سأظل مدينة لك بعمرى كله يا (خالد)".

فقال خالد:

"كلنا فداؤك يا مولاتى، فهذا حق الملوك على الرعيَّة، وواجب الرعية تجاه ملوكهم" فقالت الأميرة:

"لكنك بالطبع لم تفعل ذلك من أجل الوفاء لملكك يا (خالد)، فقد كنا صغارًا لندرك مثل هذه الأمور، أليس كذلك؟".

ليتلعثم (خالد) قليلا قبل أن يقول:

"الوفاء للملوك غريزة فطرية فى قلوب الرعية، تولد معهم يا مولاتى". فخيَّم الحزن فجأة على ملامح الأميرة قبل أن تقول:

"لكنك اليوم تأبى الوفاء بعهدك، ألم تعدنى بأنك ستكون بجوارى إن حدث لى مكروه؟" فتذكر (خالد) صباهما الغابر عندما كانا يلعبان معًا مع بعض أقرانهم فى حديقة القصر، حينما فقدت الأميرة توازنها من على الأرجوحة، لكن (خالد) كان بجانبها فحاول التقاطها لكن قوته الصغيرة لم تنصفه، فسقط بها على الأرض، وارتطمت رأسه بها بشدة، ليفقدَ على إثرها الوعى، فظنَّ الجميع حينها أنه قد مات، لكن طبيب القصر طمأنهم أنه بخير، ليفتح (خالد) عينيه فيجد (ليلى) أمامه، تشكره لإنقاذه حياتها وأنه من اليوم قد صار ملاكها الحارس كما أخبرتها والدتها أن

الله قد سخر لكل أميرة جميلة؛ ملاكًا حارسًا يعتنى بها ويدفع عنها المخاطر، ليبادرها الصغير وهو يزهو بنفسه قائلًا:

أجل، أنا ملاكك الحارس وستجدينني بجوارك دائمًا متى احتجتِ إليَّ.". "

ولم يكن الصغير يعى بأنه قد قطع على نفسه وعدًا كبيرًا سيظل طوقًا يقيد عنقه مدى الحياة. فبعد عدة أشهرٍ مرضت الأميرة مرضًا شديدًا ونزلت بها حمَّى فتاكة، جعلتها تتصبب عرقًا غزيرًا وتهذى باستمرار، وحار الأطباء فى معرفة سببًا لها، إلى أن قَدِمَ (أبا المطرف عبدالرحمن بن محمد اللخمى) الشهير بابن وافد وكان من كبار أطباء الأندلس، ليزيل الغموض عن مرضها، فأخبرهم أن الأميرة قد لُدغت بنوع من إحدى العقارب التى لا تترك أثرًا لموضع اللدغِ، لكن للأسف لا يوجد علاج لها إلى الآن. قبل أن يتدارك:

لكن بعض الرحالة تحدثوا بأن أحدهم قد لدغته إحدى هذه العقارب فأعطاه أحد الغجر شرابًا مستخلصًا من عشبة تنبت بأرضهم، فزال السم واختفت الحمى بعد بضعة أيام، هنا قال (المأمون) فى لهفة:

إذن، ماذا تنتظر؟! أعطها هذا الشراب" فقال ابن وافد:"

"هؤلاء الرحالة كانوا بأرض الأناضول يا مولاى وللأسف لم يجلب تلك العشبة أحد، وكل ما وردنا عنها مجرد ذكرٍ مقتضبٍ فى كتبهم، ولكنى سأعطيها بعض العقاقير التى ستخفف من الحمى قليلًا؛ لأنها إن ظلَّت على هذه الحال فهى هالكة لا محالة". كان الفتى واقفًا بجوار أبيه وهو يسمع ويشاهد حوار الطبيب مع الملك ثم قال بحماس:

"ما اسم هذه الشجرة يا سيدى؟ ليلكزه أباه؟". فأشار المأمون إلى الطبيب أن أجب عن سؤال الفتى، فأردف الطبيب "لقد ذُكِرَت بأسماءٍ كثيرة فى مختلف الكتب

فمنهم من أطلق عليها عشبة الحياة ومنهم من أسماها قُبلة الإله لكنهم وضعوا لها وصفًا مشتركًا، فطولها يبلغ الذراع الواحد، وأوراقها عريضة كأذان الفيلة ولونها أصفر مائل للحمرة قليلًا، وتكسو سيقانها أشواكُ حادة، تُطحن وتغلى فى الماء ثم تشرب عصارتها..." فقاطعه (المأمون) قائلًا:

"وأين نجد هذا النبات الآن؟" ليرد الطبيب فى أسى:

"ليس أمامنا الكثير من الوقت يا مولاى والبحث عنه وجلبه سيستغرق وقتًا طويلًا، ليسقط فى يد الجميع، ويسود الهم والغم جنبات القصر".

لكن الفتى الصغير لم ييأس، فهرع إلى (درب العطارين) يسأل التجار فى براءة عن عشبة الحياة، فلم يعرفها منهم أحد، ليعود أدراجه خائبًا، يتردد فى خاطره وعده للأميرة بأنه ملاكها الحارس وسوف تجده حينما تحتاجه، ليدخل مكتبة أبيه ويعكف على مطالعة كتب ومخطوطات الطب والنباتات دون جدوى حتى نال منه التعب لكنه تذكَّر أن أيام أميرته بالحياة صارت معدودة، فخرج يركض قاصدًا مكتبة المدينة العظيمة. ثم أخذ يجول فى أروقتها مذهولًا من كثرة أقسامها المتعددة، حتى وقعت يده على كتاب (تاريخ الحكماء) لـ (سليمان بن حسان) المعروف بابن جلجل وقد كان عالمًا وطبيبًا كبيرًا بالأندلس، فأخذ يطالع صفحاته سريعًا، فلم يجد مبتغاه هنا أيضًا، لكنه لاحظ أن الصفحة الأخيرة بالكتاب قد كُتِبَ على هامشها برسمٍ مختلف، جملٌ مقتضبة عن بعض القبائل فى أسيا والأناضول يستطبون من لدغات العقارب السوداء بعشبة، يطلقون عليها عشبة الحياة، وترياق الأمل وقبلة الإله، وذُكر وصفًا لها يشبه وصف (ابن وافد)، مع رسمٍ غير واضحٍ لها، "أهذا كل شيءٍ، إذن؟!" قالها الفتى بيأسٍ. وأخذ يردد فى نفسه لو

كنت ملاكًا حقًّا لفردت جناحى فى الهواء وعبرت بهما البحار والمحيطات لأجلب تلك العشبة من أقصى نقطة بالعالم.

لقد فتَّش فى مكتبة أبيه الكبيرة والتى كان يظن أنها تحوى علمًا غزيراً، فلم يجد شيئًا، وها هى مكتبة طليطلة العظيمة التى يضرب بها المثل فى جمعها لعلوم الدنيا، لم تحقق مبتغاه.

فأين يذهب الآن وهل هناك مكان آخر قد ينصفه؟! أجل مكتبة القصر، فالملك يحتفظ بداخلها بأندر الكتب والمخطوطات قالها الفتى وقد دبَّ الأمل فيه من جديد، فانطلق ينشدها. وكان القصر فى حالة فوضى، قد امتلأ بالأطباء والعرافين من كل مكان، لكن من سيسمح له بالولوج إلى المكتبة، وعجباً فقد تحالفت الظروف معه هذه المرة، فوجد بابها مفتوحًا على مصراعيه، ولمح والده بالداخل مع (ابن وافد) وقد وضعوا عدة كتب فوق منضدتها الفاخرة التى تتوسط باحتها وشرعوا فى قراءتها، دلف إليهما فلم ينتبها له، فتسلل بين أروقتها، كانت أعظم من مكتبة طليطلة نفسها، فقد كان (المأمون) يعقد مجلسًا كل شهر فيأتى إليه العلماء ورجال الدين والأدب من كل مكان فيهدوه نسخًا خاصًا من كتبهم؛ أملًا فى رضاه وطمعًا فى عطاياه.

ظل (خالد) يجول بناظريه فى أرفف المكتبة التى برغم اتساع امتدادها وعلو ارتفاعها، كانت فى غاية التنظيم والهندمة، ثم تسمرت قدماه عند قسم كُتِب عليه "طب النباتات" فقد كان علمًا واسعًا، له أصوله وقواعده، حتى وصل إلى مكانة عظيمة وقتها، واشتغل به الكثير من العلماء، فأنتجوا عددًا لا حصر له من المصنفات والمؤلفات القيمة، خاصة فى عهد (المأمون)، فاخذ يلتقط بعض الكتب عشوائيًا، ويقرأها وهو جالس على أرض المكتبة كى لا يراه أحد، لكن لم تكن هذه

المحاولة أوفر حظًا من سابقاتها، فقرر الاستسلام للأمر. فلو كان هناك شيء فلا بد أن العلامة (ابن وافد) قد قرأه سابقاً، ثم قام يعيد ترتيب الكتب فى أماكنها مجددًا، ليشخص بصره أمام نسخة أخرى من كتاب (تاريخ الأطباء) لابن جلجل لكنها كانت تبدو أكثر قدمًا، يتجلى ذلك من اهتراء أوراقها، وبُهت الخط الذى كتبت به، فضاع الكثير من كلماتها، لتبدو وكأنها النسخة الأصلية للكتاب، أما نسخة المدينة فأغلب الظن أنها لتلامذته، كانت تحوى نفس الموضوعات، لذا انتقل (خالد) إلى آخر صفحاتها فلم يجد ذكراً لعشبة الحياة على الإطلاق، لكن سقطت مخطوطة صغيرة من الكتاب على الأرض، فتناولها ليجد مكتوبًا بها "أخبرنى تاجرًا يهوديًا بسوق المدينة ذات مرة؛ أن أحد الغجر قَدِمَ إليه ليبيعه نبتة ذات شوكٍ يدَّعى أنه عثر عليها بجبال طليطلة، بالقرب من وادى السباع، واحتال علىَّ بأن عصارتها ترياقًا للدغات العقارب والحيَّات وسألنى المال، ففطنت أنه ما هو إلا لص محتال، فطلبت من اليهودى أن يصفها لى، فطابق وصفه؛ وصف عشبة الحياة التى ذكرها رحالة الأناضول".

طوى خالد مخطوطة (ابن جلجل) فى جيبه وتسلل خارجًا من القصر، ثم هرع إلى صاحبه (عبدالرحمن) وأخبره بنيته الذهاب إلى جبال المدينة، فنهره (عبدالرحمن) فقد حدثه أبوه عنها فهى منطقة وعرة تسكنها السباع والوحوش وتملأ جحورها العقارب والحيَّات، كما يختبئ بها اللصوص وقطاع طرق وتجار العبيد وهؤلاء إن عثروا عليهما سيقومون بخطفهما وبيعهما رقيقًا.

فأخبره (خالد) بأنه لن يتراجع عن قراره، وسيذهب وحده، فلم يجد (عبدالرحمن) بدًا من مرافقته، وانطلق الصبيان يركضان خارج المدينة إلى أن وصلا هناك، وصعدا تلال وقمم الجبال الصغيرة حتى وصلا إلى مناطق تكسوها

بعض الثلوج، فتزيد من فرص الانزلاق والسقوط. أخذ الصبيان يبحثان وسط الأودية عن تلك العشبة السحرية لكن دون جدوى، وكانت برودة الطقس فرصة جيدة لهروب الزواحف والحيوانات البرية داخل بيوتها وجحورها، لكن لمح (عبدالرحمن) ذئبًا يترصدهما من بعيد، مكشرًا عن أنيابه، يبدو جائعًا وقد عثر الآن على وليمته، فنبَّه (عبدالرحمن) صديقه فى رعب، لكن ما أن رأه (خالد) يقترب منهما فى حذر، حتى استل سيفه الصغير الذى أعطاه له أبوه ليتدرب على استعماله ثم زأركأسد جسور، زأرة جعلت (عبدالرحمن) يرتعد ويتعجب من ثباته، ثم أخذ يلوح بسيفه فى الهواء، فأرهب انعكاس الضوء ولمعان السيف الذئب ليركض بعيدًا عنهما. فابتلع الصبيان أنفاسهما واستأنفا البحث لكنهما لم يعثرا على شيء، "يبدو أن (اليهودى) كان محقًا (يا خالد)، وما هذا الغجرى إلا لص محتال، لا يوجد شيء هنا". ليرد عليه خالد:

"ما زلنا لم نبحث فوق القمم العالية يا (عبدالرحمن)". فصاح به (عبدالرحمن): "هل جننت كيف سنصعد هناك مع وجود هذه المنحدرات الوعرة، فالطيرذاته لا يستطيع الوقوف عليها؟".

"سأتسلقها" قالها (خالد) فى ثقة قبل أن يردف:

هيا ساعدنى لنصنع حبالًا من أغصان الشجر، ثم أخرج سيفه وبدأ بالفعل فى قطع أغصان الأشجار، ثم ينزع عنها لحائها ويفتلها ليجعل منها حبلًا متينًا. وسط دهشة (عبدالرحمن) الذى لم يعد يدرى أهذا صديقه (خالد) أم لا.

ربط (خالد) الحبال ببعضها ثم وضعها فى صفين متوازيين ووضع وصلات بينها، ليصنع منها سُلَّمًا، لفَّه حول خصره، ثم بدأ فى تسلق قمة الجبل وحده، وكلما بلغ موضع به جذع شجرة قوى، ربط به سُلَّمه، إلى أن بلغ قمة الجبل بعد عناء

كبير، لكنها لم تكن مدببة كما كان يتوقع بل كانت عريضة واسعة، وبها العديد من الأجراف الحادة والأخاديد العميقة التى لا يُرى نهاية لها، وربما لو سقط أحد فيها، لبلغ أسفل الجبل.

لكن كان معظمها مغطى بالثلوج، تجعل الحركة فوقها مستحيلة، فلا يمكن أن توجد حياة هنا أصلًا، فالهواء قليل جدًا، حتى إنه أصبح يتنفس بصعوبة بالغة، وبدأ يترنح ولو مكث أكثر من ذلك لفقد وعيه فى أى لحظة، فقرر الاستسلام والعودة، لكن خانته الثلوج تحت قدميه، التى غاصت داخل أحد الأخاديد، إلا أنه استطاع الإمساك بطرف الحبل فى اللحظة الأخيرة، بعد أن غاص جسده كله فى الأخدود إلا من يديه ولخفة وزنه لم ينقطع الحبل، لينظر فى بطن الأخدود، فيرى بداخله شيئًا أذهله، إنها عشبة الحياة وقُبلة الإله، يحتفظ بها هنا بعيدًا عن أعين البشر.

لم يصدق الصبى عينيه، لكن كيف سيحصل عليها، خاصة بعدما أمعن النظر فى قاع الأخدود فوجده حقل ترعى فيه الكثير من الحيَّات وتصدر فحيحًا مخيفًا وكأنها تحرسها من اللصوص؟

فخرج من الأخدود، ثم قرر الاستعداد للنزول، غاضًا طرفه عن أمر الحيَّات بالأسفل، فإما الحصول عليها أو الموت فى سبيلها. فقام بإنزال ما تبقى من الحبل بداخل الأخدود لكنه لم يكفِ للوصول إلى قاعه فمزق قطعًا من ملابسه وربطها بالحبل، ثم نزل إلى الأسفل، يتأرجح وهو متعلقًا بطرف الحبل، كان منظر الحيَّات مخيفًا جدًا، لكن العجيب أنه ما أن اقترب منها، حتى ابتعدت عن الأعشاب، وكأنها كانت اختبارًا لثباته وشجاعته فقط، حمل الصبى ما استطاع الإمساك به، وخرج، لكن نقص الهواء كان قد نال منه، فبدأ يترنح ويسقط على الأرض، فجاهد بصعوبة

ليبقى عينيه مفتوحتين، كى يظل محافظًا على وعيه، ثم بدأ النزول شيئًا فشيئًا، بصعوبة بالغة، حتى اقترب من موضع انتظار عبدالرحمن الذى تهلل لرؤيته، فقد اشتد به الخوف عليه، ولو تأخر أكثر من ذلك لهرع طالبًا النجدة، لكنه فزع ما أن رأى (خالد) يفقد اتزانه فجأة، ويهوى من الأعلى، ليتخبط جسده بين الصخور إلى أن سقط بجواره مغشيًا عليه، والدم يندفع من أنحاء جسده كجدولٍ أحمر يخضب بياض الثلج من حوله.

هلع (عبدالرحمن) من هول الموقف، وحاول إفاقة (خالد) بلا جدوى، كما أنه لم يستطع حمله، فركض سريعًا باتجاه المدينة، فأخبر والده بالأمر، ليمتطى (ابن الفرج) جواده وينطلق قبل أن يلحق به (ابن الحديدى) و(ابن وافد)، حتى وصلا الموضع الذى سقط فيه (خالد) ليجدوه غارقًا فى دمائه، قد شحب لونه وبرد جسده، فتحسس (ابن وافد) نبضه وأنفاسه ليجدها واهنة جداً تكاد تكون غير محسوسة، لكنه ذُهل ما أن رأى عشبة الحياة بيدِ (خالد)، فصاح قائلًا:

"لقد فعلها الفتى، لقد عثر على الترياق"

حُمِل (خالد) إلى قصر المأمون، وهناك قام الأطباء بتطبيبه وتضميد جراحه، بينما قام (ابن وافد) على الفور بتحضير الترياق من عشبة الحياة وقدمه للأميرة، فبدأت تتعافى وتعود إليها نضارتها تدريجيًا، أما (المأمون) فلم يصدق ما حدث، وأخبر (ابن الحديدى) أنه مدينًا لولده طيلة حياته، ثم أوصى بزراعة عشبة الحياة فى حديقته وتوفير كل الظروف الملائمة لنموها، وظل (خالد) فاقدًا لوعيه بضعة أيام لما نزفه من دماء أجهزت عليه فشحب وجهه حتى صار كشيخٍ عجوز. بعدها عاد إليه وعيه، وما أن فتح عيناه، حتى وجد الأميرة بجواره، والتى ما أن رأته يستعيد وعيه، حتى قامت باحتضانه فى عفوية وعنفوان طفولى وهى تقول "حمدًا

لله الذى لم يخيب رجائى، تعجز كلمات العالم كله عن شكرك يا ملاكى الحارس فأنا مدينة لكَ بعمرى كله". ثم شفيت جراح (خالد) كلها إلا من ندبة كبيرة تركت أثرًا غائرًا بوجهه.

انتشلنى من الأندلس؛ صوت هاتفى فوضعت الرواية جانبًا، وأمسكت به، لأجده (محمود) فترددت كثيرًا قبل أن أرد عليه لأنى لا أجيد كلمات المواساة، بل إنى لا أحترم ضعف الرجال خاصة إن تعلق ضعفهم هذا بالنساء، لكنى تفاجأت بمحمود يبادرنى بعبارات الشكر والثناء على حكمتى ورجاحة عقلى حينما نصحته بمصارحة (حبيبة)، فاعترف لى أنه قد تردد كثيرًا قبل أن تنطلق الكلمات من قلبه لا من فمه، وما خرج من القلب لن يسكن إلا فى القلب (على حد تعبيره)، فوجدَت كلماته صداها داخل قلبها لتعترف له هى الأخرى بحبها له، لكنها لم تكن قد تأكدت بعد من طبيعة مشاعرها، وخشيت أن يكون هذا الحب بسبب صداقتهما القوية واعتيادها عليه، لكن بعد اعترافه لها بحبه، لم تجد بُدًا من أن تعترف له هى الأخرى بما تضمره من مشاعر صادقة نحوه.

كان (محمود) مبتهجًا وكأنه يتذوق طعم السعادة لأول مرة فى حياته، فلم أره سعيدًا هكذا من قبل، رغم معرفتى الطويلة به منذ أن كنا صغارًا، فقد كان جارى منذ الطفولة، لكن كانت سعادته هذه المرة لا توصف.

لأتساءل؛ ما هذه القوة الخفية التى باستطاعتها تغيير مزاجنا بين غمضة عين وانتباهتها؟ ولماذا يضعف الحب الرجال ويقوى النساء؟

شاركت (محمود) فرحته وهنأته على تحقيق حلمه، فقد كنت سعيدًا كثيرًا لأجله، رغم أن هذه هي المرة الأولى التى يخيب فيها حدسى.

أغلقت الهاتف مع (محمود) فوجدت الساعة قد وصلت إلى الثالثة والنصف فجرًا فقررت النوم سريعًا، فلدى ثأر للصداقة غدًا.

أغمضت عينى، فبدأت خيوط النوم تتسرب إلى عروقى شيئًا فشيئًا، إلى أن رأيت نفسى أتجول وحدى على شاطئ بحر الإسكندرية، لكنه كان مهجورًا وكأنه لم يُكتشف بعد.

كنت فى وقت الغروب وكان قرص الشمس الأحمر يتراقص وسط حمرة الشفق الذى يحتضنه فى حنان ورقة، بينما تودعه أمواج البحر فى حرارة بالغة.

فوقفت أتأمل أمواج البحر المتراقصة أمامى، حتى وقعت عيناى على سوادٍ من بعيد، فاتجهت ناحيته كي أتبينه، علِّ أجد تفسيرًا لخواء الشاطئ على غير العادة فى هذا التوقيت، حيث يخرج الجميع للاستمتاع بمشهد الغروب، فاقتربت منه شيئًا فشيئًا حتى بدأت معالمه تتجلى، كانت امرأة تتجول حافية القدمية، مولية ظهرها لى، ورغم ذلك بدا جسدها من الخلف متناسقًا، وكأنه قد رسم بريشة فنان حاذق كما أراد، وتتطاير خصلات شعرها الناعم فى الهواء ما أن يعانقها نسيم البحر، فيتفرق وكأنه خيوط سوداء متناسقة قد رسمت على لوحة الفراغ من حولها.

كانت تمسك فستناها بإحدى يديها لتبعد عنه بلل الماء، لتكشف عن قدمين دقيقتين وساق كالمرمر ناصعة البياض، وكان ثوبها أزرقًا شديد الزرقة، وكم أعشق أنا الأزرق وكل ما هو أزرق، كانت تتمايل أذياله وأكمامه الواسعة مع تيار النسيم الراقص، فيحتضن جسدها بقوة وكأنه يعانقها لهفةً واشتياقًا بعد طول غياب، فلا بد أن تكون فاتنة، رائعة الجمال لتعشقها حتى أثوابها، فلا شيء يقوى على مقاومة الجمال، وحتى الجماد تدب به الحياة كى يُعبّر عن رأيه ما أن يَعبره شيء

جميلٌ، حاولت جذب انتباهها لوجودى بأن أنادى عليها، لكنى لم أجد لى صوتًا، فلا أدرى متى صرت أخرسًا؟

فحاولت الإسراع كى أصبح أمامها فترانى، فلم تستجب لى قدماى وظلت على سرعتها بل لقد بدأت تبطئ شيئًا فشيئًا.

لكنها فجأة بدأت فى الالتفات، فيبدو أنها قد انتبهت أخيراً لوجودى خلفها، ليبدأ قلبى فى الخفقان بشدة على نحوٍ لم أعهده فى حياتى من قبل، ثم لاحظت ارتجاف بيدىَّ، كما أصبحت عيناى ثقيلتان فصرت أجاهد لأبقيهما مفتوحتين قدر الإمكان، فتيقنت أن شيئًا عظيمًا على وشك الحدوث، ثم وجدتها تقترب منى لتقف أمامى مباشرة، هنا شهقت بعمق ثم تنهدت وقلت فى نفسى.

يا الله! ما هذا الإبداع فى الحسن، إنها أية فى الجمال والفتنة وكأنها قد امتلكت جمال كل نساء الأرض، بل والسماوات أيضًا. تمتلك وجهًا متناسقًا ورائق القسمات؛ أبدع الخالق فى رسمه، عينين زرقاوين صافيتين كالياقوت الأزرق؛ لا تقوى على النظر إليهما طويلًا من شدة لمعانهما وبريقهما، نهدين بارزين كتفاحتين معلقتين بصفحة صدرها، وأنف دقيق يفضى إلى شفتين مكتنزتين ووورديتين كحبتى كرز تغويانك بإلتهامهما.

أمعنت الحوراء النظر إلىَّ ثم قالت وهى تبتسم "ألا تعرفنى! أنا الأميرة (ليلى بنت المأمون)" ثم أردفت "أما زلت لا تستطيع اللحاق بى؟!"

فهزتنى ابتسامتها التى كشفت عن أسنان ناصعة البياض كحبات اللؤلؤ المنثور داخل ثغرها الدقيق وكأنه فوهة كنزيأبى أن يكتشف أحد ما بداخله.

يا الله! لقد ملكَتْ قلبى وعقلى من أول وهلة، إذًا هى الأميرة (ليلى) لك الله؛ يا (ابن الحديدى) كيف استطعت كتمان حبك فى قلبك كل هذا الوقت، بينما أنا ما أن رأيتها؛ حتى عزمت على البوح لها بكل ما أشعر به الآن.

أردت الكلام لكنى تذكرت أنى قد صرت أخرسًا هذا اليوم، فأشرت بيدى نحو قدمىَّ، وأنهما سبب عجزى عن اللحاق بها، لكنها هزت رأسها بالنفى، ثم أشارت بإصبعها إلى السماء. فنظرت إلى السماء لأكتشف ما تقصده، لكنى لم أجد سوى زرقة السماء الصافية؛ فنظرت إليها مستوضحًا، لكنى لم أجدها.

جلت ببصرى فى كل الأرجاء فلم أعثر عليها، وكان المدى والأفق شفافًا وواضحًا، لكنه كان فارغاً وخاوياً وكأن هذه الأرض لم تعمر من قبل، حتى عمارات الشاطئ المتراصة والممتدة بطوله، لم تكن موجودة!

حاولت الركض فوجدتنى؛ قد استعدت القدرة على التحكم فى قدمىَّ مجددًا، فركضت هنا وهناك بحثًا عنها، لكن دون جدوى تذكر، ثم سمعت صوتًا مدويًا فى الأفق، يأتى من مكان غير مرئى ويشبه صوت الأزيز، ثم أفقت لأجده ضوضاء المنبه، ووالدتى واقفة بجوار السرير تحاول إيقافه.

حاولت استعادة وعيى بصعوبة، لأدرك أننى كنت فى حلم جميل مع أجمل من رأت عينى، وشعرت بموجة خفيفة ولذيذة تسرى بجسدى، فتجعلنى منتشيًا وكأننى أستطيع التحليق فى الهواء أو الركض على صفحات الماء، فقلت لنفسى:

"أهذا ما يسمونه الحب؟!، ولكن كيف يحدث بهذه السرعة، ورغماً عنا هكذا؟ بل وكيف يجعل كل شيء فى أعيننا مثاليًا حتى ولو لم يكن كذلك فى الحقيقة؟"

ثم تساءلت:

"أهى حقًا بارعة الجمال إلى هذا الحد؟! أم أن الحب هو مَن يجعل من نحبه يبدو بأعيننا أجمل أهل الأرض؟!"

حقاً الحب يعمينا ويصمنا عن كل ما حولنا، فيخفى عنا كل الحقائق والمسلمات بل وبديهيات الأمور أيضًا؛ يحجبها عن أعيننا؛ فنرى كل شيء مثاليًا، ونظن أن بإمكاننا جعل المستحيل ممكنًا، وإن ظل مستحيلًا، لكنه يوهمنا كذبًا، بأن لنا قدرات خارقة لا يقف بوجهها شيء. فيعمينا عن النهايات المؤلمة؛ التى يراها الجميع لكننا نفضل تكذيب صدقهم وتصديق كذب الحب.

ونظل نبارك مزاعمه المزيفة رغبة منا فى استمرار هذا الشعور اللذيذ إلى آخر لحظة، لنستفيق بعد وقوع الكارثة، فنكتشف أن كل شيء حولنا قد تغير منذ زمن، لكننا لم نلحظ، وأن كل شيء كان سيئاً منذ البداية لكننا فضلنا التجاهل.

ورغم ما بى من إرهاق شديد؛ كنت أشعر داخلى بنشوة غريبة، وشعور لذيذ ممتع، هوَّن علىَّ كثيرًا، ثم تذكرت موعد المباراة، فقمت واغتسلت وتناولت إفطارًا خفيفًا، ثم ودعت أمى وخرجت من المنزل، لأصادف (مصطفي) مع (محمود) على باب الجامعة.

****

الفصل الثالث

"كانت تعلم جيدًا أنى لا أكتب عنها

إلا حين أتألم منها؛

لذا كانت تتلذذ بتعذيبى"

سألنى(محمود) فى ترقب قائلًا:

"ما بك يا (محمد) فوجهك يبدو شاحبًا ومرهقًا للغاية؟" فقلت له إننى لم أنل قسطًا كافيًا من النوم، وقد كنت بالفعل مرهقًا لدرجة جعلتنى لا أقوى حتى على الكلام، لذا كنت أدعو الله أن أتمكن من التركيز فى المباراة.

كان (يوسف) بانتظارنا فى قاعة المسابقة، ثم حضر (حسام) وتصافحنا، فبدا متوترًا عن الأمس، لكن ما لم أفهمه هى نظرات الانتقام التى كانت تملأ عينيه وكأنه يعرفنى منذ زمن وهناك ثأر قديم بينه وبينى، ورغم أنه حاول أن يبدو ودودًا معى، لكن كانت نظرات الغيظ تخونه وتفضحه بين الحين والأخر، ليرمقنى مجددًا بحدة مبالغ فيها.

هنا وجدت فرصة لاستفزازه، لعلمى أن الاستفزاز دائمًا ما يؤتى أكله، خاصة فى لعبة تفكير وذكاء كالشطرنج، والتى تحتاج منك إلى إتزان وهدوء أعصاب وثبات انفعالى كبير وإلا خرجت الأمور عن السيطرة، والغلطة الواحدة هنا لا ينفع معها ندم؛ لذا قلت مستفزًا إياه.

يكفيك الفوز بالبطولة مرتين والآن ينبغى عليك التراجع للمرتبة الثانية فمثلى لا يليق به إلا المقدمة، ليرد متمالكًا أعصابه:

أخرج ما فى جعبتك وأبهرنى". فقلت معقبًا:"

"هذا أمر مفروغ منه، هيا لننهى هذه المباراة سريعًا، فلدى موعد مهم". ثم وضعت عينى على الرقعة ولم ألتفت إليه، لكنى كنت أعلم أن وجهه قد انتفخ من الغيظ، هنا علمت أننى قد أدركت مبتغاى، فقد كنت متوقعًا أنها ستكون مباراة صعبة، نظرًا للمستوى العالى الذى رأيته بالأمس من (حسام)، بالإضافة أيضًا

كونه سيلعب بالقطع البيضاء، لذا سيكون هو البادئ باللعب لأنه حامل اللقب، مما يعنى أنه سيكون متقدمًا علىَّ بحركة فى البداية، وهذا سيعطيه أفضلية الهجوم، واختيار أسلوب وطريقة اللعب، أما أنا؛ فسأكون مجرد رد فعل لحركاته، وسألجأ للكثير من المناورات انتظارًا لغفوة أو خطأ، حتى يمكننى انتزاع الهجوم منه، خاصة وأن سر قوتى، يكمن فى الهجوم ومباغة الخصم أكثر منها فى الدفاع، فلم أمتلك صفة الصبر أو النفَس الطويل يومًا.

كانت المباراة مرتبطة بوقت محدد وهو ثلاثون دقيقة، وبجوار كل لاعب ساعة مؤقت يشغله الحكم عندما يأتى دور اللاعب لنقل قطعه، ثم يوقفه ما أن ينتهى، ليبدأ بتشغيل مؤقت اللاعب الآخر وهكذا، إلى أن يقضى أحدهما على الآخر، أو أن يستنفذ أحدهما وقته أولًا، فحينها يعتبر خاسرًا، حتى وإن كانت قطعه كلها ما زالت موجودة برقعة الشطرنج.

بدأ (حسام) فى نشر قطعه على الرقعة، وجاءت حركاته متزنة، يدرى ما يفعله جيدًا كعادته، وكأنه قد تناسى استفزازى له منذ قليل، ثم بدأ الضغط علىَّ مبكرًا؛ فتراصت قطعه الهجومية بحرفية فى وسط الرقعة، بينما كنت أنا أنتقل من خطة دفاعية إلى أخرى وأتراجع للخلف أحيانًا، لأطيل المباراة قدر استطاعتى، وذلك لاستنزاف صبره ودفعه لعمل نقلة طائشة تمكننى من امتلاك المبادرة بالهجوم.

لكنى كنت مرهقًا بشدة، أحاول جاهدًا إدخال الضوء إلى عينى الناعستين، لذا طلبت من (يوسف) إحضار كوب من القهوة بسرعة؛ فقد كان (حسام) لا يتوانى عن نصب الأفخاخ المتتالية، لكن كان معظمها شائعًا ومعروفًا للاعب محترف مثلى، لكن فى الشطرنج؛ غلطة الشاطر بفورة. لذا قررت استفزازه مجددًا؛ فقلت له:

"ألن تكف عن هذه الحيل الساذجة؟ فأنت تجلس أمام لاعب محترف وليس مجرد هاوٍ، لقد جعلتنى أملّ اللعب"

ويبدو أن استفزازى هذه المرة؛ قد استنفر مخزون الأدرينالين وأثار هرمون الذكورة لديه، خاصة وأن الوقت كان لصالحى، فجاءت نقلته التالية عنترية أكثر من اللازم، وهنا وجدت مبتغاى وأطحت ببيدق الوسط لديه، ثم اندفعت بقطعى الهجومية للأمام، حتى بدأت المعركة تميل لى، وبدأ (حسام) يتوتر أكثر فأكثر، لتأتى نقلاته أكثر توترًا منه، وبدأت قطعه تترنح على رقعة الشطرنج، ليصبح فوزى بالمباراة مسألة وقت.

فلم يعد لـ (حسام) أية فرصة للنجاة؛ سوى محاولة تأجيل الهزيمة قدر المستطاع حفظًا لماء وجهه، ولكن كما يقولون دومًا، إذا رأيت الأمور تسير بسهولة أكثر من اللازم؛ فأعلم أن هناك خطأ ما.

كان الإرهاق قد نال منى مبلغه، مما خفف كثيرًا من نشوتى بالانتصار الموشك، لكن أسعدنى كثيرًا؛ ابتهاج (يوسف) و(محمود) لما آلت إليه الأمور، حتى إن (مصطفى) كان مسرورًا هو الآخر، ولم تمنعه كبرياء المهندسين من الغبطة لصديقه، ثم هربت من عينىَّ نظرة، لا أدرى سببًا لها باتجاه باب القاعة لأجدها تدلف منه.

أجل؛ كانت هى، فتاة البحر، حبيبتى وحبيبة (خالد بن الحديدى)، الأميرة ليلى، مرتدية ثوبها الأزرق كعادتها، لكن مهلًا؛ أيعقل هذا؟! فأنى لها أن تكون هنا؟ أهى حقيقية وتقف هناك على مقربة منى؟ أم أنى ما زلت أحلم؟ هل استيقظت فعلًا وذهبت إلى القاعة، وألعب المباراة النهائية الآن؟ أم أنها ظاهرة الاستيقاظ المزيف؟

أنا غارق بالواقع أم عالق فى أحلامى؟ فلا أسوأ من إرهاق العقل، حينها يفقد القدرة على التمييز بين واقعه وحلمه، ويستلسم للدخول فى دائرة مغلقة يتوه بداخلها، فلا يعلم بدايتها من نهايتها، أو حقيقتها من زيفها، وهذا هو ما يعانيه مرضى الزهايمر والوسواس القهرى، حيث يحتجزون فى دائرتهم الخاصة وينفصلون عن الواقع لا إراديًا، وبعد الإفاقة؛ يحاول العقل البشرى أن يملأ ذلك الفراغ الزمنى الذى حدث بأى طريقة، حتى لو بتصديق تلك الأحلام والأوهام التى حدثت أثناء انفصاله عن الواقع فتزرع بداخله أفكار وهواجس غريبة وشاذة، فيصدق أن ابنه يحاول قتله أو أن زوجته تخونه، وإن هو حاول رفض تلك الهواجس لأصابه الجنون، فيدخل فى دوامة صراع لا تنتهى بين عقله الواعى والباطن.

لكنى أجزم أنى أراها أمامى الآن، وأنا واعٍ ومستيقظ. أجل، أنا فى أرض الواقع، وها هى تنظر باتجاهى بينما أحدق بها.

وقفت هناك بعيدًا، تطالع الشاشة الموضوعة بالقاعة، والتى كانت تنقل المباراة بعيدًا عن تلك الدائرة المنصوبة حولنا، فقلت فى نفسى :

"لا بد أن أذهب إليها وأحادثها، فإن كنت لم أستطع الحديث معها أمس، فإن صوتى قد عاد لى اليوم؛ لذا سأحاول إنهاء هذه المباراة سريعًا كى أتفرغ لها".

لكن اكتشفت أن توترى لوجودها مع إرهاقى الشديد؛ قد جعلنى أفقد تركيزى فى بضع نقلات، مكنت (حسام) من استعادة توازنه قليلًا، ثم نظرت ناحيتها مجددًا، لأجدها قد اختفت.

فكدت أجنّ، أين ذهبت؟ لقد كانت هناك منذ قليل. أجل، لقد رأيتها، فتمكن منى توترى، فبدأت نقلاتى تصبح أكثر تخبطًا، فقدم إلى (يوسف) الذى

لاحظ ذلك وربَّت على كتفى قائلًا:

"ماذا يحدث يا (محمد)، ستضيع المباراة من يدك، ركِّز قليلًا" لكن كان الأوان قد فات؛ فلقد وجد (حسام) أملًا بعدما كان اليأس قد بلغ منه مبلغه، فعاد وقد صارت وضعيته أفضل بكثير، بينما فقدت أنا فى شرودى؛ العديد من القطع والمواقع الإستراتيجية، فحاولت بيأس مناورته، لكن يبدو أنى قد أضعت الكثير من الوقت أثناء تحديقى بالأميرة، فأشار الحكم بأنى قد استنفدت وقتى، ثم أعلن فوز (حسام) بالمباراة بفارق الوقت.

فصعقت وذهلت من هول الصدمة التى لا أدرى كيف حدثت؛ فقد منيت بخسارتى الأولى بسبب الوقت، فكم من الأمور فى هذه الحياة يفسدها بل ويقتلها التوقيت الخاطئ، ولو أتت فى الوقت المناسب لتغيرت الكثير من النهايات.

جنَّ جنون (يوسف) الذى أخذ يصيح ويصرخ فى وجهى يسألنى عما حدث، لكنى لم أجيبه فلم أكن أمتلك إجابة مقنعة حتى لنفسى، فتركت الجميع على حاله (يوسف) فى غضبه وثورته و(حسام) فى نشوته العارمة التى لا يدرى كيف حدثت و(مصطفى) الذى راح يحتضنه ويهنئه، ووحده (محمود) هو من أخذ بيدى وانطلق بى إلى خارج القاعة.

كنت شاردًا، منفصلًا عن الواقع وكأنى فى كابوس مروع؛ فاحتضننى (محمود) وهو يقول لى:

-ما بك يا صديقى؟ لقد قلقت عليك كثيرًا ما أن رأيتك أمام الجامعة اليوم.

ورغم إلحاحه الشديد يومها، إلا أننى كابرت ولم أخبره بشيء، بل طلبت منه اصطحابى لمكتبة الإسكندرية متعللًا بتحضيرى لبحثٍ مهم بالكلية، لكن فى الحقيقة كنت أود البحث عن معلومات تتعلق بهذه الأميرة الغامضة.

وهناك أخذنا نطالع العديد من الكتب التاريخية التى تناولت فترة حكم بنى ذى النون. كانت المكتبة مزدحمة جدًّافى ذلك اليوم، وكان الجميع يتحرك بصعوبة بالغة داخل أروقتها، ثم أحسست بتعب شديد بعينى، ولم أعد أرى شيئًا أمامى، فقررت الاستسلام والعودة للمنزل، لكن ما أن أغلقت الكتب الموضوعة أمامى ورفعت بصرى وروحت أحدق به بعيدًا حتى أريح عينى قليلًا، فعيوننا قد جُبلت على النظر البعيد، لذا يريحها التأمل فى الفراغ وترهقها جدًّاالقراءة والنظر القريب، فأخذت أجول ببصرى بين طوابق المكتبة والشباب المتزاحمين بها، وكان أغلبهم فى سن الجامعة.

وبينما أتفحص وجوههم، حتى لمحت من بعيد وجهًا بدا مألوفًا، فكانت هى مجددًا؛ فتاة الحلم.

فاندفعت نحوها بسرعة أحاول بصعوبة تفرقة الحشود، فأتخبط بينهم، كنت أود أن أثبت لنفسى أننى قد رأيتها بالفعل ولم أكن أحلم أو أهذى، لكن التزاحم الشديد أبطأ كثيرًا من حركتى وكأننى أتدافع فى يوم الحشر، لكن ما أن بلغت موضعها، لم أجدها كالعادة.

وهنا كدت أجن بلا مبالغة واستسلمت لنظرات (محمود) المشفقة علىَّ، والذى طالبنى بالعودة للمنزل وأخذ قسطًا وافرًا من النوم والراحة لسلامة عقلى وجسدى.

فعدت إلى المنزل وأنا أتحرك حركات آلية، ثم ارتميت كالميت فى فراشى، ولم أدرِ ما حدث بعدها. فقد وجدت نفسى وسط حقول غنَّاء، مليئة بالأزهار الجميلة والبديعة، فكان منظرها خلابًا يذهب بالعقول، ثم لمحت فتى صغيرًا يركض بين

الأزهار، كان وجهه يبدو شاحبًا جدًّا، وكأنه مرهق للغاية، ظل يفتش فى الأزهار كأنما يبحث عن شيء ما وسطها، فاقتربت منه لأتبينه أكثر فوجدته أنا. أجل كان أنا.

غير أنى، لا أتذكر أنى قد زرت هذا المكان من قبل، ولا أدرى عن أى شيء أفتش بهذا الاهتمام البالغ.

ظللت أراقب نفسي، رغم أن نسختى الصغيرة لم تنتبه لوجودى مطلقًا، ثم فجأة انحدر الفتى وسقط داخل جرف عميق، فوقع على وجهه، وبدأ الدم يسيل منه بغزارة، فنهضت إليه، ومددت له يدى، فمد يده وأمسكها دون أن ينظر إلىَّ، كأنه يتحاشى النظر مباشرة إلى عينى.

تحسست جرحه فوجدته غائرًا، ويبدو أنه سيترك ندبة كبيرة فى وجهه، ثم حاولت الحديث معه، لكنه تركنى وعاود بحثه وسط الأزهار، فنظرت حولى، لأجدنا فوق قمة جبل عظيم، فنظرت أسفله، فوجدته شاهقًا جدًّا، ثم فقدت توازنى فجأة، وسقط سقوطًا حرًا، فقدت وعيى على إثره، ثم أفقت من نومى فجأة، لأجدنى ملقى على أرضية الغرفة، فقد سقطُ من فوق سريرى وارتطمت رأسى بالأرض، فتحسستها فإذا بالدم يندفع بغزارة منها، فحاولت إيقافه لأجد والدتى أمامى، فقد أفزعها صوت الارتطام، فساعدتنى على إيقاف النزيف، ثم تطلعت إلى المرآة لأجد جرحًا غائرًا بوجهى، قامت أختى الكبرى (هبة) بخياطته على الفور؛ فقد كانت طبيبة تجميل، لكنها أخبرتنى أنه ربما يترك ندبة فى وجهى للأبد.

سألتهم عن الساعة فأخبرتنى أختى أنها الواحدة صباحًا، وأنها عائدة لتوها من المستشفى التى تعمل به، ثم سألتنى عما حدث لى، ولمَ يبدو وجهى شاحبًا وعيناى مرهقتان للغاية هكذا؟

فأخبرتها أنى لم أنم جيدًا الفترة الأخيرة بسبب بطولة الشطرنج التى خسرتها، ثم تركتهما وعدت إلى غرفتى، فوقع بصرى على رواية الزهراء، فعزمت على عدم قراءتها مجددًا، ثم فاجأ رأسى صداعًا رهيبًا يكاد يفجرها تفجيرًا.

ثم تذكرت ما حل بوجه (خالد)، وما حل بوجه فتى الحلم الذى يشبهنى، فتحسست وجهى فى دهشة ورعب وأنا أتذكر كلمات أختى وهى تخبرنى بأنى سأمتلك قريبًا ندبة بوجهى؛ فهل أنا فى حلم طويل؟ أم أن هذه الرواية بها شيء غير اعتيادى؟ وهل كل هذه الأمور مجرد مصادفات، أم أن هناك أمرًا ما يدبر فى الخفاء؟

فى صباح اليوم التالى، التقيت مع محمود ومصطفى ويوسف وذهبنا إلى الشاطئ حيث مكثنا طيلة اليوم نلهو ونلعب وقد كان ماء البحر دافئًا على غير عادته فى هذا التوقيت من العام، فكان دفئه هذا مع برودة الطقس من حوله، يعطيك انتعاشًا لذيذًا، يلهبه مداعبة النسيم الهادئ لحواسك، ثم أحضرنا بعدها وجبة دسمة من الأسماك والمأكولات البحرية وقد كانت حقًّا شهية جدًّا.

مر اليوم بسلام ولم أهذى خلاله مطلقاً كما حدث بالأمس، فيبدو أن التعب والإرهاق كانا السبب.

ثم جذب انتباهى إحدى الفتيات وهى تتجول مع صديقها على الشاطئ وكانت تمشى مختالة بحركات غزلانية رشيقة ذكرتنى بالأميرة الحسناء، فدفعنى ذلك لأطلب من (محمود) أن يصف لى الحب؛ فلمحت لمعة ظهرت فى عينيه فجأة، ثم ابتسم وسرح بعيدًا وهو يقول:

-الحب شعور خفى، وكأنه شيطان يعربد بعروقك، ويجوب كل قطعة بك؛ فيعيطك طاقة لذيذة ممتعة، ومع كل خاطرة تعبر خيالك، تجد نفسك تبتسم لا

إراديًا. تتنهّد رغمًا عنك، وكلما رأتها عيناك تلمع وتتأرجح بها دمعة، فلا تدرى أهى دمعة فرح لكون حبيبتك بجوارك أم دمعة خوف من غدر الأيام لكنها فى النهاية دمعة حب، وكل ذلك يدفعك للحلم والارتحال بعيدًا؛ فتظل تدعو الله فى تضرع وخشوع، ألا يخيب رجاءك، وكلما زاد ارتباطكما ببعضكما أكثر، زاد خوفك عليها أكثر وأكثر؛ فتجد نفسك تخشى عليها من كل ما حولها؛ أصدقاءها، أهلها، تخشى عليها من الهواء الذى تتنفسه حتى إنك فى النهاية تخشى عليها من نفسك أن تجرحها دون أن تقصد، أو أن تحبها أقل مما تستحق، ألا تستطيع كلماتك وصف مشاعرك والتعبير عن مدى حبك لها، وكما قال شمس التبريزى "يجوز الرِبا فى الحب؛ فمن أعطاك حبًا ردَّه ضعفين".

كانت كلمات (محمود) رائعة وصادقة، فليت (حبيبة) معنا الآن؛ كى تستمع إلى كلماته الرقيقة هذه، فوالله لكانت أحبت نفسها من كلماته.

لكن ما جذب انتباهى هو عدم سخرية (مصطفى) من كلام (محمود) كعادته، عندما يتحدث أحد أمامه عن الحب العذرى الطاهر أو الأفلاطونى كما يسمونه؛ فقد اكتفى بهز رأسه مع كل كلمة ينطق بها (محمود)، وهذا ما دفعنى لأطلب منه هو الآخر وصفاً للحب؛ فتلعثم كثيرًا قبل أن يقول:

-معك حق يا (محمود) هذا بالضبط ما بدأت أشعر به مع (سلمى).

فسألته بدهشة ومن تكون (سلمى) هذه، التى جعلت من زير النساء؛ إنسانًا عاشقًا؟! ليخبرنا بأنها فتاة الفيسبوك التى تعرَّف عليها في معرض الكتاب؛ فبرغم معرفته القصيرة بها إلا أنه يشعر معها بارتياح كبير، ودومًا يود أن يكون بجانبها ولا يمل من سماع صوتها طوال اليوم.

بل يشعر وهو معها بأنه يمتلك العالم بأسره ولا ينقصه شيء آخر، لأنها وحدها هى كل ما يحتاجه من هذه الحياة، ويتمنى لو أمكنه وضعها داخل قلبه، فيخفيها عن أعين الجميع، ورغم أنها رائعة الجمال ومكتملة الأنوثة؛ إلا أنه لم يفكر وهو معها لحظة، بما كان يفكر به وهو مع الأخريات، لا يختلس النظر إلى مفاتنها، مثلما اعتاد أن يفعل مع غيرها.

فكانت هذه صورة أخرى تبرهن لى ما الحب قادر على فعله من غرائب، فعندما تبدأ فى تطبيع نفسك على اعتياد أمور لم تعتدها من قبل بل ومناقضة تمامًا لطباعك وطبيعتك السابقة وتحاول إجبارها على تقبُّل اكتساب خصال كنت ترفضها فى الماضى وما كنت لتتقبلها فى الظروف العادية، ثم تبدأ فى التصرف ضد مصلحتك الشخصية؛ اعلم حينها أنك تختبر أمراً استثنائيًا وأن قوى الحب قد شرعت فى التحكم بك والسيطرة عليك.

فالحب كائن فوضوى متسلط، يتغذى على ضعفنا أمامه كى تزداد قوته وسطوته علينا، كما يهوى التغيير ويعشق تحطيم القواعد ومناقضة المنطق والمسلمات، ويبدو أن الجميع قد وجد مبتغاه، ووقع فى شراك الحب وامتلأ قلبه بوليفه، عداى أنا.

حتى عندما زُلت قدمى، وقعت فى حب أميرة من زمن الأندلس الغابر، فأى حظ عاثر هذا، ابتسمت فى داخلى وأنا أودعهم عائدًا للمنزل.

كانت الساعة تشير إلى العاشرة مساء، والشوارع قد أصبحت شبه خاوية كالعادة فى ليل الشتاء، لكن كان نسيم البحر بديعًا، يحمل بين ثناياه أشذى العطور التى تبعث الراحة بالنفس، وتحيي الرقة والرومانسية فى قلب الصخر.

فجلست على أحد المقاعد المطلة على البحر، وبدأت أتأمل أمواجه الرقيقة وهى تعانق الشاطئ بين الحين والآخر، وكأنها تهمس فى أذنيه ثم تختلس منه قُبلة حانية وتهرب بعيدًا عنه، ثم ما تلبث أن تشتاق إليه فتعاود الكرَّة من جديد، وهنا بدأت أسأل نفسي "هل ما شعرت به عندما رأيت الأميرة على هذا الشاطئ هو ما يحكى عنه (محمود) و(مصطفى)؟ وهل هو ما يكنَّه (خالد) لها؟ فما أجمل الحب! وليتنى مكانك يا (خالد). إذن لبُحت لها بكل شيء، ثم اختطفتها على حصانى، وهربت بها بعيدًا عن أعين الجميع؛ فكيف يقايض أحد على شعور لذيذ كهذا وسعادة غامرة كهذه؟

رجعت إلى المنزل، ثم دخلت غرفتى، وكنت عازمًا على عدم القراءة، فيكفينى مزاجى الرائع الليلة، رغم اشتياقى لرؤية (ليلى) فى منامى.

فألقيت بنفسى على الفراش ونمت. فصدقتنى هذه المرة ولم تتأخر علىَّ، فوجدتنى أقف أمامها وهى تجلس على مقعدٍ بحديقة. ممسكة بوردة توليب زرقاء تداعب بها خدودها الوردية وهى تنظر إلىَّ مبتسمة وتقول:

أعرفت أخيرًا ما هو الحب؟-

فقلت لها:

-لم أعرفه إلا عندما عرفتك. وما خفق فؤادى إلا أمام عينيك الزرقاوين. ولم يتوه عقلى إلا عندما تعثرت بك.

فقالت لى:

-إن كنت كما تقول، إذًا فقد حان اللقاء.

ومدَّت يدها بالوردة إلىَّ ثم قالت:

-اهدينى هذه فى لقائنا الأول.

ثم شعرت بأحدهم يجذبنى من ملابسى فنظرت؛ فإذ بطفلة جميلة بجوارى، تنظر إلىَّ مبتسمة وتطلب منى أن أعطيها وردة الأميرة فأخبرتها أنها ليست ملكًا لى، بل ملكًا للأميرة الحسناء تلك، لألتفت فلا أجدها كالعادة، لا أدرى لما أغفل عنها كل مرة.

فى المرة القادمة لن أجعلها تغيب عن ناظرىَّ أبدًا. ثم أفقت بعدها وأنا سعيدٌ جداً هذه المرة، وبى رغبة عارمة أن أستأنف قراءة الرواية مجددًا.

****

"وأقصى ما أشتهيه فى صباح كهذا؛

فنجان قهوة، قلم ودفتر،

وامرأة مثلك تلهمنى"

ذهبت إلى الشاطئ فى صباح اليوم التالى، ثم جلست أتأمل أمواجه وأتابع حركة الصيادين وبعض المراكب الشراعية التى يغازلها نسيم البحر، ليراودنى خاطرها مرة أخرى، فوجدت وجهها مطبوعًا على صفحة الماء فى المدى أمامى، ويتراقص مع أمواج البحر التى تداعبه بين الحين والآخر، فتبدو وكأنها فى أوج مرحها وسعادتها لاحتضانها وجه أجمل امرأة خُلقت على ظهر البسيطة، وكأنها خُلقَت كما تشاء.

فدفعنى الحنين والفضول مجددًا نحو مكتبة الإسكندرية، عسى قدرى يتعثر بها هناك، فما أن وطأتها حتى بدأ عطر مألوفًا يداعب جيوبى الأنفية ثم شق طريقه إلى قلبى مباشرة، لكنى لا أذكر متى أو أين استنشقته من قبل.

شعرت بروحى تتسامى، وكأنى ذرة هواء تعوم فى الفراغ، إلى أن استقر بها المطاف فى أجواء شاطئية، حيث موج البحر الفتىّ ونسيمه العليل، فتذكرت. أجل، إنه عطرها ما يعبق بالمكان. كانت تضعه عندما التقينا على شاطئ البحر، ثم تداركت الأمر وقلت فى نفسى "أتهذى مجددًا يا صديقى؟!".

لكنى حقًّا كنت أشم عطرًا رائعًا؛ فبدأت أطارده فى كل زاوية، إلى أن انتهيت عند طاولة فارغة سوى من بعض الكتب المتناثرة عليها، فتأملت أغلفتها بلا مبالاة؛ فكان أغلبها كتب تاريخية، لكن ما جذب انتباهى هو وجود ديوان (قصائد متوحشة) لنزار قبانى بينها وكنت أعشقه كثيرًا.

فأمسكت به ورحت أقلب صفحاته فى بهجة واستمتاع بالغ يثريه ذلك العطر الذى يبعث النشوة بروحى، حتى اكتشفت وجود قصاصة ورق بين صفحاته، مكتوب بها:

"وستبقى أنتَ وحدكَ دائمًا حلمى الجميل كلما وضعت رأسى على وسادتى، والأمل الذى أتوق إليه مع كل إشراقة جديدة".

ثم اقترب أحد مسئولى المكتبة يجمع الكتب المتناثرة فوق الطاولة ليعيد ترتيبها على الأرفف، وكان يبدو رجلًا مهذبًا وودودًا، فسألنى "هل أنت أيضًا تعد بحثًا فى كلية الآداب؟" فأجبت بالنفى، ليردف "إذن، لا تحتاج هذه الكتب". ثم أخذ يلملمها من أمامى، حتى جاء لديوان نزار فتركه قائلًا "هذا ليس من مقتنيات المكتبة" ليخرج اللص الذى بداخلى ويجبرنى على أخذ الكتاب كنت على موعد مع (محمود) لألتقيه بالكلية، فذهبت إلى هناك، لكنه طلب منى انتظاره حتى يفرغ من محاضرته.

فجلست فى مقهى الكلية أحتسى قهوتى فى شرود، وكان ديوان نزار ما زال بحوزتى، وذلك العطر الفريد ما زال ممتزجًا بصفحاته، فبدأت الكثير من التساؤلات تلح علىَّ، أهذا عطرها فعلًا، أم أنى صرت أتحسسها فى كل شيء، وهل صاحبة هذا الكتاب؛ طالبة بكلية الآداب؟ أم أن استنتاجى هذا خاطئ هو الآخر؟

إلى أن دخل المقهى مجموعة فتيات يتبادلن المزاح والضحكات، نظرت نحوهن فإذ بالحياة وكأنها مقبلة بترفها نحوى، لتضيء أيامى بنور وجهٍ كالبدر الساطع فى تمامه، لأفقد فجأة إيمانى بنفسى، فلا أدرى؛ أأنا أحلم أم أهذى فكيف لملاكٍ أن يهبط من السماء ويمشى مطمئنًا على الأرض هكذا؟

فصرت أشهق بحدة، وقلبى يضطرب كأنه على حافة السقوط، بينما تتسارع أنفاسى وكأنى أركض منذ عهود، أما عيناى فلا تصدق ما ترى، فكيف يُعقل أن ترى الأميرة الحسناء فى صحوها.

لكنَّها كانت هى تطل بهيئتها الفريدة وعطرها المميز الذى اقترب شيئًا فشيئًا من جيوبى الأنفية وسرعان ما عبق بروحى فسمى بها إلى أعلى موضع بالسماء.

كانت تمزح معهن وتبتسم فتشرق الحياة بنور ثغرها الباسم، وعيناها الزرقاوان تلمعان كالثريا فى غسق الدجى، وترتدى ثوبًا أبيضًا ثلجيًا نقيًا كنقاء اللبن الصافى، يحتضن جسدها الممشوق المتناسق فى كل منحنياته. تمشى وسطهن فى ثقة كالنجمة اللامعة وسط عتمة الكواكب.

ثم جلسن على طاولة بمحاذاتى، وكأن القدر قد قرر فى لحظة طيش أن يتصالح معى، ظللت أحدق بها، فلا يغمض لى جفن، خشية أن أفتحه فلا أجدها، مثلما اعتادت أن تفعل بى.

فظللت على حالتى تلك، حتى قرر القدر أن يلهب الموقف أكثر؛ فالتقت عينى عينها؛ فمررت بلحظات توقف فيها الزمان، لكن دقات قلبى كانت تلهث فى نهمٍ.

ظلت تحدق بى هى الأخرى لكن لم يبدُ عليها أى تأثر وكأنها لا تعرفنى، كأننا لم نلتق مسبقًا، أو كأنها لم تشاركنى أحلامى من قبل، ولم تحادثنى يومًا.

لكنها ظلت تحدق بى، حتى قطع (محمود) حديث العيون بقدومه، ورغم ملاحظته لارتباكى، لكنى لا أدرى لمَ آثرت ألا أفشى له بأى شيء هذه المرة أيضًا. يبدو أننى كنت مقتنعًا بمقولة جلال الدين الرومى "ليس كل ما فى القلب قابلًا للبوح؛ فهناك ما يولد ويموت ولا يُفصح عنه"

كانت تتظاهر بالانشغال عنى بالحديث المتقطع مع صديقاتها، لكنها ما تلبث أن تختلس النظر باتجاهى.

ورغم الجرأة التى كنت أؤمن سابقًا بامتلاكها؛ أحسست هذه المرة أنى صرت أعزلًا، قد تجرَّدت من كل أسلحتى.

ثم شرعن فى المغادرة، وأنا مشتت الذهن، لا أدرى ما أفعله، إلى أن انتبهت إلى ديوان (نزار قبانى)، فخطرت فى عقلى حيلة؛ فقمت مسرعًا واستوقفتهن قائلًا:

"أهذا الكتاب يخص إحداكن؟!" لتسارع هى فى سعادة بالغة وكأنها وجدت ضالتها بعد يأس قائلة:

"أجل، هو لى". فقلت مازحًا:

"وما دليلك؟!" فسكتت وكأن سؤالى قد فاجأها، ثم قالت فى عفوية:

"هناك قصاصة ورق بداخله مكتوبًا عليها: (وستبقى أنتَ وحدكَ دائمًا حلـ..)" ثم تنبَّهت للأمر؛ فسكتت فجأة وقد احمرت وجنتيها خجلًا؛ فأمعنت النظر إلى عينيها وأنا أردد:

"وستبقى أنتَ وحدكَ دائمًا حلمى الجميل كلما وضعت رأسى على وسادتى، والأمل الذى أتوق إليه مع كل إشراقة جديدة".

فحدقت بى بشدة وقد تملكتها علامات الدهشة والانبهار، ثم انتزعت الكتاب من يدى وغادرت دون أن تتفوه بكلمة واحدة، بينما أنا تسمَّرت فى مكانى عاجزًا لا أدرى ما أفعله، إلى أن اختفت من أمامى.

لحق بى (محمود) مستفهمًا ما حدث، فلم أجد بى طاقة لأقصَّ عليه الأمر، رغم أنى لم أكن أمانع إخباره هذه المرة.

ثم تركته متعللًا بتذكرى لموعدٍ مهم، وسرت على وجهى هائمًا شاردًا، أعاتب نفسى وأجلدها على عدم البوح لها بكل شيء.

ولكن كيف كنت سأصيغ الأمر لها؟ كيف أخبرها أنى قد رأيتها قبل أن أراها. كيف أخبرها أنى كنت أبحث عن أميرة أندلسية، فوجدتها هي؟!

أيُعقل أن يكون تناسخ الأرواح، وسفرها عبر الأزمنة بعد وفاتنا لتسكن أجساد جديدة هو مُعتقد حقيقى بالفعل؟

وقد كنت قد قرأت مثل غيرى عن هذه الفلسفة العجيبة التى آمنت بها العديد من الثقافات والديانات المختلفة كما أورد لها بعض العلماء والفلاسفة العديد من الأمثلة والبراهين التى تثبت صحة معتقدهم وفرضيتهم، وهناك حديث رسولنا الكريم "الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف". وقد فسَّره بعض العلماء بأن الأرواح قد خُلِقت قبل الأجساد وحُفظت فى اللوح المحفوظ تحت عرش الرحمن وهو الأداة التى حفظ بها الله مقادير الخلق قبل أن يخلقهم وهو أيضًا مستودع لمشيئاته؛ وكانت تلتقى هناك فتتآلف أو تتشاءم، فلما حلَّت بالأجساد تعارفت بما كان من العهد الأوَّلِ فتتآلف أو تتنافر بما كان قد وقع بينهم؛ فهل التقينا من قبل فى زمن غابر؟ أأحببتها أو عشقتها فى عهد سالف؟

لا علم لى بذلك. لكن ما أعلمه جيدًا أنى قد حلمت بها قبل أن أراها ثم أحببتها بل لقد فُتِنتُ بها وعشقتها ما أن رأيتها، ثم قطع شرودى، هاتف عذبٌ يناديني، فالتفتُّ لأجدها تقف أمامى مجددًا.

اقتربت منها وأنا لا أقوى على الاقتراب. كنت أجاهد لأخفى توترى الواضح وفوضى مشاعرى؛ فبادرتنى قائلة:

"من أنت؟!" فارتبكت أكثر ولم أستطع الرد لتردف هي:

"كيف عرفت بأمر الجملة المكتوبة بالقصاصة الورقية". فقلت لها:

لقد قرأتها". فقالت وهى تتنهد:"

"ولكن القصاصة كان مكتوباً بها جزء فقط. كيف عرفت بالجزء الآخر، وأنا لم أكتبه سوى صباح اليوم؟!"

ثم ناولتنى القصاصة مجددًا، فذُهلت عندما وجدتها فعلًا مكتوبًا بها جزء فقط من الجملة، لكن، كيف؟ أنا متأكد أنها كانت مكتوبة كاملة، وإلا فكيف حقًّا أتيت بالجزء الآخر.

ثم أطرقت شاردًا، لا أدرى ما أقوله، لكن اشتدَّ ذهولى وفزعت ما أن تذكرت حلمى الأخير وأن الأميرة قد أعطتنى مع وردة التوليب؛ ورقة صغيرة كان مكتوبًا بها نفس العبارة، فقررت أن أبوح لها بكل شيء قائلًا:

-أتعلمين أنى قد حلمت بكِ قبل أن أراكِ؟!

أجل، لقد تعثرت بعينيك ورأيتك فى حلم خجول كسنوات عمري، وعبث عطرك الوردى بحنايا قلبى كنسيم صباح شتوى يداعب خدود "سوسنة زرقاء" يشاركها الندى رقصة الحياة على أنغام عندليب عاشق.

ولطالما كان الأزرق هو لونى المفضل؛ فأنا أعشق الأزرق وكل ما هو أزرق، لذا تمنيت لو أنّى فى لقائنا الأول أهديتك وردة زرقاء كما وعدتكِ، فالورود الزرقاء كما يقولون، تشبه لون الأمل، لون السماء الصافية، وتحمل فى معانيها كل الرفض للمستحيل والخيبات، فالورود الزرقاء بالرّغم من ندرتها إلا أنها صارخة بإخلاصها وبوعودها لكسر كلمتى "لا، ومستحيل" لذا يسمونها بـ الكأس المقدّسة.

أتدرين أنى انتفضت حينما رأيتك تلك المرة فى ثوبك الأزرق ووددتُ حينها لو أنى ركضت نحوك وطوقتك بذراعى لأجعل منهما سوارًا لخصرك المتمرد، وددتُ لو احتضنتك وتركت أجزائى تنعجن بأجزائك لأنسى الواقع بين أنفاسك وأتلاشى بين ثنايا رواية شرقية أبطالها مثلنا عاشقان متيَّمان خارج حدود المنطق والزمان، خارج مسلمات القدر وقوانين البشر، أتدرين أن عينيك تهمس فى كل مرة لعينى بقدر باسم وتعدنى بأن ربيع عمرنا قادم خلف عتمة هذا الشتاء، أعلم أن الليالى

الماطرة لا تمر على قلبى مرور الكرام، بل إنها تعصف بوجداني، وتوقظ براكين الحنين الخامدة.

الأمر الغريب سيدتى أنه برغم معرفتى القصيرة بك؛ أصبح لديك تلك القدرة العجيبة والجرأة الجامحة على اقتحام خلوتى، بل وأصبحت ضيفًا مرحبًا به كل ليلة فى فراشي، وفى بقايا أحلامي، حتى ذلك القلب الذى ظل أعوامًا يمتهن الحب، ويستجدى مشاعرًا صادقة من قلوب مريضة، بدأ يخفق مجددًا، لكنى أعلم أنه ما زال مرهقًا جدًّا، وأمامه زمنًا ليس بالقصير ليتعلم كيف يخطو خطواته الأولى فى صحوته تلك والتى أدرك جيدًا أنها ستكون الأخيرة إن لم يباركها القدر.

فهل تعلمين أنى أغرمت بك منذ الوهلة الأولى، أجل سيدتى فعيناكِ رغم نقائهما وبراءتهما تمتلكان جرأة وسحراً أكاد أجزم بأن لا رجل قادر على مواجهتهما، حقًّا هنيئًا لك بهاتين العينين.

الأمر الآخر سيدتى الذى يجدر بك معرفته هو أننى هزمت أمامك آلاف المرات وسقطت أمامك كل أقنعتى وأسلحتى، هزمت فى معركة أدركت بعد فوات الأوان أنها كانت غير متكافئة، فكانت لكِ اليد العليا فيها منذ البداية، واكتشفت بعد كل هذا العمر وبرغم تلك الخبرة الطويلة فى عالم النساء، أنه ما زالت هناك نساء مثلك قادرات على تحطيم غرورى ومجاهرتى بالتحدى فى وضح النهار بل وهزيمتى أيضًا، ولم تنصفنى فراستى التى لطالما تباهيت بها.

ثم أخبرتها بأمر الرواية، والأحلام التى صارت تراودنى عن الأميرة التى تشبهها، ثم رؤيتى لها فى القاعة أثناء المسابقة، ثم فى مكتبة الإسكندرية، انتهاءً بديوان نزار والقصاصة والعطر الذى يشبه عطرها الذى تضعه الآن، ثم قلت لها مختتمًا حديثى.

أعلم أنكِ ستنعتيننى الآن بالجنون، ومعك كل الحق فى ذلك، فحتى أنا ما زلت غير مستوعب لما يحدث.

كسا ملامحها مزيجٌ متنوعٌ من علامات الاستغراب والدهشة والاستنكار؛ فظلت تحدق بى طويلًا غير مستوعبة الجنون الذى قلته منذ قليل.

ثم ركضت فجأة من أمامى وعبرت الشارع إلى الجهة المقابلة وهى تجاهد لتفادى السيارات القادمة، بينما تسمرت فى مكانى، وأنا أتابعها، ثم قلت لنفسى "لا بد وأنها الآن قد تأكدت من جنونى؛ فمن يصدق هذا العبث".

عدت إلى البيت، وبرغم ما مررت به، إلا أننى لأول مرة كنت أشعر بارتياح كبير، ثم أمسكت بالرواية، وقد صرت أشعر داخلى بشغف كبير لمتابعة قراءتها.

****

الفصل الرابع

"لو أن حنينى يُروى؛ لحمَّلت نسائم الربيع دفاتر عشقى. ولأثقلت أرجل الحمام برسائل اشتياقى إليكِ.

ولو أن الشوق يُرسم؛ لطبعت وجهكِ على قطع السحاب. وكتبت اسمكِ على صفحات الماء.

فبرغم أنى أفتقدكِ كثيرًا. ورغم أنى قد بكيتكِ كثيرًا. وكرهتكِ كثيرًا؛ إلا أننى قد أدمنتكِ أكثر فى افتقادكِ. وأحببتكِ أكثر من خلال دموعى. واشتهيتكِ أكثر ما أن كرهتكِ"

تركت الأميرة أرجوحتها وأخذت تتجول بحديقة القصر رفقة (خالد)، الذى أُخِذ لبَّه بروعة جمال البستان والنافورات الراقصة وتنوع أزهاره وورودة الخلابة.

لكن انبهاره الحقيقى تجلى ما أن رأى قبَّة النعيم، المشيدة فى وسط البستان بالقرب من البحيرة حيث يُجرى إليها الماء من تحت الأرض ليصعد إلى رأسها، فيصب من أعلى القبة بشكل متواصل ومتتابع فتصير على شكل الخيمة فلا يصيب مجلس (المأمون) المفروش بداخلها شيء من مائها المنكسب، وقد أنشد فى وصف جمالها أحد الشعراء قائلًا:

شمسية الأنساب بدرية يحار فى تشبيهها الخاطر
كأنما المأمون بدر الدجى وهي عليه الفلك الدائر

ليقول للأميرة بعفوية "أرى أن الجمال يتبعكِ فى كل مكان يا مولاتى، فما من موضع تطأه قدماكِ حتى ينضح بحسنه".

لترد الأميرة وقد ملكها الحياء "مازلت تجيد اختيار الكلمات يا (خالد)، بل لقد ازدادت كلماتك رقة وعذوبة". ثم توقفت، وتأملت وجه (خالد) للحظات غلَّفها الصمت اللذيذ، ليشعر (خالد) وكأن كيانه يتداعى سقوطه. ثم قالت له "أنا اليوم، أنتظر لأرى إن كنت حقًّا تكن بقلبك محبة لى أم لا، فإن كنت صادقًا كما تزعم، فاذهب إلى أبى الآن ورتب معه أمر الرحلة، فلم يعد أمامنا الكثير من الوقت، ولم تنتظر تعقيبه، بل تركته ومضت.

فشعر (خالد) وكأن لسانه قد لُجِّمَ، ولأول مرة يختبر هذا الضعف أمامها، فلما لم ينفجر فى وجهها، ليخبرها بإصراره على موقفه واستحالة موافقته؟ لكنه عوضًا عن ذلك وجد نفسه واقفًا بين يدى المأمون فى مجلسه المكرم، يخبره

بموافقته على تولى مسئولية سلامة الأميرة أثناء الرحلة، فرحب به الملك وأثنى عليه كثيرًا، ثم أخذ (خالد) يرتب معه ما يحتاجه من الجند والعدة والعتاد، ليخبره المأمون بأن موارد الدولة كلها تحت تصرفه وأن سلامة ابنته فوق كل اعتبار.

غادر (خالد) القصر وتوجه إلى دار (ابن مطاهر الأنصارى) وقد كان عالمًا بجغرافيا البلدان كلها، فوجده شيخًا هرمًا، فعرَّفه (خالد) بنفسه، فسرَّ (ابن مطاهر) كثيرًا لما ورد إليه من أخباره، ثم أطلعه (خالد) على أمر الرحلة، بعد أن أخبره بمدى سريتها، ثم طلب منه أن يشير عليه بأأمن وأفضل الطرق التى يمكنهم اتخاذها؛ ففتح (ابن مطاهر) العديد من الخرائط أمامه، وأخذ يشرح (لخالد)، ليطلب منه (خالد) مرافقته فى الرحلة، فاعتذر منه نظرًا لكبر سنه، وحالته الصحية فلم يعد يتحمَّل مشقة السفر، لكن أشار عليه باصطحاب أنبغ تلامذته وهو الشاب اليهودى (حنين)، ثم تركه (خالد) وذهب إلى (عبدالرحمن) يقصُّ عليه ما آلت إليه الأمور؛ فجنَّ جنونه وصاح فى وجهه قائلًا:

"أتدرك ما تقوله يا (خالد)؟! أجننت؟! أنترك جندنا هناك، لنكون حرسًا لابنة المأمون! أنترك الشهادة فى سبيل الله لنموت فى سبيل ابنته؟"

غضب خالد من كلمات (عبدالرحمن) القاسية وهمَّ بالمغادرة، إلا أن (عبدالرحمن) لم يدعه بل احتضنه وهو يقول:

"عذرًا يا صديقى، أنت أخى وصديق عمرى وواجبى تجاهك يحتِّم علىَّ نصحك إن حدت عن الصواب، أعلم أنك مغرم بها، لكن دينك يحتاجك لنصرته وهو أهم وأولى"

فدمعت عينا (خالد) وهو يقول:

"لا يمكننى تركها ترحل وحدها يا (عبدالرحمن)، لقد رفضت مثلك ما أن علمت بالأمر، لكنى رأيت اليوم الإصرار والعناد فى عينيها وما دامت قد قررت السفر فستفعل، بى أو من دونى، لذا أودُّ أن أكون بجانبها حتى لا يصيبها أذى".

فرقَّ (عبدالرحمن) ولان صدره، فلم يرَ صديقه بهذا الضعف من قبل، لكن نصحه بأخذ رأى الشيخ (محمد بن على الأموى) المعروف بابن قرديال، فقد كان شيخهما ومعلمهما المقرب وكان الصديقان يأخذان مشورته فى سائر أمورهما فهما يقدران رجاحة عقله ويقدسان حكمته ومشورته.

فتركه (خالد) وذهب الى دار (ابن قرديال) الذى رحب به كثيرًا، قبل أن يخبره (خالد) بالأمر، ليتغير وجه الشيخ فى البداية، ثم فطن إلى ما تبوح به عينا (خالد) ويحاول قلبه أن يخفيه، فكما قال (ابن القيم) العيون مغاريف القلوب، بها يُعرف ما فى القلب وإن لم يتكلم صاحبها.

فأدرك مدى تعلق تلميذه بابنة المأمون، فلم ينكر ذلك عليه، لكنه أخبره أن المأمون لن يسمح لأحدٍ أن يأخذ منه ابنته بسهولة.

عاد (خالد) إلى داره، ليجد والده ينتظره وعلى وجهه علامات الدهشة مما حدث اليوم، وسأله عمَّا غير رأيه، فجاءت مبررات (خالد) غير مقنعة، ليتأكد (ابن الحديدى) من شكوكه؛ فانقبض قلبه بشدة حيث كان أعلم الناس بأمر المأمون، لكنه لم يفصح لخالد عن شيء بل استسلم لشروده، بعد أن طلب منه تناول طعامه فوُضِع أمامه بالإضافة للحم والخبز والثريد؛ حلوى آذان القاضى وفاكهة عيون البقر وطبقًا من المجبنة الطليطيلية وهى عبارة عن دقيق وجبنة مخلوطة بالأنيسون وماء النعناع وماء الكزبرة الخضراء، فيُمزج الخليط ويطهى بطريقة

خاصة، ورغم أنها كانت الطعام المفضل لخالد مثلما كانت مفضلة فى أرجاء الأندلس كلها، لم يستطع تناول شيئًا منها، فقد كان يشعر بتشتت عظيم بأفكاره وكأنها قد تبعثرت كلها فطحنت وخلطت مثل هذه المجبنة.

فى الصباح، انطلق (خالد) مع (عبدالرحمن) إلى دار (ابن مطاهر) ليعقد معه اجتماعًا بحضور تلميذه اليهودى (حنين) فحددوا معًا الطرق التى سيسلكونها والمدن التى سيمرون عليها أثناء الرحلة، كما حددوا أنسب نقاط للاستراحة، ثم حُدد موعد الانطلاق ليكون فى منتصف الليل، على أن يتفرق الجند فى جماعات صغيرة تلتقى خارج المدينة عوضًا عن الخروج فى موكب كبير، حتى لا ينتشر الخبر سريعًا خارج القطر.

ثم ذهب (خالد) إلى قصر الملك، ليطلعه على آخر المستجدات، فأخبره (المأمون) أنه سيبعث برسله سرًا إلى الأقطار والبلدان المحالفة له ليضمن حسن استضافتهم لموكب الأميرة، ثم أعطاه رسائل مختومة بخاتمه ليقدمها لأمرائها.

ليرجع بعد ذلك (خالد) إلى أبيه، فأعلمه بآخر الترتيبات، وقصَّ عليه ما دار بينه وبين الشيخ (ابن مطاهر الأنصارى) وتلميذه حنين اليهودى، لتتغير ملامح (ابن الحديدى) ما أن سمع اسم (حنين)، ليوصيه بأن يحتاط من اليهودى، فالمأمون قد سجن أخًا له قبل عامين بسبب تحريضه الأهالى للتمرد عليه، ثم أمر السيَّاف بذبحه أمام أعين الناس، وعلقت رأسه على (باب المخاضة) ليكون عبرة للجميع. كان (حنين) حينها مع (ابن مطاهر) فى رحلة خارج المدينة، لكن ما أن علم بأمر أخيه حتى عاد، واعتذر للملك عما بدر من أخيه وأكد له أن اليهود يجدون معاملة طيبة فى عهده، ثم ترجاه أن يدع أهله يختلطوا بالناس مجددًا، بعد أن كان الملك قد أمر بعزلهم داخل حيِّهم، وتوعد من يتعامل معهم. فأعجب الملك بخلقه

وفصاحته، وما لديه من علم غزير، فقضى حاجته وعفا عن أهله، حتى إنه دعاه أكثر من مرة لحضور مجلسه مع (ابن مطاهر)، وشهادة حق لم يبدر منه سوء حتى الآن، لكن الله وحده أعلم بسرائر النفوس، لذا وجب علىَّ إطلاعك على أمره.

ودع (خالد) والديه و(عبدالرحمن) الذى آثر عدم الخروج مع (خالد)، لكنه تمنى له السلامة والتوفيق، ليعطى (خالد) أوامره للركب بالانطلاق.

كان ظلام الليل يغلف أروقة المدينة العظيمة. لا يفسد نقاءه سوى قناديل الزيت المتناثرة، والتى بدأت تحوم بمحيطها خيوط الضباب، وتغزل حولها ذلك القرص الأبيض.

عبر الموكب شوارع المدينة فى عجل، وبدأت الأميرة التى رحلت برفقة (سيليا)؛ تشعر بغصة مفاجئة وينقبض قلبها كلَّما مرت على إحدى حدائق المدينة التى أشرفت بنفسها على تشييدها، ودأبت على تزيينها بأروع وأندر الورود والأشجار، فاعتنت بها وكأنها أطفالها وفلذة أكبادها؛ لذا لم تتمالك دموعها التى بدأت تنهمر على خدَّيها الرقيقين؛ فهذه هى المرة الأولى التى تغادر فيها مدينتها التى تعشقها عشقًا كبيرًا، وبدأت تسيطر عليها مشاعر الحزن والكآبة وكأنها تراها للمرة الأخيرة.

انطلق الموكب خارج المدينة بعد أن التحقت به جميع الفرق التى قسمها (خالد) عند باب القنطرة، فقد كانت خطة خالد أن يبحر الموكب قليلًا فى الجنوب للتمويه على وجهته الحقيقية، خاصة بعدما يتناثر خبر رحيل الأميرة.

فمر الموكب بجبال المدينة الرائعة، والتى كانت تقف شامخة، لها هيبة عظيمة بينما تتصاعد منها أبخرة الضباب والسحاب، ثم تغيرت الوجهة نحو الغرب.

بدا (خالد) متحفزًا، حذرًا، ولمَ لا، فهذا الهودج يحوى بداخله أعظم من أنجبت طليطلة ولن يسامحه أحدٌ، بل لن يسامح هو نفسه أبد الدهر إن حدث لها مكروه وهى بين يديه وتحت حمايته.

فكان يصيح كثيرًا بالجند يحثهم على الإسراع فقد كان عليه الوصول إلى نقطة الاستراحة الأولى فى طلبيرة، قبل حلول الليل، وكان بين الحين والأخر يدفع فرسه، فيسبق الموكب بعدة أميال بصحبة بعض الجند ليستطلع الطريق، ثم يعود ليتخلف عنه، كى يؤمن ظهر الموكب، فقد كان على دراية كبيرة بمكائد اللصوص وقطاع الطرق.

****

"أخبرى قلبك ألا يفتش كثيرًا، فنصفه الآخر ينبض هنا بصدرى"

فى صباح اليوم التالى وضعت بعض الكتب فى حقيبتى، وكانت بينهم رواية (ما زلت أنتظرك)، كى يتسنى لى الانتهاء من قراءتها، ثم ذهبت إلى الجامعة: فقد انقضت الإجازة القصيرة سريعًا لكن ما مررت به خلالها قد حُفر فى ذاكرتى للأبد.

كنت قد قررت الانتظام فى الحضور، ومحاولة تخطى ما حدث برغم أنها ما زالت لم تفارق خيالى بعد، وما زال ذلك الشعور يلحّ علىَّ بمحاولة البحث عنها مجددًا وملاحقتها، لكن قابله شعور مضاد بالكف عن هذا العبث، وكان ذلك الشعور نابعًا من كبريائى، فلقد قلت لها كل شيء وأخبرتها عما أضمره فى قلبى نحوها قبل أن أراها ومنذ أن رأيتها، لكنها لم تتفهم شيئًا من ذلك، لذا فأى محاولات أخرى ستدفعها للخوف والهروب منى أكثر وأكثر.

لكن يبدو وأن القدر كان يدبِّر لشيء آخر. فوجدتها تنتظرنى أمام الجامعة، وعيناها تتأملان عينىَّ فى تمعن كبير وكأنها تتحدى قدرتهما على الصمود أمام لمعان عينيها الآسر، وسحرهما الفريد، وفعلًا انكسرت عيناى أمامهما ولم تقوَ على الاستمرار.

فقد كانت عيناها تشعان بهاءً استثنائيًا، وكبرياءً قلَّما يوجد مثيلٌ لها، جعلنى أتنهد بين الحين والآخر رغمًا عنى، حتى إنى بدأت أشعر بصعوبة فى التقاط أنفاسى، وصرت أتصبب عرقًا غزيرًا كاد يغرقنى.

بينما كانت هى ثابتة كالصخر، وتمتلك قدرًا عظيمًا من الثقة، ثم قالت بنبرات حادة وعيناها تحدقان بى فى حزم وصرامة:

"أكان حديثك بالأمس صدقًا؟" فاستجمعت كبريائى وقلت لها فى تحد:

"لو لم تكونى متيقنة من صدقى، لما كنتِ أمامى الآن". فقالت وعلامات الحزم ما زالت تكسو ملامحها:

"وكيف عرفت كل هذا؟!" فلم أرد عليها لكنى أخرجت الرواية من حقيبتى، ثم مددت يدى إليها وأنا أقول:

"من هنا بدأ كل شيء، هنا حلمت بكِ أول مرة، وهنا صادفتك أول مرة".

ورغم علامات الاندهاش التى ظهرت عليها فى بادئ الأمر، إلا أنها اكتفت فقط بقراءة الغلاف، وكأنها كانت تعرف ما بها فربما تكون قد قرأتها من قبل، فأردفت أنا:

"ما أن شرعت فى قراءتها يا سيدتى حتى بدأت أحلم بكِ كل ليلة، فكنتِ أنتِ تلك الأميرة فى حسنها وبهائها؛ فصادفتك مرة عند شاطئ البحر المنتشى بثوبك الأزرق الخلاب، ونسيم البحر يداعب خصلات شعرك الناعم فى رقة وحنان، وخلخالك الذهبى يعزف ألحانًا عذبة تنسجم مع رقصات موج البحر وتغريدات طيوره، لقد كنتِ جميلة بهية كأنكِ أجمل نساء الأرض، وعيناكِ تشعان بريقًا وتلمعان كأحجار الماس". ثم سكتُّ لهنيهة قبل أن أردف:

"أدرى أن حديثى هذا يجعلنى أبدو كمجذوبٍ يهذى أمامك، لكن لم يعد شيء يهمنى؛ فجُلَّ ما يشغلنى هو أن أجد تفسيرًا منطقيًا لكل هذا".

فشردَتْ قليلًا قبل أن تفاجئنى بقولها:

"لكنى أصدق كل كلمة تقولها" ثم أردفت:

"فقد ذهبت فعلًا إلى مسابقة الشطرنج بالجامعة، كما ذهبت بعدها إلى مكتبة المدينة" ثم حدقت بى وابتسمت وهى تقول:

"إذن ها أنت هنا بعد كل هذا الانتظار".

فحدقت بها أنا الآخر ولم أستوعب كلماتها بعد. كانت تبدو واثقة جدًّا من نفسها، وتعلم جيدًا ما تقوله؛ فنظرت إليها مليًا، أتدارك ما كانت ترمى إليه، لكنها لم تمهلنى وقتًا، بل استدارت وهمَّت بالانصراف، فاستوقفتها قائلًا:

"لن أدعكِ ترحلين هذه المرة قبل أن أعرف من أنتِ حقًا" فقالت وثغرها يبتسم مجددًا:

"أنا (نور)؛ أقيم هنا بالمدينة، وأدرس الماجستير بكلية الآداب" ثم همت بالمغادرة مجددًا؛ فقلت لها:

"أهذا كل شيء؟" فاكتفت بالابتسام، وهى تقول:

"يكفيك اليوم أن تعرف هذا فقط" ثم تركتنى ورحلت.

كانت غامضة حد الاستفزاز، ورغم هول الموقف وغرابته؛ إلا أنها كانت تمتلك من الثبات ما جعل الأمر برمته عاديًا بالنسبة إليها. بينما جعلنى أنا أفقد إيمانى بنفسى أكثر وأكثر.

وغموضها هذا جعلنى أتعلق بها وأشتهيها أكثر من ذى قبل، فكم يعشق الرجال القويات من النساء، واثقى الخطى، مَن يثرن فضولهم ويشعرون بعجزهم أمامهن.

وها هى قد حطَّمت كبريائى وغرورى وأطاحت بكل قوانينى أرضًا.

مضيتُ فى طريقى إلى الكلية؛ لكنى لم أستطع التوقف عن التفكير بها، ولأول مرة أشعر بتلك الفوضى العارمة والمشاعر المتضاربة تتصارع داخلى، شعور بالبهجة والسعادة يخالطه قلق وترقب مما أنا مقدم عليه، فجلست على أحد المقاعد، وشرعت فى قراءة الرواية، وكأن بها جوابًا لكل ما يدور بخلدى.

ثم التقينا بعدها بعدة أيام فى الجامعة، لأجد فوضى المشاعر تعصف مجددًا بكل جوارحى، فلا أقوى على الصمود أمام بريق وسحر عينيها الآسر، أو مجاراة حديثها الآخاذ؛ فقد كانت تمتلك من القوة والثقة ما يجعلنى أتعلق بها أكثر وأكثر، ثم اقترحت عليها أن نتجول خارج أسوار الجامعة، فوافقت بلا تردد وكأنها كانت تنتظر ذلك العرض. كنت أشعر وأنا أسير معها أننى بجوار امرأة غير عادية وأقف على أعتاب أمور غير اعتيادية.

كما كان لها هيبة عظيمة تجعلك تحترمها وتحترم الحديث معها. تجبرك على انتقاء كل كلمة تقال، والإنصات بتمعن ما أن تبدأ هى حديثها الممتع، لتبهرك بلباقتها، وثقافتها التى لا حدود لها، وكأنك أمام بحر من العلم لن تتمكن من سبر أغواره مهما تعمقت، ولن يشبع منه فضولك مهما استكثرت، بل سيظمأه ذلك أكثر وأكثر، وستشتهى الغرق والإبحار بداخلها أكثر وأكثر.

فقد كانت لديها معرفة بكل شيء وكأنها قد أوتيت جوامع العلم والكلم، لكنها كانت تنظر للأشياء من منظور مختلف وعالم موازٍ غير ما اعتادته أنا، كان يشدها عبق الأشياء وعراقة الموجودات من حولها، تتعمق فى تاريخ كل شيء كأنها عاصرته وشهدت كل ما مر عليه من مواقف وأزمنة، كما كان لديها حواديت وحكايات ممتعة لا تمل سماعها؛ وقد كنت دوماً صريحًا معها إلى أبعد حد، بينما ظلت دواخلها

غامضة صامتة لا تبوح بشيء، لكن غموضها وصمتها كانا يؤججان نيران الحب والهيام بكل ذرة بى.

وفى إحدى المرات، صادفنا الشيخ (موسى صابر) فسلمت عليه وبعد انصرافه؛ أخبرتها أنه إمام مسجد القائد إبراهيم ووالد صديقى (محمود)، فراحت تقصّ علىَّ تاريخ المسجد فأخبرتنى أنه أسس فى الذكرى المئوية لوفاة القائد إبراهيم باشا (الابن المُتبنَّى لمحمد على)، وقد تم بناؤه على يد المهندس الإيطالى (ماريو روسى) الذى شغل منصب كبير مهندسى الأوقاف عقب فوزه بمسابقة أقيمت لذلك وأصبح القائم على أعمال القصور والمساجد فى عهد الملك فؤاد الأول، فمزج فى معماره بين فنون البحر المتوسط المعمارية، فشيد مئذنته العالية الرشيقة على غرار مسجد محمد على باشا فى القلعة، ومسجد السلطان أحمد فى تركيا، ثم نُقِش سور حديقته على الطراز الأندلسى، كما ضم زخارف ومقتنيات من مختلف العصور.

وبينما تروى تاريخ المسجد؛ كانت الكلمات تتراقص طربًا فوق شفتيها فتخرج مخضبة بماء الورد ومعطرة بأريج الزهور لتشعر معها وكأنك فى بستان مليء بعبير ورود الربيع، لتعتقد من بلاغة حديثها، أنها أكبر عشرات الأعوام من عمر عينيها الزرقاوين.

وبدا لى جليًّا الآن أننا قد أتينا من عالمين متباعدين وشديدى الاختلاف، فقد كانت هى عميقة، متفردة فى كل شيء، للدرجة التى تجعلنى أبدو أمامها ضحلًا، خاويًا، وعاديًا أكثر مما ينبغي. إذن فكيف للزيت أن يمتزج بالماء، ثم وصلنا كورنيش الإسكندرية، فظللت أحدق فى البحر تارة وفى عينيها تارة أخرى، وقد انتابتنى موجة حزن كبير.

لقد أدركت أننى أمام اختبار صعب وحلم مستحيل المنال، كما أدركت الآن فقط مدى ثقل حملك يا ابن الحديدى.

ولم أعد أدرى ما أقوله، ألوذ بالصمت خشية التحدث فأبدو أمام وقارها وجدِّيتها؛ شاب طائش أرعن، فكنت أكتفى بالتحديق بها لعل حديث العيون يكون أفصح من كلام اللسان، فتركت لعينىَّ زمام الأمور كى تتحدث نيابة عنى، وأخذت أنا أستمتع بفيضانات الحب التى صارت تتدفق فى عروقى، فتعطى ذلك الإحساس الممتع بالدفء والراحة لكن ما يلبث أن يمحيه شعور مضاد بالخوف يتملكنى ويفسد على سعادتى فأرتجف وأرتجف حتى لا أكاد أسيطر على مشاعرى، ولأول مرة أشعر بصدق العاطفة، وفوضى المشاعر.

وفى المساء؛ نزلت من البيت، فوجدت النسيم العليل يتراقص طربًا فى أجواء وطرقات المدينة، بينما كنت أجوب شوارعها الخاوية إلا من بعض فحيح السيارات المسرعة فى تلك الليلة الباردة من ليالى الشتاء. فما أروع شتاء هذه المدينة العريقة، حيث نوافذها المعطرة برذاذ المطر، وطرقاتها المبللة برحيقه.

فالشتاء هو فصل الحنين والإشتياق. موسم الذكريات الجميلة وحكايات الحب المنسية كنت أرتدى معطفًا ثقيلًا واضعًا سكارف حول عنقى. بينما أحتفظ بيدىَّ داخل جيبَى المعطف.

ورغم برودة الطقس، إلا أنه كان يمتلك طابعًا مريحًا. يجعلك تتصالح معه وتمتزج به شيئًا فشيئًا فلا تشعر ببرودته بل ربما هو من يشعر بدفء جسدك.

كنت أنفث الهواء من جسدى؛ فيخرج دخانًا أبيضًا ما يلبث أن يتحول حلقات فى الفراغ. كنت أشعر داخلى بأن شيئًا ما قد وُلِد. ثم بدأ ينمو ويكبر. أمتلك شعورًا غامضًا لكنه ممتع، أخشاه لكنى لا أنوى الابتعاد عنه مطلقًا، بل أتمنى أن

أصادفه مرارًا وتكرارًا، لأركض نحوه وأحتضنه فى شغف؛ فمجرد التفكير به يسعدنى، بل يسمو بروحى فى رقة حتى أعانق فلجات السماء؛ فكم كان رائعًا هذا الشعور؟! ثم سألت نفسى:

"أأغرمت بها يا صديقي؟! لكم أتمنى أن أكون أنا عشقها وعاشقها الأول. حينها سأحارب العالم أجمع كى أفوز بها. فالفوز بمثلها يعنى أن الدنيا كلها قد حيزت لى".

وقفت قليلا أمام البحر المظلم أتأمل الفراغ المبهم أمامى، لأجد (عم إبراهيم) يدفع عربته الخشبية فى إعياء وشرود واضحين؛ فاستوقفته وسألته فى دهشة عما يفعله فى هذا الوقت المتأخر؛ فقال لى ببساطته وطيبته المعتادة:

"على باب الله يا دكتور محمد".

فتعجبت من صنيع القدر، فلا أحد قد يخرج ليبيع "حمص الشام" على كورنيش البحر فى وقت متأخر كهذا وليلة شديدة البرودة كهذه، لا بد وأنها الحاجة الملحة التى تدفعك لتناقض الواقع والمنطق والمسلمات، أو ربما هو اليقين فى رزق الله مهما عارضتك المقدمات والظروف.

طلبت منه كوبًا ساخنًا لأمتص قليلًا من برودة جسدى، حيث بدأت أشعر وكأن حلقى يتجمد.

كان (عم إبراهيم) يبيع ألذ وأشهى كوب حمص يمكن أن تتذوقه بحياتك، فما أن جربته لأول مرة أمام الجامعة منذ سنوات حتى صرت من رواده المعتادين كل يوم.

ثم بدأت أفتش عن محفظة نقودى لأعطيه ثمن الحمص وبالطبع كنت سأعطيه زيادة فوق ثمن كوب الحمص لأتفاجأ بأنى قد نسيتها.

لاحظ (عم إبراهيم) الخجل الذى بدأ يكسو ملامحى فقال متداركًا:

"هذه المرة على حسابى يا دكتور (محمد)، يكفينى أنى تآنست بك فى هذه الليلة الموحشة" ثم همَّ بالرحيل.

فتسمرت فى مكانى أؤنب نفسى على هذا الموقف المحرج، ثم ركضت خلفه واستوقفته مستفسرًا:

"ما بك يا عم إبراهيم. لقد عهدتك دومًا والابتسامة لا تفارق وجهك، فلقد تعلمنا منك السخرية من الدنيا ومن كل الظروف"

هنا انفجر بالبكاء وقال بكلمات متقطعة متحشرجة:

"غصبًا عنى يا دكتور، فأنا والحمدلله دائم الصبر على قضاء الله ودائمًا ما أحتسب أجرى عنده، رغم أن الحمل قد زاد كثيرًا هذه الأيام وفاق طاقتى".

لكن عندما عدَّت الليلة إلى البيت، تفاجأت بالجيران يخبرونى بأن زوجتى قد أخذت ابنتى الوحيدة (مريم) إلى المستشفى الميرى بعد أن أغمى عليها ليخبرونى هناك بأنها تحتاج إلى عملية قلب مفتوح عاجلة لوجود عيب خلقى بجدار القلب. وأخبرونى بأن الجامعة ستتحمل جزء من تكلفة العملية بينما على استكمال الجزء الآخر وهو حوالى سبعة آلاف جنيه وأنا لا أمتلك من متاع الدنيا غير الدعاء والتضرع إلى الله، فقد حاولنا كثيراً ادخار ولو جزء يسير من دخل العربة، لكنه بالكاد يغنينا عن سؤال الناس. فرجعت إلى البيت وأخذت العربة ونزلت وأنا لا أقول سوى "فرج كربى عليك يا رب". وظللت على حالتى هذه ثلاث ساعات وأنا أدور فى شوارع المدينة، إلى أن صادفتك هنا، فقلت له وأنا أربت على كتفه:

"لا تقلق يا عم إبراهيم ستجرى مريم الجراحة فى موعدها بإذن الله".

ثم قمت بالاتصال بأحد أساتذتى بالجامعة؛ وهو الدكتور (سليم مجدى) جراح القلب المعروف وقد كان من السباقين للخير، فأخبرته بقصة "عم إبراهيم" وظروفه المعيشية الصعبة وعدم قدرته على دفع تكاليف العملية ليوافق على الفور، ودون تردد أن يجرى العملية لمريم فى مركزه الخاص مجانًا؛ فلم يتمالك عم إبراهيم نفسه فأخذ يقبلنى ويلثم ملابسى ويدعو لى وهو يبكى، ثم عدت إلى البيت وأنا أتذكر حديث رسولنا الكريم

"رُبَّ أشعث أغبر مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره"

****

الفصل الخامس

"وأعشق فيكِ ابتسامة خلف الثغر تختبئ،
وكم يأسرنى حياء عينيكِ"

ثم كان له ما أراد فقد وطأ الموكب أرض طلبيرة بعد غروب الشمس بقليل؛ فقرر (خالد) التخييم خارج قلعتها وسط المروج الخضراء.

فبدأ الجند فى نصب الخيام وإحضار ما يحتاجونه من حطب لتوقد فيه النار، ثم وزَّع (خالد) جنده على أماكن متفرقة لحراسة المعسكر فى نوبات كى يأخذ الجميع قسطه من الراحة.

نزلت الأميرة من هودجها فشدهها مدى التنظيم والحزم والانضباط؛ حيث قام الطهاة بإعداد الطعام وتقديمه للجند بينما عكفت خادمات الأميرة على طهى طعامها الخاص. لتطلب الأميرة من أحد الخدم استدعاء "خالد" ليشاركها طعامها، لكن "على بن القاضى" وقد كان كبير الجند ونائبه أخبرها أن "خالد" قد غادر أرض المعسكر منذ نصف ساعة، لتستشيط الأميرة غضبًا من فعلته؛ فكيف يترك المعسكر بلا استئذان وهو المسئول الأول عن حمايته؟!. بل كيف يتركها وحدها فى هذه الأرض الغريبة؛ فرغم وجود جند أبيها حولها إلا أنها تعتبر الجميع غرباء ما لم يوجد (خالد) بينهم؛ فأصدرت أوامرها "لعلى" بأن يحضر "خالد" إلى خيمتها فور عودته.

غاب "خالد" بضع سويعات، ثم عاد إلى أرض المعسكر ليخبره "على" بغضب الأميرة من تغيبه؛ فذهب إلى خيمتها وما أن رأته حتى انهالت عليه عتابًا وتوبيخًا، ولم تترك له مجالًا حتى للدفاع عن نفسه بل انطلقت كلماتها كخناجر طائشة تُغرس فى صدره بلا رحمة، لكن (خالد) ابتلع حنقها عليه فى أدب جم وآثر الصمت للنهاية ثم اعتذر لها واستأذن للخروج كى يستأنف إشرافه على المعسكر. كسا الحزن والوجوم ملامح "خالد" فتلك هى المرة الأولى التى تعامله فيها الأميرة بهذه

القسوة، بل وبهذا التكبر والتعالى؛ فلم تعد هى تلك الطفلة المدللة التى كانت تحتمى به وتتلذذ بضعفها أمامه، بل صارت كغيرها من سكنى القصور وبيوت المُلك، أرباب التعجرف والغلظة مع رعاياهم. لقد أصبحت الأميرة ليلى بنت المامون التى يرضخ الملوك والأمراء تحت قدميها طمعًا فى إرضائها.

جلس (خالد) مع (على) و(حنين) بصحبة بعض الفرسان حول موضع النار وسط المعسكر يتسامرون فيما بينهم ليطلب (على) من (حنين) أن يقص عليهم بعضًا من أخبار المدن والأقطار البعيدة التى ارتحل إليها فبدأ (حنين) فى سرد ما فى جعبته من العجائب والنوادر التى شاهدها وغرائب عادات القبائل التى زارها.

فحدثهم فى البداية عن بغداد مملكة خلفاء بنى العباس، فأخبرهم أن بها من السكك والدروب ما يزيد عن ستة آلاف سكة ودرب ومن المساجد ما يزيد عن الثلاثين ألف مسجد، ومن الحمامات ما يقارب العشرين ألف حمام وبها العديد من الأسواق العظيمة وما يزيد عن المائة حانوت للوراقين، كما أن هناك مدينة بابل العجيبة والتى يُقال إنها ليست من صنع الآدميين وذلك لعظمها، فقد بناها الضحاك، ثم سكنها العمالقة، وهى أرض السحر والخمر، ويُقال أن بها الملكين هاروت وماروت يعذبان، حيث اختارا عذاب الدنيا على عذاب الآخرة، وهما معلقان فى سرب تحت الأرض كالجبلين وأن بعض الناس رآهما كذلك، فجادلهم يهودى فى ذلك، لكن ما أن رأى منظرهما فزع فزعًا شديدًا، كما أن ببابل العديد من الحدائق الخلابة ويحيط بها سور عظيم البناء، حفر أمامه خندق يجرى فيه نهر الفرات.

وحدثهم عن (دمشق) العظيمة قاعدة الشام ودار ملك بنى أمية بأبوابها الأربعة وأنهارها العديدة كبرزة وثورا ويزيد ونهر القناة وكانت هذه الأنهار تجرى خلال فتحات بسورها حتى تخترق دورها وأسواقها المسقفة، ثم استرسل فى وصف مسجدها العظيم الذى بناه (الوليد بن عبدالملك) فليس على وجه الأرض مثله بناءً أو أتقن إحكام حيث شارك فى بنائه اثنى عشر ألف صانع أمر الوليد ملك الروم بالقسطنطينية بإرسالهم وتوعده إن لم يفعل، فأنفق فيه خراج الشام كله لمدة عامين، ويقال أن الوليد بن عبدالملك مر برجل ممن يعملون بالمسجد وكان يبكى فقال له ما قصتك؟ قال: يا أمير المؤمنين كنت رجلًا جمَّالًا فلقينى رجل. فقال: أتحملنى إلى مكان كذا وكذا، موضعًا فى البرية، قلت: نعم. فلما حملته وسرنا بعض الطريق التفت إلىَّ وقال:

"إن بلغنا الموضع الذى ذكرته لك وأنا حىٌ، أغنيك، وإن مت قبل بلوغى إليه فاحملنى إلى الموضع الذى أصف لك، فإن ثَمَّ قصرًا خرابًا فإذا بلغته فامكث إلى ضحوة النهار ثم عد سبع شرافات من القصر واحفر تحت السابعة على قدر قامة فإنك ستظهر لك بلاطة فاقلعها، فإنك سترى تحتها مغارة فادخلها، فإنك ترى فى المغارة سريرين على أحدهما رجل ميت فاجعلنى على أحد السريرين ومدنى عليه، وحمل جمالك هذه وحمارتك مالًا من المغارة وارجع إلى بلدتك".

فمات الرجل فى الطريق، ففعلت ما أمرنى به، وكان معى أربعة جمال وحمارة فأوسقتها كلها مالًا من المغارة وسرت بعض الطريق وكانت معى مخلاة فنسيت أن أملأها من المال وداخلنى الشره، فقلت لنفسى:

"لو رجعت فملأت هذه المخلاة فرجعت وتركت الجمال والحمارة فى الطريق فلم أجد المكان الذى أخذت منه المال فلما يئست رجعت إلى الجمال والحمارة فلم

أجدهم فجعلت أدور فى البرية أيامًا فلم أجد لهم أثرًا فلما يئست رجعت إلى دمشق وقد ذهبت الجمال والحمارة ولم أحصل على شيء، وألجأنى الأمر إلى ما ترى يا أمير المؤمنين، فها أنا أعمل كل يوم فى التراب بدرهم وكلما تذكرت بكيت". فقال الوليد: لم يقسم الله لك فى تلك الأموال شيئًا وإلىَّ صارت فبنيت بها هذا المسجد" "

ومن عجيب شأن المسجد أنه لا تنسج به العنكبوت ولا يدخله طائر الخطاف، وبه آثار عجيبة كالخزان وقبة المحراب التى بناها الصابئة ومدفون فيه رأس يحيى بن زكريا بالقرب من المقصورة الصحابية، وهناك غار إبراهيم حيث رأى الكوكب والقمر والشمس، ومغارة صلى فيها إبراهيم وموسى وعيسى ولوط وأيوب وهناك الربوة المباركة التى أوى إليها المسيح وأمه والتى ينقسم الماء عندها إلى سبعة أنهار تروى بساتين المدينة.

ثم ذكر لهم أنه نزل يومًا بأرض دنباوند بين مدينتى الرَّى وطبرستان؛ بلدة السحرة وموطن "الضحاك" ملك الأقاليم السبعة، والساحر العظيم الذى ملك الأرض ألف سنة حيث يقال إنه كان يخرج فى منكبيه سلعتان كل واحدة منهما كرأس الثعبان تتحركان تحت ثوبه إذا جاع أو غضب فكان كلما اشتد وجعه يطعمهما دماغ إنسان لذا كان يقتل رجلين كل يوم، حتى قيَّده أفريدون بجبل دنباوند عندما قتل ابنيه وأطعمهما لحيتيه، لكن لم يستطع قتله كونه من الخالدين، وصار ذلك اليوم لهم عيدًا سمى بعيد المهرجان، لكن يقال بأنه سيفلت فى آخر الزمان ليكون مع المسيح الدجال يعلمه السحر، ووصف لهم جبل دنباوند العظيم الذى يطول ظله وقت العصر اثنى عشر ميلًا، وعلى رأسه دخان لا يفتر الدهر كله وتُرى قمته على مسافة خمسين فرسخًا وتنحدر منه مياه كثيرة.

كما حدثهم عن مدينة نيقية بالقسطنطينية وبحيرتها الفريدة بجبالها الثلاثة وحيتانها الخضراء التى يفوق طولها المتر وعندما تطبخ وتعصر فمن يشرب عصارتها مرة واحدة يشفى من السعال المزمن، كما يوجد على ضفتها أحجار صفراء لو علِّق الحجر منها على فخذ المرأة التى فى الطلق أسرعت ولادتها بلا تأخير.

ثم انتقل حديثه إلى الهند وملك نهراوة العظيم الذى يمتلك جيوش جرارة وفيلة مهيبة وكان يركب جواده كل جمعة وتركب حوله نحو مائة امرأة، لا يمشى معه أحد سواهن، يلبسن القراطق المذهبة ويتحلين بالذهب والفضة فى أيديهن وأرجلهن ويسبلن شعورهن على أردافهن وهن يتدافعن ويلعبن والملك يقدمهن، وكانوا يأكلون الحيوانات الميتة باستثناء البقر فهى محرمة عليهم بل إنهم يقدِّسونها ويعبدونها وإذا ماتت تدفن، أما موتاهم فتحرق، وإذا مات ملكهم صنعت له عجلة عريضة ارتفاعها حوالى شبرين عن الأرض وتوضع عليها قبة مكللة ويوضع عليها الملك ويطاف به فى المدينة كلها تجرُّه عبيده برأسٍ مكشوف وشعرٍ ينجرُّ على التراب ثم يلقونه فى النار، والزنا عندهم مباح كما أن الرجل يمكنه نكاح ابنته أو أخته أو خالته أو عمته ما لم يكن متزوجات.

وفى النهاية؛ أخبرهم بأمر مملكة صاحب السرير وخبر سريرها المصنوع من الذهب الخالص حيث كان لملك من ملوك الفرس فلما زال حكمه استولى عليه الروم مع ذخائر نفيسة وعلى يمين قلعة السرير هناك مدينة جيدان وشجرتها العظيمة التى يجتمع حولها أهل المدينة كل أربعاء، يعلقون عليها أصنافًا شتَّى من الثياب، ثم يسجدون لها ويقربون عندها القرابين.

كان (حنين) لبقًا، فصيح اللسان، بليغ الكلام، حسن التعبير، وذا علم غزير. يجعلك لا تملّ حواديته الشيِّقة؛ فخفف هذا السمر قليلًا من النار المستعرة بصدر (خالد).

بعد ذلك طلب منهم (خالد) الاستراحة وأخذ قسطٍ من النوم لاستكمال الرحلة مع بزوغ الفجر.

لكن (خالد) لم ينم ليلته تلك، بل جلس وحيدًا خارج المعسكر يناجى نجمات الليل الشاردة التى ربما أرَّقها شيء ما مثله، كان الهمُّ قد بلغ منه مبلغه. ثم أخذ يحادث نفسه قائلًا:

"ها أنت ذا يا ابن الحديدى تترك سوق الأرواح هناك. لتقف هنا بين يدى امرأة مدللة، متعجرفة، أفسدها النعيم، فلا تستحى من توبيخك ونهرك هكذا، لكنها ليست مجرد امرأة. أجل، إنها ابنة المأمون، عشق الروح ودرة الفؤاد. واليوم صارت المسافة بينكما بعيدة. ابتعدت حتى صارت مستحيلة، لقد خدعك لقاؤها وحفاوتها بك. تلاعبت بعقلك كلماتها المعسولة، لتغير قناعاتك، وتفقد رشدك ورجاحة عقلك، وتقبل بهذه المهمة السخيفة التى كنت تعلم يقينًا أنك لن تجنى منها سوى إرهاق الجند، والمجازفة فى وقت لا يصلح فيه مجازفة، لكنك وافقت فقط لتكون قريبًا منها، ولكن ما الجدوى؟! فى نهاية الأمر لن تكون لك يومًا. بل سيفوز بها أحد الأمراء المُترفين مثلها والراغبين فيها وما أكثرهم".

ظل (خالد) على حالته تلك حتى بدأت خيوط الفجر البيضاء تداعب أغصان الشجر الناعسة فى هداوة فنهض آمرًا جنده بالاستعداد للمسير.

كانت الأميرة بين الحين والأخر تختلس النظر إلى "خالد" لتفطن لعلامات الحزن البادية على وجهه؛ فيزداد ندمها لما فعلته به أمس. فقد باتت ليلتها باكية فى

فراشها، بعد تأنيب مربيتها (سيليا) لها على فعلتها. فكيف لم تتمالك نفسها؟! وكيف استطاعت أن تعامل هذا القائد العظيم هكذا.

حيث اقتربت منها (سيليا) ووضعت رأسها فى حجرها، ثم أخذت تداعب خصلات شعرها الطويل الناعم وهى تقول لها:

"رفقًا بنفسك قليلًا يا مولاتى؛ فابن الحديدى، لم يعد هو ذاك الطفل الصغير، الذى كان يكبركِ بعامين ويتحمل دلالكِ وعنادكِ. لقد صار الآن فارسًا كبيرًا له مكانته وهيبته، ولن تقبل كبرياؤه بأن تهينه امرأة بهذه الطريقة، حتى وإن كانت ابنة المأمون".

فاعتدلت الأميرة (ليلى) فى جلستها وقامت باحتضان (سيليا) فقد كانت أقرب النساء لقلبها، بئر أسرارها وموضع ثقتها الوحيد، خاصة بعد وفاة أمها (ماريا) وهى لم تتجاوز بعد العشر سنوات من عمرها.

فى الصباح لحق بهم (ابن الوقشى)، قاضى طلبيرة، وقد كان عالمًا، فصيحًا وله العديد من المصنفات مثل: (نكت الكامل للمبرد) و(الرسالة المرشدة)، فعاتبهم (ابن الوقشى) على عدم دخول القلعة، لكن (خالد) أخبره بعدم رغبته بتداول أمر الرحلة بين العامة، ثم شكره وانطلق يعبر بالموكب الجبال الجنوبية لطيطلة وجبال المعدن ثم دخل إقليم ماردة مرورًا بالوادى اليانع حتى حلَّ بأرض بطليوس، وكانت تحت حكم بنى الأفطس الذى كان قد تحالف معهم المأمون لمواجهة خطر فرديناند الأول بعد توحيده مملكتى ليون وقشتالة وإغارته على مملكة طليطلة، فأسند المأمون تصريف أمور بلاده لوزيره ابن الحديدى يعاونه فى ذلك (الحاج بن محقور وابن لبون وابن سعيد بن الفرج) ليتفرغ لحروبه.

فكان حاكمها (المظفر بن الأفطس) وبجانبه ولداه (عمر المتوكل) و(يحيى المنصور) فى استقبالهم بعدما وصلت إليه رسائل المأمون فنهض على الفور لاستضافة الأميرة الحسناء وكانت العلاقات بينهم قد تحسنت كثيرًا خاصة بعد توسط المأمون فى الاتفاق الذى تم بين (المظفر بن الأفطس) وملك قشتالة (فرديناند) على دفع جزية سنوية قدرها خمسة آلاف دينار على أن يعود (القومس) قائد جيوش فرديناند عن غزو(شنترين) والتى كانت من أفضل مدن البرتغال وقتها. ترجل (خالد) عن فرسه وقام بمصافحة الملك والأميرين بعد أن قدم نفسه إليهم، وقد كانت معظم الأقطار تعلم بضراوة وبسالة ابن الحديدى فى الدفاع عن مدينتى سالم ووادى الحجارة أمام جنود فرديناند، لذا ظهرت علامات التقدير والاحترام على ملامح الملك ليصافحه بحرارة فقد كان مشهورًا بعلمه وأدبه. ثم طلب (خالد) من الأميرة النزول للقاء الملك وكانت عيناه تتحاشيان النظر إليها، لتحدق هى فى عينيه طويلًا راجية أن ينظر هو الآخر فى عينيها ليرى دموع الاعتذار تتأرجح بها فكبرياء الأميرات ستمعنها بالتأكيد من النطق بها مهما حدث، لكن (خالد) لم يرفع عينيه من الأرض كأنه يفتش عن شيء مهم سقط منه، إنها كبرياؤه كرجل وكرامته كفارس عظيم.

وما أن أطلت الأميرة بحسنها حتى تهللت أسارير كل مَن بالمكان بينما جُنَّ جنون الأميرين.

أثنى الملك عليها كثيرًا بينما غُلَّت الكلمات فوق شفاه ولديه من هول الصدمة، لكن كان (عمر) أكثر ثباتًا من أخيه (يحيى) الذى بدا وكأنه فقد لبَّه، تدارك (خالد) الأمر وقام بمصافحة الأميرين مرة أخرى طالبًا الإذن بإراحة الجند بعد هذه الرحلة الشاقة، فأمسك بأيديهم الناعمة الغضة كأيدى النساء بينما تملأ

النذوب المتناثرة يده كلحاء الأشجار المعمرة. لكنها يدٌ يحبها الله ورسوله وهذا يكفى.

وكان الأميران فى غاية الوسامة، تبدو عليهما علامات النعيم ورغد العيش، خصال تجعلهما حلم كل أميرات الأندلس خاصة لما ذُيع عن مدى شجاعتهما وبسالتهما وما يمتلكانه من مهارات فائقة فى اصطياد الأرانب من الحقول، بينما ترك (خالد) ترف القصور ليجز الرؤوس من قوائمها وليغتسل بغبار ورمال الصحراء، حتى اندثرت وسامته خلفها. تراه فتظنه لأول وهلة راع مكلوم أكلت الذئاب أغنامه، لا يميزه سوى زى الفرسان الذى يرتديه وهذا السيف المتحفز دائمًا فى قبضته. فكيف يمكن لأميرة حسناء رقيقة أن تترك أميرًا وسيمًا مثلهما، يتقلَّب فى النعيم ليلًا نهارًا، لتفكر بهذا الأشعث المغبر، حاد الملامح، قاسى النظرات، فلقد سلبته الحروب كل شيء. لكنه يمتلك بحشاه ذلك القلب الذى يفيض حبًا لها وهيامًا بها، لكن لا يعلم سرائر وخبايا القلوب إلا الله وحده، أما البشر فحسبهم الظواهر كي يصدروا الأحكام الظالمة على القلوب الطاهرة والنيات الحسنة وما أكثر زيف المظاهر هذه الأيام.

بالغ الملك وزوجته فى الحفاوة بالأميرة (ليلى) التى خصصوا لها جناحًا عظيمًا بالقصر، بينما اصطحب كبير الجنود (خالد) وجنوده إلى دار الجند على ضفتى نهر الغور.

وقف خالد بشرفة الدار المطلَّة على النهر وأخذ يتأمل حاله. لقد أبعدته الحروب وساحات القتال عن أحوال الدنيا، لقد شغلته مجابهة الموت كل يوم عن لذة الحياة ومتاعها.

لقد تمادى الجميع في كنز الأموال وتشييد القصور بينما وهو(ابن الحديدى) رجل الدولة الأول الذى لو اختار عيشة الأمرء والملوك لكان له ما أراد لكنه آثر الجهاد فى سبيل الله عن زائل الدنيا ومتاعها.

زار الملك دار الجند والتقى بخالد، وبالغ مرة أخرى فى تكريمه والحفاوة به فقد كان يطرب لسماع أخبار هزيمة وتقهقر جيوش (فرديناند) بسبب إغارته على بلاده أكثر من مرة. وأخبره أنه يعرف والده (أبا بكر بن الحديدى) منذ زمن بعيد، ثم أهداه سيفًا رائعًا مطرزًا بالاحجار النفيسة. قبِل خالد الهدية وشكر الملك ليجلس بعدها ينظر الى ذلك السيف ويقول فى نفسه لقد تكسرت فى يدى سبعة سيوف عند استرداد قلعة قَلَهُرَّة من النصارى. حينما اشتد الكرب علينا كما اشتد الكرب يوم مؤته على ابن الوليد فما المغزى من سيف نفيس يعلق على الجدران. فقيمة السيف لا بثمنه بل بعدد الرؤوس التى اجتزَّها فى سبيل الله وإعلاءً لكلمته. أما هنا تموت الملوك وتظل سيوفهم معلقة على جدران قصورهم الضائعة، لتروى قصصًا مفجعة عن ملكٍ زائل بسبب جبن وتخاذل أصحابها.

كانت دار الجند تطل من بعيد على حديقة القصر. فلمح (خالد) الأميرة (ليلى) تتجول فى أحد مجالسها الفخمة رفقة الملكة. فابتسم (خالد) فى سخرية لإدراكه أن المسافة الفاصلة بين دار الجند والحديقة فى حقيقة الأمر ما هى إلا مسافة المستحيل التى تفصله عن الأميرة (ليلى).

فى صباح اليوم التالى. طلب الملك من ابنه (يحيى) اصطحاب الأميرة ليطلعها على معالم المدينة وأوصاه بمحاولة التقرب والتودد منها أملًا فى توطيد علاقته بالمأمون بزواج ابنه من ابنته، وبالطبع سُرَّ الأمير لهذا الأمر، لكن الأميرة أصرت على وجود (خالد) رغم امتعاض الأمير.

كان الغضب ما زال مسيطرًا على (خالد) فما حاجتها له وهما يتجولان معًا، ربما شعرت الأميرة بما يجول بقلبه فأرادت الإمعان فى إذلاله؛ لذا اصطحب معه هو الآخر (على). ليشغله قليلًا عن مراقبتها لكن الأمر لم يفلح.

كانت الأميرة تحاول اختلاس النظر إلى خالد بين الفينة والأخرى ولكنه كان دائم الانشغال مع رفيقه. ثم انتقلا إلى جزيرة الورود الملكية والتى كانت آية فى الروعة والجمال ليتجول الأمير والأميرة فى جوانبها بينما أعطى الأمير أوامره للجند بالوقوف عند باب الحديقة ومن ضمنهم (خالد) و (على). وأثناء السير كان الأمير (يحيى) دائم التغزل فى الأميرة (ليلى) محاولًا كسب ودَّها تارةً بالإفتخار بنفسه وإبراز مواهبه المتعددة وبطولاته المزعومة، ثم بدأ يقترب منها محاولًا الإمساك بيديها، وهنا دوت صرخة عفوية من الأميرة قبل أن تنهره، لتجد خالد بجانبها فى لمح البصر وكأن الفراغ قد انشق عنه، شاهرًا سيفه متحفزًا وحوله جنود الأمير. سألها (خالد) وهو يرمق الأمير بنظرات غضب كادت تحرقه عما حدث، فأجابته بأن شوكة شيطانية كادت تجرح يدها. نظر (خالد) فى عينيها لأول مرة منذ قدومهما ليستنبط كذبها، ففطن أن هذا الأمير الأرعن حاول مضايقتها، لكن الأميرة لم تتركه لظنونه كثيرًا كى لا يرتكب أى حماقة تزيد من سوء الموقف فطلبت منه العودة للقصر، وهناك استأذنت الملك فى الرحيل.

****

غادر الموكب مجددًا. وحثَّوا السير حتى نزلوا بأرض (يابرة) فاختارها (خالد) مكانًا للاستراحة. وأثناء سمر (خالد) مع جنوده فاجأتهم الأميرة بخروجها من خيمتها لتشاركهم سمرهم. كانت هذه المرة غاية فى التواضع والودِّ، وكانت أيضًا متأنقة ومتألقة فى غاية الجمال والرقى، حتى إن القمر بدأ يغازل وجهها الساطع بخيوطه الفضية ليبرق كالنجم الامع فى الأفق.

بدأ (حنين) بسرد طرائفه مجددًا، قبل أن تطلب الأميرة من خالد أن يصطحبها فى جولة لتكتشف جمال المكان؛ فلم يستطع خالد رفض طلبها أمام جنوده، فسار معها وسط الأشجار الكثيفة المورقة والتى ينعكس ضوء القمر على أغصانها السابحة فى الفراغ فتبدو كسلاسل فضية تتراقص مع النسيم، كما تتحول عناقيد العنب المتدلية إلى حبات لؤلؤٍ تلمع كالثريا فى السماء، فتحدثت الأميرة مداعبة قائد جندها قائلة:

لم أكن أعلم أن غضب الفرسان صعب هكذا. فلم تعد تتحمل حماقاتى كالسابق""

فقال خالد وهو ما زال يتحاشى النظر إليها:

"لم أكن أعلم أنا أيضا أن الملوك تهتم لأمر الفرسان يا مولاتى". لتعقب الأميرة وهى تعطى (خالد) صندوقًا صغيرًا كانت تحمله:

"إن لم يكن أمر الفرسان يهمُّنا كثيرًا لما احتفظنا بأشيائهم كل هذه الأعوام يا (خالد)" ثم طلبت منه أن يفتح الصندوق.

فتحه (خالد) ففاحت منه رائحة عطرية مميزة ما زال يتذكرها إلى الآن، كذب أنفه لكنه لم يستطع تكذيب عينيه حينما وقعت على تلك الزهور التى كان خالد قد اقتطفها وهم صغار من حديقة المأمون وأهداها لها.

فقال لنفسه فى ذهول:

"أما زالت تحتفظين بها كل هذه الأعوام؟!" ثم نظر إليها وهو لا يدرى ما يقوله لقد تلعثم كل شيء به. ولكن كان هناك سؤال يزداد الحاحًا بداخله، ما يعنيه هذا؟

لتقطع الأميرة شروده قائلة:

"أتدرى يا خالد أن ورودك هذه لم تغب عنى يومًا واحدًا؛ فأنا اصطحبها معى فى كل رحلاتى. أرافقها وأتحدث معها كأنها أعز صديقاتى، فإذا ألمَّ بى ضيق أو حزن أهرع إليها، أفتح الصندوق وما أن أستنشق عبيرها حتى يزول كل همٍّ بى إنها أعظم ما امتلكته يومًا وهى عندى أعظم حتى من ملك أبى".

كانت كلماتها تسقط على خالد كأنها ماء الجنة يغسل قلبه ويلده من جديد، يصطحبه إلى عالم سحرى جميل. ثم أضافت:

"بعدما عنفتك، لم أنم ليلتها ولا الليالى التى تلتها، كنت أحترق بشدة وكلما وجدت علامات الحزن والوجوم على وجهك؛ كنت أكتوى ألمًا وحرقة، فأنت يا خالد كنت وما زلت حلم طفولتى وصباى وشبابى، أنت حلم العمر. ولم أدرِ سبيلًا للاعتذار عما ارتكبته من جرم فى حق حبيبى وأغلى الناس على قلبى. وحمدت ربى أن الأمير (يحيى) قد دفعته رعونته وطيشه ليفعل ما فعله حتى أجدك أمامى ثانيةً حامى حماى وملاكى الحارس ولأرى علامات الخوف مرسومة على هاتين العينين القويتين". هنا قاطعها (خالد) بقوله:

"ماذا فعل لكِ (ابن الأفطس) هذا؟!"

فلم تجب الأميرة بل أمسكت بيدِ (خالد) قائلة وهى تنظر إلى عينيه وتبتسم:

"لقد حاول أن يمسك يدى هكذا" هنا لم يدرِ (خالد) بنفسه. لكنه شعر بتلك الرجفة اللذيذة تتراقص داخل عروقه. بدا وكأن الأرض من حوله قد توقفت عن دورانها. فتنهَّد تنهيدة عميقة فبدا وكأن الكون كله يتنهد معه. ماذا يحدث لك يا ابن الحديدى أوتحلم؟ أجل أنت تحلم فما يقع على مسامعك لم يخطر ببالك يومًا ولن يخطر. الأميرة الحسناء ليلى بنت المأمون، غاية المنى ومهجة القلوب، زهراء طليطلة، حلم عمرك تغازلك. تناديك بحبيبى وأغلى الناس؟! ما أجمله من حلم. فقاطعت سعادته قائلة:

"أتعلم يا (خالد) أنى انتظرت أعوامًا طويلة وأنا أحلم بفرصة أستطيع بها استعادتك مجددًا، فمنذ أن التحقت بجيش المملكة المرابط بالشمال ورحلت منذ أعوام وانا أفتقدك ولم يغادر الحزن روحى. إلى أن وصلتنى دعوة الأميرة فطرت فرحًا، ورغم يقينى بصعوبة موافقة أبى على ذهابى، إلا أننى استغللت كل مخزون محبة لى عنده وكل دلال لى عليه لأقنعه بالذهاب قبل أن آتى للأمر الأصعب فأطلب أن تكون أنت قائدًا للرحلة. فأمرٌ كهذا؛ أدرك جيدًا أنه سيفتح الباب للكثير من التساؤلات والتكهنات وأنت تعلم أمور القصر جيدًا ونميمة نساء القصر وتربصهم لكل شاردة وواردة لكنى لم آبه لكل هذا، بل ذهبت إلى عمى (أبي بكر) والدك أترجاه أن يستدعيك ويقف بجوارى. هنا تساءل (خالد) فى تعجب: أكان أبى على علم مسبق بكل شيء؟! أجل يا (خالد)، ورغم رفضه فى البداية إلا أنه وافق فى النهاية عندما رأى إصرارى الشديد".

كان (خالد) مذهولًا، لا يصدق شيئًا مما يحدث حوله، بل ينظر إلى عينىَّ الاميرة الزرقاوين فى سعادة عارمة تفوق قدرته على احتوائها، يخفق قلبه كما لم

يخفق من قبل. تطرب روحه فتتسامى حتى تتعلق بأستار السماء. فلم يدر بنفسه إلا وهو يحتضن الأميرة بين ذراعيه بحركة عفوية، جعلتها تستسلم له فى رقة كأنها لم تستوعب بعد ما يحدث، ثم بدأ يحملها ويدور بها؛ لتتناثر خصلات شعرها الناعم فى الهواء. فأغمضت عينيها بسرعة كأنها تقبض على أمنية عظيمة تخشى هروبها، لكنها لم تتمالك دموعها التى بدأت تنتقى دربًا لها على وجنتيها الناصعتين، ليمسح (خالد) دموعها وهو يقول:

"لمَ البكاء الآن يا مولاتى؟! لترد هى:

"الأمر أعظم من أن يصدق يا (خالد). فالله وحده يعلم ما بى من فرحة، وكم أتضرع لله أن تكتمل سعادتى بك وتصير زوجًا لى". كان وقع كلماتها لذيذ. يفوق قدرة خالد على استيعابه دفعة واحدة. حبيبى ثم زوجى. ما أروعها من ليلة خالدة ستحفر فى ذاكرة (ابن الحديدى) للأبد.

وبعد أن نهل كل منهما من نبع الآخر؛ طلب منها (خالد) العودة للمعسكر كى لا يُشَك فى أمرهم. فعادا وهما يشعران كأنما قد امتلكا الدنيا وما فيها.

****

"لكأن الحياة تشرق من بين عينيها
ولكم يشتهى أن يتوه بداخلها؛ كى يهتدى إلى نفسه"

انطلق الموكب فى الصباح؛ إلى أن وصلوا ساحل بحر الظلمات، فأخبرهم (حنين) أن شمالهم يفضى إلى (شنترين) وقلعة (شنت ياقوب) التى هى من ثغور ماردة، فيها كنيسة عظيمة بُنيت على جسد يعقوب الحوارى، فبعد أن قتل فى بيت المقدس أدخله تلامذته فى مركب وجرى به المركب فى البحر الشامى ثم بحر الروم حتى وصل إلى المحيط فانتهى به المآل إلى موضع الكنيسة على الساحل فبنيت وجعل هذا اليوم عيدًا.

لكن الموكب توجه جنوبًا صوب مدينة أشبونة والتى كانت من كور باجة التابعة لملك بنى الأفطس، تلك المدينة العتيقة الرائعة والممتدة على سيف بحر الظلمات حيث تنكسر أمواجه فى سورها بديع البنيان فدخلوا من بابٍ غربيٍ يقال له (الخوخة) يشرف على باحة فسيحة يشقها جدولا ماء يصبان فى البحر، وقد عقدت على الباب حنايا فوق حنايا على عمدٍ من رخام مثبتة على حجارة من رخام، ثم مر الموكب بحصن المعدن العجيب فكانت أمواجه كلما ثارت، تقذف الذهب التِّبر على الشاطئ، فإذا كان الشتاء قصد أهل البلاد المجاورة الحصن للحصول على الذهب بعد انقضاء الشتاء، كما مروا بدرب المغرورين ليحدثهم (حنين) عن خبره قائلًا:

-خرج مجموعة من المغرورين من أشبونة، لركوب بحر الظلمات، ليعرفوا ما فيه وإلى أين انتهاؤه، وكانوا ثمانية رجال كلهم أبناء عم، اجتمعوا فابتنوا مركبًا وأدخلوا فيه من الماء والزاد ما يكفيهم لأشهر، ثم دخلوا البحر مع أول هبوب للريح

الشرقية فجروا بها نحوًا من أحد عشر يومًا فوصلوا إلى بحر غليظ الموج كدر الروائح، قليل الضوء فأيقنوا بالهلاك، فاستداروا ناحية الجنوب، حتى وصلوا(جزيرة الغنم) وفيها من الغنم ما لا يأخذه عدٌّ ولا تحصيل وهى حرة طليقة لا ناظر لها ولا راعٍ، فنزلوها، ليجدوا عين ماء جارية عليها شجرة تين برى، فأخذوا من تلك الغنم، فذبحوها، ليجدوا لحومها مُرَّة، لا يقدر أحد على أكلها، فاستأنفوا ركوبهم، إلى أن لاحت لهم جزيرة، وجدوا بها عمارة وحرث، لكنهم أحيط بهم فى زوارق، فأخذوا وحملوا إلى مدينة على ضفة البحر، فأنزلوا بها فى دار، فرأوا بها رجالًا شقرًا زعرًا، شعورهم سبطة وهم طوال القدود، ولنسائهم جمال عجيب، فاعتقلوا فى بيت ثلاثة أيام، ثم دخل عليهم فى اليوم الرابع رجل يتكلم بلسان عربى، فسألهم عن حالهم، فأخبروه بكل خبرهم، فوعدهم خيرًا، وأعلمهم أنه ترجمان، وفى الصباح، أُحضروا بين يدى الملك، فسألهم عما سألهم عنه الترجمان أمس فأخبروه، فلما علم الملك ذلك ضحك وقال للترجمان "أخبر القوم أن أبى كان قد أمر قومًا من عبيده بركوب هذا البحر، وأنهم جروا فى عرضه شهرًا إلى أن انقطع عنهم الضوء وانصرفوا من غير فائدة تجدى" ثم وعدهم خيرًا، وصرفوا إلى موضع حبسهم، إلى أن بدأ جرى الريح الغربية، فعُصبت عيونهم وجرى بهم فى البحر برهة من الدهر، حتى جيء بهم إلى البر فأُخرجوا وكُتِّفوا إلى خلفٍ، ثم تُركوا بالساحل إلى أن تضاحى النهار وطلعت الشمس وهم فى ضنك وسوء حال من شدة الكتاف حتى أقبل القوم إليهم، ليجدوهم بتلك الحال السيئة فحلوا أوثاقهم وسألوهم فأخبروهم بخبرهم، وكانوا برابر فقال لهم أحدهم، أتعلمون كم بينكم وبين بلدكم؟ فقالوا لا، فقال: "مسيرة شهرين" فقال زعيم القوم "وأسفى! فسمى المكان إلى اليوم آسفى، وهو مرسى فى أقصى المغرب"

ثم مرَّ الموكب بعدها على جنائن ممتدة على مرمى البصر تزينها أشجار الآراكِ وبالقرب منها بحيرة واسعة على اتصال بالمحيط تحوم فوقها أسراب عظيمة من النوارس وتسبح بمياهها صنوف شتى من الأوز وطيور البجع الجميلة، تتشارك فى عزف سيمفونية رائعة وكأنهم فى حفلة غنائية راقصة، وقد أُعجبت الأميرة كثيرًا بالمشهد الرائع الذى تزكيه روائح شجر الآراك العطرة والتى عبقت بأنوفهم، ثم انطلق الموكب جنوبًا، محاذيًا لبحر الظلمات حتى لاحت لهم (شنتمرية الغرب)، وهناك كان فى استقبالهم حاكم المدينة بالإضافة إلى (سُميَّة) وأبيها (يوسف بن سليمان الشنتمرى)، الذى اشتهر بين الناس بالأعلم لأنه كان مشقوق الشفا العليا، فوجدوه قد فقد بصره فى آخر أيامه، فاستقبلهم الجميع أحسن استقبال، ولم تصدق (سمية) عينيها، وهى تحتضن صديقة طفولتها التى قدِمَت إليها رغم مشقة وخطورة الرحلة.

****

نزل الجند بأحد الدور، بعد أن أعطت الأميرة لصديقتها (سمية) الهدايا التى جلبتها من طليطلة وكان من ضمنها مجموعة كبيرة من المشغولات الذهبية والتحف العاجية المصنعة بقونكة، بالإضافة إلى بخور العود الهندى والعنبر المغربى وماء الورد الجورى والمسك التبتى واللبان البرمكى، وأكياس عظيمة من الزعفران الطليطلى الأحمر المشهور والقُندول والسنبل الجبلى الذى يستخدم لتقوية المعدة وعلاج ألام المفاصل، كما أعطتها أحمالًا من التين الأبيض، وثمار الجلنار، وشجر اليبروح أو تفاحة الشيطان كما كانت تسمى وكان (ابن بصال) قد جلبه من الشام، حيث أنه جميل المنظر، وثماره طيبة الرائحة.

شكرت (سمية) رفيقتها على هداياها الكثيرة، ثم أخذتها إلى دارها التى كانت تضم باحة فسيحة تتوسطها فسقية خلابة، تحيطها ثلاثة حيتان يخرج الماء من أفواهها فيسقط فى بطن الفسقية فيحدث خريره أنغامًا عذبة، تريح النفس، فقد كانت (سمية) محبة لشتى أنواع الفنون لكنها كانت مولعة بالرسم والنحت والعمارة، لذا اختارت أن تشيد دار الطبخ فوق جدولًا يمر بوسطها، فتضع الخادمات صحاف الطعام فى مياهه الجارية بعد إعداده، لتحملها المياه إلى دار الضيافة والتى يمر بها أيضًا جدول الماء فيتناولها الخدم ويضعونها على مائدة الطعام أمام الضيوف، وبعد الانتهاء توضع الصحاف فى المياه مرة أخرى لتعود مجددًا إلى دار الطبخ بعد أن تمر بباحات الدار كلها.

بعد أن أخذت الأميرة قسطًا من الراحة، طلبت من رفيقتها مشاهدة معالم المدينة الرائعة فحملتها إلى دار صناعة الأساطيل، على شاطئ البحر، لترى لأول مرة المراكب الضخمة، صادرة وواردة، محملة بالبضائع المختلفة، كما أبهرها مرأى قطع الجزر المتناثرة بالقرب من الشاطئ والتى تزينها أشجار الصنوبر البديعة.

كما اصطحبتها إلى تلك الأعجوبة التى ذاعت شهرتها بالأندلس كلها وهى عين ينفجر بها ماء كثير ينظر إليها الناس من بعيد فإذا اقتربوا منها ووقفوا عليها انقطع جريانها فلا تنبض بقطرة فاذا تباعدوا عنها عاد جريانها، وقد كانت قلعة عظيمة حصينة مبنية على ضفاف نهر (أراجون) يطل معظمها على بحر الظلمات ويصعد الماء إلى سورها العظيم عند المد.

ثم تجولت الفتاتان بين بساتين العنب المستطيل والتين اللذيذ والتى تملأ أرجاء المدينة، لتشكرها (سمية) ثانية على قدومها، وعلى الهدايا الرائعة التى تحملت مشقة جلبها من طليطلة، لتطمئن (ليلى) منها على تجهيزات العرس وإذا كان

ينقصها شيء، فأثنت عليها (سمية) وأخبرتها أنه قد تبقى يومان فقط على الزفاف حيث تم الانتهاء من كل التجهيزات، ثم أخبرتها عن سعادتها لما وصلت إليه صديقتها من شهرة واسعة فى شتى بقاع الأندلس، وأنها سعدت أكثر عندما رأتها أمس والسعادة تملأ محياها، ثم بدأت تستدرجها بخبث الفتيات لتبوح بخبايا قلبها، وما آلت إليه الأمور مع حبيبها الصغير فقد كان سمية على علم بتعلق صديقتها منذ الصغر بخالد وكانت تخبرها فى مكاتباتهم المستمرة بكل جديد وكان آخرها انقطاعها عن رؤيته بسبب التحاقه بالجيش، لذا اتفقتا فى آخر زيارة لها لطليطلة على أن تحتالا على الجميع، فتخبراهم أنهما قد تعاهدتا فى صغرهما على أن مَن تتزوج قبل صاحبتها، فإن الأخرى تكون إشبينتها فى العرس، فكان لهما ما أرادتا وانطلت الخدعة على الجميع، ثم قالت لها مازحة:

"لقد صار ملاكك أسدًا كاسرًا يا (ليلى)، لقد عرفته من تلك الندبة القديمة بوجهه منذ الصبا، أرى أنكِ ستجدين من الآن صعوبة بالغة فى الحفاظ عليه من فتيات طليطلة فهن ماكرات" لتضحك الفتاتان، قبل أن تقصّ عليها (ليلى) ما دار بينهما أثناء الرحلة، وكيف اعترف كل منهما للآخر بمشاعره، فسُرَّت (سمية) لصديقتها عندما علمت بنجاح خطتهما.

فى المساء، دخلت (سمية) على (ليلى) ومعها عرَّافة غجريَّة لتقرأ لها الطالع فقد كانت من عادات البلدة الاستعانة بهم قبل أى حدث جديد، لكن ما أن وقع نظر العرافة على (ليلى) وكانت عجوز شمطاء طاعنة فى السن حتى تجهمت وظلت ترمقها بنظرات حادة، جعلت الخوف يدب فى نفس ليلى، وبعد أن انتهت من قراءة طالع (سمية) وبشرتها بالخير القادم، اقتربت من (ليلى) وأمسكت يدها بلا

استئذان ثم أخذت تحملق فى كفها وهى تتحسس خطوط وثنايا كفها وتتمتم بكلمات غير مفهومة، ثم رفعت رأسها وهى تقول:

"يا بنيتى إنى لم أرَ أطهر منكِ قلبًا ولا أنقى سريرة، لكن طالعكِ لا ينبئ بخيرٍ، لذا أستحلفك بالله ألا تعودى لبلادكِ، فالشياطين بدأت تحوم هناك كثيرًا، وحيَّاتها تتلهف بشغفٍ قدومكِ، فها هو البحر أمامك، وحبيبك بجوارك، اركبا واتجها شمالًا قدر ثلاث ليالٍ، حتى تصلا أرضٍ يلبس رجالها الأبيض ويتحلَّون بالعمائم السوداء، وقد وضعوا فى مقدمتها ريشًا من نعام، فانزلا بدار زعيمهم فستجدانه قد اختار لعمامته ريشًا من طاووس، فأعطياه كتابى هذا، ولا تزيدا، ثم امكثا هناك ما قدر الله لكما" أنهت العجوز كلامها ثم أخرجت كيسًا مربوطًا من بين طيات ملابسها وأعطته للأميرة وهى تقول:

"لا تستخفَّى بكلماتى هذه يا بُنيتى، واعلمى أنى ناصحةً لكِ، فأنا طوق النجاة الأخير لكِ. وإن كان الشك يختلج بصدركِ فسيبعث لكِ القدر بإشارات فلا تتجاهلينها، لأنكِ إن فعلتِ فستبدأين فى فُقدِ كل ما جمعتِه طيلة رحلتك"

على الجانب الآخر، استشار (خالد) عليًا و حنين فى خطة العودة فرأى (على) أن يعودوا من نفس الطرق التى أتوا من خلالها، فهم الآن على دراية جيدة بها كما أنهم وجدوا ترحيبًا لائقًا من أهلها، فلا حاجة للمجازفة باجتياز قرى مجهولة، فالأفضل تجنب البرابرة وقاطنى الجبال وقطاع الطرق.

لكن (حنين) رأى أنه وإن كان ملوك وأمراء تلك المدن قد أبدوا حفاوة وترحيب فى السابق؛ فلا يعلم خبايا صدورهم إلا الله، ومع أنهم قد أبدوا صدقهم فى تحالفهم مع المأمون، لكن الأحمق فقط هو من يأمن مكرهم، فقد تُنصب لهم الكمائن حيث سيكونون كالكتاب المفتوح إن هم سكلوا نفس الطرق مجددًا.

فارتأى (خالد) أن يأخذ بكلا الرأيين فعوضًا عن سلك دروبٍ جديدة، أن يمروا بالمدائن المضمون ولائها التام وإخلاص حكامها، ويتجنبوا المشكوك فيها، فنزل الرفيقان على رأى القائد، وقد أثنى (حنين) على رجاحته.

ثم كان العرس الرائع، ورغم أنه لم يكن بذلك البذخ والترف، حيث كان بسيطًا، يكسوه الطابع الريفى الجميل فجاء بذخه فى بهجته والسعادة العامرة التى ملأت صدر كل من حضره، باستثناء الأميرة التى ما زالت كلمات العرَّافة تتردد على مسامعها، فما أن انتهى العرس حتى هرعت لخالد وأخبرته بالأمر وقد كان الفزع باديًا عليها بشدة فحاول خالد تهدئتها مؤكدًا لها أن "المنجمون كاذبون حتى وإن صدقوا" وإنما هى أقدار بيد خالقها.

بعدها تحضر موكب الأميرة لرحلة العودة فقامت بتوديع العروس التى أهدتها تمثالًا رائعًا من المرمر الأبيض لفتاتين فاتنتين تحتضن كلٌ منهما الأخرى، يقترب طولهما وتشبهان لحد كبير الأميرة وصديقتها (سمية) التى أخبرتها أنها بدأت فى صنعه منذ عامين، وحقيقةً كان التمثال رائق الجمال، متقن الصنعة ينبئ عن مهارة وحرفية ومدى حسن ذوق صانعته، سرَّت به (ليلى) كثيرًا وأمرت به فوضع على عربة تجرها الخيول، ثم انطلق العاشقان يتطلعان لفرصة مواتية ليختليان بحبهما مجددًا.

قرر (خالد) عدم الحياد عن نهر (تاجة) هذه المرة حتى يصل الركب طليطلة. بدا قراره صائبًا وكانت الأمور تسير بخير، لكن ما أن مر الموكب بجنائن الآراك حتى وجدوا أنها قد احترقت عن بكرة أبيها، وتوشحت بالسواد والدخان، فانقبض صدر (ليلى) بشدة وفزعت خاصة عندما رأت أيضًا (بحيرة النوارس) وقد نفقت كل طيورها، فتكدر ماؤها حتى انبعثت منه رائحة نتنة لا تقوى الأنوف على تحملها،

لتتذكر الأميرة كلمات العرافة، فاستدعت (خالد) وطلبت منه التفكير مجددًا فى نبوءة العرَّافة، فكل ما يرونه الآن ما هى إلا إشارات واضحة ونذر شؤمٍ، تنبئ بشرٍ عظيمٍ قادم، لكن (خالد) حاول طمئنتها مجددًا فلم يكن ليخون الأمانة التى أودعها معه أبوها.

مضى الموكب فى طريقه، ثم اقترب (خالد) من (حنين) وسأله عن رأيه بالتنجيم ونبوءات العرافين، فقال (حنين):

-التنجيم يا سيدى عمل قديم قدم الزمان، بدءًا من سحرة بابل وما وصل إليه السحر والتنجيم فى زمانهم، مرورًا بسحرة فرعون، انتهاءً بكاهنة أوراس فى العهد القريب حيث بلغ شأنها مبلغه حتى سادت غرب أفريقيا كلها وملكتها وكانت أعلم أهل زمانها بالكهانة، حتى صار الروم يخشونها ويعملون لها ألف حساب خاصة بعدما أنزلت بـ (حسان بن النعمان الغسانى) مولى (عبدالملك بن مروان) على أفريقية، هزيمة نكراء عند نهر البلاء وقتلت من العرب خلقًا عظيمًا، وأسرت العديد من أصحاب (حسان) منهم (خالد بن يزيد العبسى). فأتت به وقدمت له (بسيسة) وهى عبارة دقيق الشعير مع ابنين لها وبعدما أكلوا منها، قالت لهم: لقد صرتم الآن إخوة وكان ذلك عند البربر من أعظم العهد، لكن (خالد بن يزيد) كاتب (حسان) سرًا، وأوضع رسالته فى خبزة أنضجها ليظن من رأى الخبزة أنها زاد الرسول، فلم يغب عن الأنظار حتى خرجت الكاهنة ناشرة شعرها تقول: يا معشر بنيّ هلاككم فيما يأكل الناس وكررت ذلك ثلاث مرات، فلما فتح (حسان) الرسالة وجد (خالد) يخبره بكل أخبار جيش الكاهنة ويحثه على الإسراع بالخروج.

ولما علمت أن (حسان) يقيم بقصوره لا يبرحها، قالت للروم والبربر إنما يطلب حسان من افريقية المدائن والذهب والفضة والشجر ونحن نريد منها المراعى

والمزارع فما أرى لكم إلا خراب إفريقية، فوجهت البربر لقطع الأشجار وهدم الحصون فأخربت أفريقية من طرابلس إلى طنجة، فأمر (عبدالملك بن مروان) حسان بالإسراع بالخروج قبل خراب أفريقية كلها، فخرجت الكاهنة على قومها ناشرة شعرها تقول:

-يا بنى انظروا ماذا ترون. قالوا:

-نرى شيئًا من سحاب أحمر. فقالت:

- بلى وإلهى ما هو إلا رهج خيل العرب وقد أقبلت إليكم. فلما كان الليل؛ قالت لابنيها:

-إنى مقتولة وإن رأسى تركض به الدواب وتمضى به إلى المشرق من حيث تطلع الشمس وأراه موضوعًا بين يدى ملك العرب. فقال لها خالد وولداها:

-إذا كان الأمر هكذا، فارحلى وخلِّى البلاد. فقالت لهم:

-كيف أفر وأنا ملكة والملوك لا تفر من الموت، فكيف أقلد قومى عارًا إلى آخر الدهر. فقال لها خالد "فماذا نحن صانعون؟" فقالت:

-أما أنت يا خالد فستنال ملكًا عظيمًا عند الملك الأعظم، وأما أولادى فسيدركون بأفريقية ملكًا عظيمًا مع هذا الملك الذى يقتلنى. ثم قالت لخالد:

"إنما كنت قد تبنيتك لمثل هذا اليوم، أما أنا فمقتولة ولكن أوصيك بأخويك هذين خيرًا، فانطلق بهما إلى العرب فخذ لهما أمانًا" فلما التقوا (حسان) أخبره خالد بما قالت الكاهنة، فأخذهما وأكرمهما، ثم التقى بالكاهنة وهزمها وقتلها، ثم إختتم (حنين) حديثه قائلًا:

"ألا ترى يا سيدى؛ فبرغم علمها هذا كله، قدرالله نافذ لا محالة"

كان صدر الحبيبين قد تعكر كثيرًا مما رأوه، ثم وصلوا إلى منطقة جبلية يمر النهر من بين منحدراتها الوعرة فيتساقط فى شلالات شاهقة تجعل عبورها مستحيلًا لذا يتحتم على الركب الاستدارة حولها، وهذا سيستغرق عدة أيامٍ، لكن (حنين) أخبرهم بوجود ممرات ضيقة بين المنحدرات يمكنهم العبور من خلالها، حيث كان قد اجتازها سابقًا فى نفرٍ من أصدقائه فى أقل من نصف يوم، لذا يمكنهم أن يعسكروا الليلة هنا ويستأنفوا رحلتهم بالصباح حتى يجتازوها قبل حلول الظلام، كما طمأنهم بأنه لا يقطن هذه الجبال سوى بعض رعاة الغنم وهؤلاء لا خوف منهم، فأثنى (خالد) على رأيه.

نصبت الخيام، وباتوا ليلتهم فى الخلاء، لكن سرعان ما استيقظ الجميع فزعًا على صراخ شديد من (حنين) فوجدوه يتصبب عرقًا غزيرًا وقد شحب لونه، حيث لدغته إحدى العقارب السوداء القاتلة، فهرعت الأميرة (ليلى) إليه وقامت بتطبيبه حيث أعطته شرابًا أعدته من نبات (الفوليون) فسكن عنه الألم. لتبحث بعدها عن (خالد) فلم تجده، ليخبرها (على) بمغادرته المعسكر سرًا.

ومع بزوغ الفجر، كان (حنين) ما زال لم يتعافى كليةً مما ألمَّ به، فحُمل على إحدى العربات واندفع الركب يغوص بعيدًا فى غياهب الجبال حتى توارى عن الأعين.

****

"عندما تتزاحم الكلمات فى رأسى

ويتلهف قلمى للكتابة؛

أدرك حينها أننى قد وقعت فى حب إحداهن"

تعددت لقاءاتنا بعد ذلك؛ فكنا نجوب معًا شوارع وطرقات المدينة العريقة، فالإسكندرية من قلائل المدن القادرة على إسعادك وتحمل تقلبات مزاجك.

كنت أشعر معها بالاكتفاء المطلق والتشبع الأبدى. فلقد علمنى قربها زهد الحياة. ويكفينى من الدنيا كلها؛ هى وفقط.

تلك التى تمتلك جاذبية عجيبة تجعلها فاتنة بصورة لا تُعقل أو تقاوم، فكلما حاولت تأمل عينيها التى لا أدرى لعمقهما مدى، ولا من سحرهما براء؛ أتوه بداخلهما، ويذوب قلبى كقطعة ثلج تتحدى وجه الشمس، فأتلاشى وكأنى دخان يسبح فى الهواء.

وقد زرنا معًا أغلب معالم المدينة سواء التاريخية منها أو المعاصرة.

فكنت أشعر كأنى أراها لأول مرة رغم العشرة الطويلة بيننا، لكن معها كان كل شيء مختلفًا وذا طابع خاص، ألا وهو طابع السعادة التى كانت تطلى كل شيء نمر عليه، فصارت الشوارع راقية، والألوان زاهية مبهجة، والأجواء نقية مرحة، حتى برودة الشتاء صارت ربيعًا يداعب حواسى المنتشية بحبى لها، وإن كنت ما زلت لا أدرى طبيعة مشاعرها تجاهى.

لكنها صارت تحكى لى عن حياتها الخاصة، فقد كانت تعيش بدولة الإمارات العربية المتحدة مع والديها، درست خلالها الأدب والتاريخ المعاصر بإحدى الجامعات الأجنبية، كما تلقت دروسًا فى الموسيقا، واحترفت العزف على البيانو فترة من حياتها.

كانت الابتسامة ترتسم على شفاهها وهى تحكى عن طفولتها، لكن فجأة خيَّم الحزن على وجهها فتلاشت ابتسامتها وخلَّفت مكانها أشباح دموع بدأت تتساقط كحبات الندى من سماء عينيها.

فأخبرتنى أنها كانت تحيا أفضل لحظات عمرها فى كنف والديها قبل أن يمروا بحادث أليم، توفى والديها على إثره، بينما نجت هى لتكتشف الوجه الآخر السيئ للحياة بعدهما.

وقد اعتنى بها صديق والدها وأسرته حتى تعافت قليلًا من مآسيها الأليمة، وبدأت تعود إلى الحياة شيئًا فشيئًا، لكن القدر كان يبدو وكأنه لم يُظهر كامل قسوته لها. ليتوفى صديق والدها جراء مرض خبيث أصابه، وقررت أسرته العودة إلى مصر، فعادت معهم لتقيم عند جدتها. ثم التقت بابن صديق والدها الذى كان يدرس هنا بالجامعة فنشأت بينهما صداقة كبيرة جعلتها تتجاوز كثيرًا من الصعاب التى مرت بها، وقد كان هو مَن شجَّعها على دراسة الماجستير بالجامعة حيث تعرفت على الكثير من الأصدقاء، لذا فهى تدين له ولأسرته بالكثير.

حاولت جاهدًا التخفيف عنها فى ذلك اليوم، لكن جراحها كانت غائرة وألمها كان عميقًا جدًّا، فكيف للحياة أن تقسو على هذا الوجه الملائكى، وأنَّى للقدر القدرة على إبكاء هاتين العينين الجميلتين.

****

كان هناك سؤال عالقًا فى صدرى يفتش عن إجابة: كيف لامرأة مثلها أن تتعلق برجل مثلى؟! بل كيف لكيان شامخ عريق مثلها أن يصادق خواء مهجور مثلى؛ يتداعى سقوطه بين الفينة والأخرى؟!

لذا كنت أشرد كثيرًا وأنا معها، إلى أن سألتنى ذات مرة قائلة:

"حدثنى عن نفسك؛ مَن أنتَ؟" فارتبكت، لا أدرى بما أرد عليها، فكيف أقول لها أنى مجذوب بحبها عاشق لدروب عينيها. رحالة ضال يجوب العالم بحثًا عن قدر طائش يهديه إليها. ويفتش عن وعد أبدى يربطه بها، أو وهم سراب يتركه قريبًا منها. وهى القريبة منى لكن بينى وبينها حائل محال تجاوزه أو تجاهله.

فيا أيتها المرأة الشهية البهية، المتفردة فى حياءها وبهائها وقدرها؛ رفقا بقدرى الشارد الواهن، ويبدو أنها قد شعرت بارتباكى من سؤالها، فاستبدلته بآخر أكثر إرباكًا منه. قائلة لى هذه المرة

ما الذى تريده منى؟""

هنا توقف قلبى وعقلى وقلت فى نفسى:

"ماذا أريد منها؟! أنا أريدها كلها، لا ينقص منها شيء" ثم استجمعت ما بى من قوة وقلت لها:

"يا سيدتى، أنا وإن كنت ما زلت لم أستوعب بعد ما يحدث لى، ربما لأن كل شيء يحدث ويتغير بسرعة تفوق قدرتى على استيعابه والتعايش معه، إلا أنى ومنذ أن تعثر قدرى بقدرك، منذ أن التقت عيناى عينيكِ، وصادفتك فى أحلامى وأنا لا رغبة لى بالحياة سوى أن أظل بقربك، أن ترتوى روحى بالنظر إليك، أن يستكين هذا القلب المرهق فى حضرتك، وما أن تغادرى مجال رؤيتى؛ حتى أشعر وكأن جبل قد ألقى به

فوق صدرى؛ فصار كل ما بى يحتضر فى غيابك ثم ما يلبث أن تدب به الحياة ما أن تلمح عيناى طيفك من بعيد، فأتحول لطفل يشهق شهقة الحياة الأولى، وتتنهد بلهفة تلك المضغة القابعة خلف جدران صدرى، كما ترتجف أوصالى وكأن تيار الروح يسرى بها لأول مرة، فتتذوق طعم الحياة الأول، ثم تأملتها، فوجدت وجنتيها تشعان بريقًا وحسنًا وقد صارتا ورديتان كقلب الرمان، كما تلمع عيناها كسنا الزيت الصافى فى المشكاة، ثم ارتسمت تلك البسمة الرقيقة على ثغرها فبدت وكأن القدر هو من يبتسم فسبحان من صور جمالها فأبدعه بهذا الانسجام والتناغم والتناسق الفريد، وسبحان من أحكم هيئتها وتفنن فى رسم قسماتها لتفوق أفروديت الغرب فتنة و كليوباترا الشرق تألقًا وبريقًا بل وتفوق الحور العين حسنًا وبهاءً. فمثلها محال أن ينتهى لهذا العالم بأى حال من الأحوال".

ثم قالت لى بعد طول صمت:

"أتدرى؛ رغم كل ما بيننا من اختلاف شاسع وتناقض كبير فى الشخصية والطباع وأعتقد فى طريقة تفكيرنا أيضا؛ إلا أننى لا أستطيع منع نفسى وقلبى من التفكير بك ومجاراتك؛ فهناك شيء ما غامض يشدنى إليك، بل يدفعنى دفعًا نحوك، وما زلت حتى اللحظة؛ لا أدرى ما هو، إضافة إلى شعور آخر بداخلى يخبرنى بأنك جدير بالمجازفة تستحق أن أغامر معك وأخوض عبابك بلا خوف، أن أراهن عليك وأقامر بقلبى على طاولتك بلا حذر، ولا أخفى عليك أنى قد بدأت بالفعل أتعلق بك وأعتادك، ولن أبالغ إن قلت إنى صرت أفتقدك كثيرًا بل وأشتاقك أيضًا؛ فهناك شعورٌ مُلحٌ بالنقصان والحاجة إليك ينتابنى فى غيابك، وما يلبث أن يتلاشى بقربك. عواطف وأحاسيس متضاربة، فوضوية تجتاحنى ما أن أفكر بك. ارتياح متذبذب، سعادة متحفظة، خوف متردد وقلق مريك؛ لكنى أغض طرفى عن كل

ذلك ما أن تحتضن عيناى عينيكَ، صرت أتجاهل أى شعور قد يشوب سعادتى بلقياك، وأطلق العنان لكل عاطفة بداخلى نحوك، أضع زمام قلبى على غاربه منتشية بحضورك، كمخمورة تلاعب حبك بعقلها وقلبها وكل ما جمعته قبلك من قناعات ومسلمات، فأنت اليوم إيمانى اليقين وقِبلتى الحقيقية، إليك أدفع صلواتى وابتهالاتى علَّك لا توجعنى يومًا، فتسلبنى إيمانى بك، أو تخذل تسليمى لك واستسلامى بين يديك".

وما أن أنهت كلامها؛ حتى شعرت وكأنها كانت تضع مع كل كلمة من كلماتها ثقل فوق صدرى، لذا عاهدتها على الوفاء التام والإخلاص المطلق، فمن يقوى على خذلانك سيدتى؟! فمثلك إن خُذِلت يومًا، فلا مجال لصفح أو عفو أو غفران، ولكن القدر كموج البحر غدار بطبيعته، والدهر كجلد الحرباء دائم التقلب. لذا يتحتم علىَّ التشبث بها والحرص عليها بكل قواى، والسبيل الأمثل لذلك، هو أن أكون لها كصفحة بيضاء تخطها هى كما تشاء؛ فقررت أن أبوح لها بكل شيء، طبيعتى وشخصيتى. عقليتى وعلاقاتى، محاسنى ومساوئى، فدهشت من عدم انزعاجها وأنا أقص عليها جانبى السيئ، بل كانت تستمع بإنصات جَمٍ دون أن تبدى أى ردة فعل، ثم تقبلتنى بكل ما بى من سوءٍ، تقبلتنى كما أنا.

حقًّا لقد كانت لديها قدرة عظيمة على احتوائى، وترويض كبريائى وغرورى لدرجة جعلتنى أشعر كأنى طفل صغير بين يديها؛ أتقبل تعقيباتها وأستجيب لنصائحها دون جدال، فأى امرأة هذه؟

صرنا نتقابل بصورة شبه يومية، فما أن أفرغ من محاضراتى حتى أهرع إليها لأرتمى فى أحضانها وأنهل من ينابيع قلبها العذبة، لأروى ظمأ قلبى الذى يبدو وكأنه لن يمرؤ أبدًا.

ثم بدأ كل شيء بى يتغير تدريجيًا. حتى إنى قد تغيرت جذريًا. وتغيرت معى كل عاداتى السيئة واهتماماتى السابقة بل ونظرتى للحياة ككل.

صرت مثلها مولع بتاريخ وماضى الأشياء، تشغلنى قضايا الوطن وجراحه، أتابع ما يجرى حولى بشغف كبير، حتى امتلكت رغبة كبيرة فى الاضطلاع والمعرفة.

فاكتشفت أنى قد عشت عمرى قبلها؛ مغيبًا عن كل شيء، تافهًا، وسطحيًا لدرجة صرت أشمئز منها.

لكن اليوم صارت هموم الناس تعنينى أكثر، وصار يزعجنى ما يزعجهم ويؤلمنى ما يؤلمهم.

وكنا إذا التقينا؛ نتناقش فى أحوال الأمة ومستجدات الحاضر، ثم نفتح نافذة نطل منها على الماضى القريب والبعيد؛ ليلهم واقعنا المحتضر ونستشف منه مستقبلنا المجهول.

وكانت هى تمتلك من العلم والمعرفة ما يجعلنى أتعجب كيف لعقلها الشاب؛ الإحاطة بكل هذه الأمور.

فسألتها عن اهتماماتها الأخرى، لتجيبنى بأنها تهوى القراءة حد الشغف، وأنها قد قرأت الكثير من الأدب الروسى والإنجليزى واللاتينى، كما أنها مولعة بتاريخ وحضارات الأمم المختلفة وهو ما جعلها تقرر دراسة التاريخ بالجامعة، كما أخبرتنى أنها أيضًا مغرمة كثيراً بالشعر والكتابة. فقلت لها:

"ألا تحبين ممارسة أى نوع من الرياضة أو هواية أخرى بعيدًا عن الكتب، لتخبرنى أنها أحيانًا تشغل فراغها بلعب الشطرنج".

لم أصدق أذنىَّ ولم أستطع إخفاء الدهشة والبهجة فى ذات الوقت.

أخيرًا؛ قد وجدت رابطًا مشتركًا بيننا. فأصررت على تحدِّيها فى مباراة، لتوافق وهى ترسم على شفتيها تلك الإبتسامة الساحرة.

وفى اليوم التالى؛ كنت قد أحضرت الشطرنج معى وذهبنا إلى أحد مقاهى محطة الرمل ثم جلسنا نحتسى قهوتنا ونلعب الشطرنج.

فى البداية؛ عرضت علىَّ أخذ القطع البيضاء لتكون لى أفضلية اللعب، فرفضت بشدة واعتبرتها إهانة لن أقبلها. لتبدأ هى باللعب بالقطع البيضاء.

وحقًّا فاجئنى مستواها وأسلوبها فى اللعب. لقد بدت وكأنها تفوقنى مهارة وذكاء بل ورشاقة فى اللعب أيضًا حيث تتحرك قطعها فوق الرقعة كفتيات باليه تتراقص أمام الجمهور على المسرح.

كانت منظَّمة بطريقة رائعة، وحاولت مجاراتها لكنها كانت تدرى ما تفعله جيدًا منذ البداية، محكمة سيطرتها على كل ركن بالرقعة وكأنها تملكها، فكانت قطعها بل وقطعى أنا أيضًا طوع بنانها، لكن الغريب بالأمر، أنى لم أنزعج من ذلك مطلقًا.

ولأول مرة أجد مَن يفوقنى فى لعبتى المفضلة ولا أغضب بل كنت منتشيًا جدًا، مسرورًا لأن لديها كل هذه المهارة والذكاء وكأنى أنا مَن أمتلكهما.

وبالطبع انتهت المباراة بفوزها لتنظر إلىَّ وهى تبتسم فى سعادة جعلتنى أرغب فى احتضانها وتقبيلها بشدة. حقًا لقد بلغت جاذبيتها ذروتها فى ذلك اليوم. وكأنها كانت تتلذذ بتحطيم غرورى، ثم قالت:

"أما زلت ترغب فى التحدى؟" فقلت لها متعجبًا:

"من أين لك بكل هذه المهارة يا سيدتى؟!"

فأخبرتنى بأنها قد تعلمت الشطرنج فى صغرها على يد مدربين كبار عندما كانت بدولة الإمارات، كما أنها تحفظ كل خطط وأفخاخ الشطرنج عن ظهر قلب؛ حيث كانت لاعبة محترفة وشاركت بالعديد من بطولات الشطرنج الدولية، كما أن لها ترتيب عالمى متقدم باللعبة.

****

الفصل السادس

"ما أجملها تلك الصباحات التى كان يداعبنى فيها صوتكِ الناعم، كصباح زهورٍ شتويةٍ أمضى النَّدى ليلته فى مغازلتها، فامتزجت بها عطور الحب بالنشوة، لتصحو متثاقلةً تملأ الأرجاء بعبق شذاها الفوَّاح.

لكم أشتاق لتلك الصباحات عندما كنت أستيقظ على مشاكساتكِ الطفوليةِ كل يوم، حقًا أشتاقها كثيرًا، وأشتاقكِ أنتِ أكثر"

"موعدنا وادى الموت بعد خمس ليالٍ من بلوغكم كتابنا هذا"

صديقكم المخلص/ حنين.

طوى زعيم الغجر الورقة فى جيبه بعد أن ارتسمت فوق شفتيه الغليظتين ابتسامة عريضة، ثم أمر رجاله بالاستعداد للخروج، فهناك صيد سمين بانتظارهم.

لم يكن عبور الموكب بين الممرات الضيقة بالأمر السهل، خاصة مع وجود العربات الكبيرة التى تجرها الخيول مما دفعهم للاستغناء عنها مع الكثير من الهدايا التى حملوها من (شنتمرية)، لكن الأميرة التى امتطت ظهر جواد (خالد) الأبيض، حيث ترجل لها عنه وامتطى جوادًا آخر، أصرَّت على عدم التفريط فى تمثال صديقتها، ليرفعه الخدم على ظهر أحد الخيول وينطلقوا، بدت الطريق طويلة لا تنتهى، ما أن يجتازوا سلسلة جبلية أو واديًا فسيحًا حتى يبدأ آخر، إلى أن دخلوا ممرًا ضيقًا جداً تحاصره المرتفعات الشاهقة من الجانبين فتخفض كثيرًا من مقدار الرؤية به، خاصة مع قرب حلول الغروب، وقد بلغ التعب والإرهاق منهم مبلغه، هنا فجأة انطلقت أصوات عالية من بين المرتفعات المحيطة بهم، فرفع الجميع بصره ليجدوا عددًا كبيرًا من الرجال الملثمين يقفون متحفزين وقد شدوا أقواسهم ورفعوا رماحهم، ثم طلب زعيمهم من (خالد) الاستسلام وإلا اصطادوا جنده كالأرانب واحدًا تلو الآخر، وبالفعل انطلقت بعض سهامهم النافذة فأوقعت العديد من القتلى فى صفوف الجند، لتسود حالة من الفوضى والهرج بينهم، فأفلت التمثال من الخدم وسقط على الأرض الصخرية لتتهشم أجزاءه، لكن سرعان ما استعاد الجميع توازنه وتأهبوا للدفاع عن الأميرة فرفعوا دروعهم

ليمنعوا عنها وابل السهام المتساقطة، لكنهم للأسف كانوا فى موقف لا يحسدون عليه، فقد وقعوا فى شركٍ محكم ولا سبيل أمامهم للخلاص منه، هنا طلب (خالد) من زعيمهم إعطاءه فرصة للتشاور مع قواده، فقال (على) فى حزم أن الجميع على استعداد تام للموت دفاعًا عن الأميرة التى قالت هى الأخرى أنها تفضل الموت على مهانة الأسر، لكن (حنين) أشار عليهم بضرورة تحكيم العقل والاستسلام لأنه خير قرار حفاظًا على الأميرة، ففى النهاية لن تصمد دروعهم طويلًا وقد حوصروا من كل مكان، وقد أوشك هلاكهم. هنا ابتسم (خالد) ابتسامة لم يفهم أحدٌ مغزاها. ثم أمر جنده برفع دروعهم ليذودوا عن الأميرة، ثم أخرج بوقًا من طيات ملابسه وقام بالنفخ فيه مرتين، لينشق رحم الفراغ فجأة عن مجموعة من رعاة الغنم، انقضَّت على اللصوص من الخلف فأوسعتهم قتلًا حتى أهلكتهم، ثم قبضوا على زعيمهم الذى حلت به إصابات بالغة، ثم نزل به أحدهم من الأعلى، فلما اقترب تبين أنه (عبدالرحمن بن الفرج).

أمر (خالد) أسيره بالإفصاح عن أمره وإلا أجهز عليه، فأخبره أنه يدعى (باقيس) وهو زعيمٌ لإحدى قبائل الغجر وله ثأر قديم مع المأمون لقتله أخًا له مع ثلاثة من أبنائه، وقد كاتبه (حنين) لما بينهم من معرفة قديمة وثأر مشترك عند المأمون، فأخبره بأمر الرحلة، وأخبره أيضًا أن (خالد ابن الحديدى) سيكون قائدًا للرحلة وهو رجل فطن، شديد الذكاء لذا سيحتاج أن يحتال عليه أولًا، ثم ينتظر حتى يطمئن الجميع لأمره، عندها سيبعث له كتابًا يخبره بالموضع الذى سينصب فيه الفخ، ثم أخرج ورقة من جيبه وقدمها لخالد فكانت هى رسالة (حنين)، الذى فتش عنه (خالد) كثيرًا فلم يجد له أثرًا وكأن الأرض قد انشقت وابتلعته، فحُمل (باقيس) زعيم الغجر إلى طليطلة لينظر (المأمون) فى أمره بنفسه.

ثم عانق (خالد) صديقه (عبدالرحمن) وأثنى على سرعة استجابته، قبل أن يقرر قطع دهشة الجميع ويخبرهم بما كان يدور فى الخفاء وهو أنه بعد تحذير أبيه من (حنين)، اتفق مع (عبدالرحمن) أن يكون على رأس فرقة تتنكر فى زى تجارٍ وسكان محليين، تتبعهم فى الخروج من طليطلة، من طريقٍ آخر، فتطمئن على أمن وأمان الطرق التى سيمرون بها وتحذرهم من أى مكيدة قد يدبرها أحد لهم، وكان (خالد) على اتصال دائم بـ (عبدالرحمن) طيلة الرحلة؛ لذا كان يتغيب عن المعسكر سرًا لمقابلته، وعندما أشار عليهم (حنين) بعبور الجبال، ساوره الشك، فرأى أن يحتاط للأمر لذا غادر المعسكر وقابل (عبدالرحمن) وطلب منه أن يتنكروا فى زى رعاة غنم، ليتفحصوا المكان قبلهم، فأعطاه (عبدالرحمن) هذا البوق ليستدعيه به عند طلب الاستغاثة.

استأنف الركب سيره مجددًا، وبعد أن اجتازوا وادى الموت بسلام، تفرق عنهم (عبدالرحمن) ليكون طليعتهم، ويؤمن لهم الطريق مجددًا، لكن كان الغم والحزن قد امتلك (ليلى) خاصة بعد تحطم تمثال صديقتها التى أفنت عامين من عمرها كى تهديها إياه، فها هى تفقد أشيائها العزيزة واحدًا تلو الأخر وبرغم ذلك يُصر (خالد) على موقفه ويطمئنها بأنه لن يسمح لأحد بأن يصيبها بمكروه وهو حى يرزق، وأخيرًا وصل الركب حدود طليطلة الغربية، فدخلوا من باب قنطرة السيف، القائمة فوق نهر تاجه، وقد كانت أضخم قنطرة بالأندلس آنذاك، والأضخم فى العالم بعد قنطرة (صور)، حيث بلغ طولها خمسين باعًا، وكانت مبنية من الحجارة المشددة بجذوع من الحديد مذاب عليها الرصاص، وكانت على هيئة قوس واحد تكتنفه فرجتان من كل جانب وفى نهايتها (ناعورة) يرتفع ماؤها فى السماء تسعون ذراعًا، ثم مروا على قصر (عمروس) حاكم طليطلة فى عصر الإمارة

الأموية، ليصلوا بعدها قصر الناعورة، ليجدوا الجميع فى انتظارهم فى لهفة وشوق عارم، فأثنى (المأمون) على صنيع (خالد) وأمر له بمكافأة عظيمة. ثم أمر بجز عنق (باقيس) ووعد بمكافأة كبيرة لمن يأتى إليه بـ (حنين) حيًا أو ميِّتًا.

ما أن اختلى (خالد) بنفسه حتى أخذ يفكر فى الطريقة التى سيتقدم بها إلى (المأمون) لطلب يد ابنته الزهراء. وكيف سيكون رد فعله على هذا الطلب الجريء.

وبينما هو فى حيرته تلك إذ استدعاه (المأمون) للمثول أمامه بقصر الناعورة، فأخذت تتلاعب الظنون برأسه، أعلم المأمون بما حدث بينه وبين ابنته؟، فللمأمون الكثير من العيون، ربما وشى به أحدهم، أو ربما تكون (ليلى) هى من أخبرته بالأمر.

قطع (خالد) الطريق على مخاوفه وظنونه بالذهاب إلى القصر، وهناك وجد (المأمون) فى مجلسه المكرم، وكان مجلسًا عظيمًا، فى أعلى جداره إزار من المرمر الأبيض الرفيع، على دائر المجلس، وعلى صفحاته العاج، ومنقوش على مرمره؛ صور لحيوانات وطيور وأشجار ذات ثمار، متلاصقة وفى غاية الدقة وفوق هذه النقوش؛ زجاج ملون ومطعم بالذهب الإبريز، وبه أشكال حيوانات وطيور وصور أنعام وأشجار، وأرض هذا الزجاج من أوراق الذهب الإبريز مصورة بتصاوير من الحيوانات والأشجار بإتقان محكم وإبداع فريد، ويفصل بين البروازين نقشٍ عريض دائر بالمجلس مكتوب عليه أشعار تمدح المأمون.

قام (المأمون) بشكر (خالد) مجددًا وأثنى على صنيعه وشجاعته فى الحفاظ على سلامة ابنته. وقربه منه فى مجلسه الذى كان يضم بالإضافة إلى وزرائه (ابن الحديدى) و(ابن الفرج) و(ابن محقور) و(ابن لبون)؛ العديد من القضاة والعلماء والأدباء كالقاضى (صاعد التغلبى)، قاضى طليطلة وصاحب كتاب (طبقات الأمم)

وكان من أشهر مؤرخى العلوم بالأندلس بالإضافة للمؤرخ الكبير (ابن حيان) والذى أهدى المأمون كتابه التاريخى (المتين)، كما كان بالمجلس الواعظ ابن العسال والذى لم يكن قد تولى قضاء طلبيرة بعد، و(سعيد بن لب الرعينى) المعروف بالقرىّ و(ابن شق الليل)، وصاحب الموشحات (محمد بن أرفع رأسه) وصاحب المقامات (أبو عبدالله محمد بن شرف) والأديب (إبراهيم بن وزمر الصنهاجى) الذى قام وأهدى المأمون النسخة الأولى من كتابه (مغناطيس الأفكار فيما تحتوى عليه مدينة الفرج من النظم والنثر والأخبار) والذى صُنِّفَ للمأمون.

كما قام ابن صاحب الاسفيريا (أبو المطرف عبدالرحمن بن فتوح) وكان أديبًا مشهورًا بإهدائه كتابه (الإغراب فى رقائق الآداب)، كما أهداه (سعيد بن عيسى الأصفر) كتابه (تاريخ تلمسان)، بالأضافة إلى عالم الفلك الشهير (على بن خلف) والذى أهدى المأمون هو الآخر؛ اسطرلابًا مكون من شبكة من الإحداثيات رُكِّبَ عليها عنكبوت دوَّار لرؤية الأقمار والنجوم؛ فأثنى عليهم المأمون جميعًا، وأجزل لهم العطاء.

وبعد أن انفضَّ المجلس، اختلى (المأمون) بخالد فى حضرة والده (يحيى بن الحديدى)، الذى خاطبه قائلًا:

"إن ولدك يا أبا بكرٍ يثبت كل يومٍ ولاءه التام لنا مثلك، فهذا الشبل من ذاك الأسد، وتقديرًا لصنيعه فقد أوكلت إليه قيادة الجيش الخارج إلى (بلنسية) مع الكاتب (أبو المطرف بن مثنى) لدعم (عبدالملك بن المنصور) لإحكام سيطرته على المدينة فهناك الكثير من الفوضى بعد وفاة أبيه (المنصور بن أبى عامر)".

سُرَّ (خالد) بتلك المهمة كثيرًا، ووجدها فرصة عظيمة للظفر أكثر وأكثر بثقة المأمون وإثبات جدارته بمصاهرته.

لكن فى هذه الأثناء وقع نزاع كبير بين أبناء (فرناندو الأول) على حكم قشتالة، فرَّ على إثرها (ألفونسو) إلى طليطلة واستجار بالمأمون من أخيه شانجة، فوافق المأمون على استضافته رغم تحذيرات وزيريه (ابن الحديدى) و(ابن الفرج)، لما للفرنج من سابقات غدر، وغاراتٍ على بلاد المسلمين والتى لم تهدأ إلا بوفاة والده (فرناندو الأول)، ومنها ما حدث عندما أراد المأمون أن يضم بعض المدن والحصون إلى ملكه، فطلب من ملكهم (شنشكند) مساعدته فى الاستيلاء عليها، وطلب لقاءه بشرط أن يقدم (شنشكند) ومعه مائة فارس فقط فى موضع حدده (المأمون)، ورغم تحذيرات (ابن الحديدى) له من غدر الفرنج، إلا أن المأمون تجاهلها، فحضر ومعه مائتى فارس فقط؛ تنفيذا للوعد المبرم بينهما، لكن (شنشكند) خدعه، فأتى على رأس ستة آلاف فارس، اختبئوا خلف جبل بالقرب من مكان الاجتماع، وأمرهم بعدم الظهور إلا بعد انتهائه، فما أن رأى (المأمون) هذا الجيش الكبير، حتى خضع لشروط (شنشكند) التى فرضها عليه ومنها حصوله على حصون تخيَّرها ومبلغ مالى كل سنة،وعاد (المأمون) إلى طليطلة خائبًا خاسرًا.

نزل (ألفونسو بن فرناندو) فى إحدى دور الضيافة المُطلَّة على نهر تاجه، وبالفعل صدق حدس (ابن الحديدى)، فقد أخذ فى فترة وجوده بطليطلة يُفتِّش عن أماكن الخلل ومواضع الضعف بالمدينة ليستطيع الإغارة عليها فيما بعد.

بدأ (خالد) يستعد للرحيل إلى (بلنسية)، إلى أن قدمت إليه (سيليا) مربية الأميرة تخبره برغبتها فى لقائه بدار العلم وسط المدينة قبل رحيله، توجه (خالد) إلى هناك، والتقاها لتأجج نيران الحب بداخلهما.

نظرت إليه الأميرة (ليلى) بعينين دامعتين وطلبت منه عدم الذهاب إلى (بلنسية) حيث تشعر بضيقٍ فى صدرها من ذهابه وتخشى أن يصيبه مكروه يفجعها

فيه، فقد رأت بالأمس فى منامها ما نفَّرها من ذهابه، لكن (خالد) طمأنها وأخبرها أنها فرصة يجب عليه انتهازها، حتى تعلو منزلته وقدره لدى أبيها، وتمكنه من الوقوف أمامه وطلب يدها للزواج ما أن يعود من هناك ظافرًا بإذن الله.

ورغم توسلات الأميرة الحسناء إلا أن (خالد) كان قد عزم أمره، فودعها وانطلق.

وكان (المأمون) قد استدعى فرقة (خالد) الخاصة من مدينة سالم، بعدما استتب الأمر هناك بوفاة حاكم قشتالة فرناندو وانشغال شانجه بصراعه مع أخته وأخيه (أذفونش) المقيم بطليطلة، فرأسها (خالد) وسار مع الكاتب (ابن مثنى) مرتدين زى الحرب الكامل بأقنعتهم ودروعهم وأسحتهم، ورياتهم السوداء تشق عنان السماء.

اصطف العامة على جوانب الطرقات لتوديع جيش المدينة، وينثرون باقات الرياحين والياسمين على الجند كعادتهم، وانتظم الجيش أمام قصر (المأمون)، فتقدم القائدين (خالد) و (ابن مثنى) ليعطيهم (المأمون) الإذن بالرحيل، وكانت الأميرة تطل من شرفة القصر الواسعة، فانتبه لها (خالد)، وما أن التقت عينا الحبيبين، حتى بدأ حديث العيون يبعث فى روحيهما الأمل والرجاء فى مباركة القدر لحبهما الطاهر، كان الشحوب والقلق باديين على وجه الأميرة، وكأنها لم تنم ليلتها الماضية، ثم لم تتمالك دموعها التى انسابت على وجنتيها توديعًا لحبيبها.

توجه الجيش ناحية الشرق، فوطأوا أراضى بلنسية بعد ستة عشر يومًا، وكانت مدينة سهلية، عامرة، خصبة، كثيرة التجارات، بها العديد من الأسواق والحطِّ والإقلاع، بينها وبين بحر الروم ثلاثة أميال، يشقها نهر (جبريل) بجداوله العذبة الرقراقة، فشُيِّدت العمارات و البساتين والجنات والمزارع على ضفافه،

وتجوب مياهه العديد من السفن، أما سورها العظيم فقد بُنى بالحجر والطوابى ولها أربعة أبواب، وكان أهلها حسن الزى، كرماء الطباع، طيبى النفوس يميلون إلى الراحات، وكانت أسواقها رخيصة الأسعار، عامرة بالفواكه والثمار، جامعة لخيرات البر والبحر.

استقبلهم (عبدالملك بن أبى عامر) والوزير (ابن عبدالعزيز) بحفاوة كبيرة وكان لمشهد دخولهم المدينة بالغ الأثر فى نفوس العامة، حيث استتبت الأمور سريعًا لعبدالملك بعد قيام (خالد) بضبط الأمن، وتوزيع جنده على كل مداخل المدينة ومخارجها، والقضاء على كل حركات الفوضى والمقاومة بها، بالقبض على المتمردين والخوارج ومثيرى الشغب، مما أمكنه من إحكام قبضته على المدينة، وساعده فى ذلك الوزير المحنك (ابن عبدالعزيز) فقد كان داهية بكل ما تحمله الكلمة من معانٍ.

لكن ما أن استقرت الأمور لعبد الملك، حتى تلقب بالمظفر ثم عاد مجددًا لخلاعته ومجونه، فلم يكن ممن يهتمون بأمور رعيَّتهم، أو لشئون لدولتهم، بل كان فاسقًا، عربيدًا، لا يفارق أحضان الجوارى والنساء.

بينما كانت أمور الدولة كلها فى يد الوزير (ابن عبدالعزيز) المعروف بـ (ابن رويش)، الذى توطدت صداقته بخالد كثيرًا، لما رآه من قوة شخصيته وحسن أخلاقه وبراعته فى تصريف الأمور، وأثنى كثيرًا على دوره فى حفظ الأمن والاستقرار بالمدينة، مما شجع (خالد) على إخباره بشعوره بالندم لمساعدته (عبدالملك) بعدما رأى من خلقه وفساده، إلا أن الوزير وعده بأن يظل بجانب (عبدالملك) حتى يكف عن خلاعته ويعدل عن سلوكه الطائش، ثم طلب منه زيارته متى استطاع ذلك، وألا يتردد باللجوء إليه متى احتاج أمراً.

أخبريهم

أنَّكِ فوق التوقع، فوق التمنى، وفوق النوال

كونى الأنثى الشهيَّة، المتمردة، والعصية

تخطِّى حدود الممكن والجائزوالمحتمل

وكونى بعينىَّ دومًا قدرًا مستحيلًا

كونى المختلفة، الفريدة، والإستثنائية

فيكفيكِ تفردًا أن يحبكِ عاشق مثلى

مزقى الذكرى والعهد القديم

وأعيدى صياغة واقعى وتاريخى

ثم إرتدى ثوب الكبرياء الأزرق؛

وإغزلى عقدك من حبَّات الغرور

صادقى الأحلام والأمنيات المحرَّمة

وبين النجمات إتخذى مقعدكِ

جرِّدينى من عهرى وطيشى وغرورى

اقتحمى أبواب مدينتي،

حطمى أسوار حديقتى،

واستبيحى كل محرماتى

اقتلى ذلك الشَّيطان اللعين بداخلى

ودعينى أغسل أخطائى بزمزم شفتيكِ

أتطهر من أقدارى فى براءة عينيكِ

ثم أجثو بين قدميكِ وأعلن توبتى على الملأ

عندما تبتسم لك الحياة يومًا، إياك والاعتقاد بأن أقدراكَ ستتجنبكَ، بل أنت فى معيتها دائمًا وصوب أعينها الشاخصة نحوك تتحين الفرص للانقضاض عليك ما أن تغفل عنها.

أذكر أن ساقتنا أقدامنا يومًا إلى حديقة المنتزه وأخذنا نجوب ذلك البستان الرائع الذى يملؤك بهجة وسعادة ما أن تطأه أقدامك خاصة عندما تكون تلك الوردة الحسناء بجانبك، بعدها انتقينا مقعدًا عشوائيًا جلسنا عليه وكنت قد قررت فى ذلك اليوم أن أبوح لها بكل ما يدور بقلبى وما أضمره من عشق لها وهيام بها، لكن يبدو أن عينىَّ قد اتخذت قرارها مسبقًا فراحت تفشى وتبوح لها بكل شيء، ففطِنَتْ بسرعة لما أنا مقدم عليه وما يختلج بصدرى، حيث كانت عيناها هى الأخرى تستمع بإنصات يقطعها لحظات خجل تتورد فيها وجنتيها وتلمع عيناها وتتلألأ كسراج يتوهج نوره فتبتعد وتتوارى حياءً بين الحين والآخر.

بدأت تتملكنى سعادة العالم أجمع وتتسرب داخل أحشائى شيئًا فشيئًا، سعادة كانت تفوق قدرتى على احتمالها أو استيعابها، فظللت أحدق بها طويلًا، متأمِّلًا عينيها اللامعتين فى بريق الشمس كأنهما لؤلؤتين نائمتين فى محجريهما، حتى إنى لم أشعر بيدىَّ وهما يتسللان خلسة يداعبان أصابع يديها الغضتين، التى انتفضتا فجأة فى بادئ الأمر ثم ما لبثتا أن استكانتا واستسلمتا لمداعباتى الرقيقة.

كانت هذه هى المرة الأولى التى تحتضن فيها يداى يديها، كانتا رقيقتين ودافئين كأنهما قد استحوذتا على دفء نساء الأرض، فسبحان من صاغ حسنهن وأودع الدفء بأجسادهن، كنت أتحسس تضاريس يديها الملساء كأنى رحالة أستكشف

عالمًا جديدًا لم يبلغه أحد من قبل، وكانت عيناها تزدادان لمعانًا وتوهجًا مع حركات أصابعى، وتكتسى وجنتاها خجلًا وحمرة حتى صارتا كأشهى قطعتى فريز.

كان الصمت يُسدل شراشفه على الأجواء، لا يقطعه سوى عدة زفرات حارة وتنهيدات عميقة تندفع منَّا بين الحين والآخر كأنها تأتى من أعمق نقطة بأرواحنا، وبدا لى أن كل شيء مهيأ الآن ليكون لحظة الاعتراف الأولى، ونقطة التحول الفارقة فى تاريخ علاقتى بها، والهروب من زقاق الصداقة الضيق إلى براح الحب الواسع. من الجوار والتبعية إلى المقدمة والقيادة. توديع الشاطئ الهادئ حيث الأمان والسكينة وركوب أهوال البحر الغامض حيث الموج الهائج والرياح المتمردة كى أغامر نحو القدر المجهول.

لكنها فجأة وبلا مقدمات انتزعت يديها ووثبت واقفة، ثم تركتنى وركضت بعيدًا إلى الجهة المقابلة ثم توقفت أمام شبح يجلس على أحد المقاعد، لم أتبينه جيدًا من بعيد لكنه ولسبب لا أعلمه بدا مألوفًا لى.

صافَحَتْه بحميمية جعلت براكين الغيظ تتفجر بعروقى، وكأنها قد ابتلعت معها ما كان بيننا منذ لحظات من حرارة ثم أودعته إياها، شعرت وكأن جبال العالم كلها تسقط فوق رأسى، بينما انقبض قلبى بشدة وغُصَّت أنفاسى حتى كدت أختنق.

ولا أدرى لما شعرت بغيرة شديدة أخذت نارها تكوى وتحرق فى جسدى حتى ظننتها لن تتوقف حتى أهلك، فتساءلت فى نفسى:

مَن عساه يكون هذا المتطفل الذى أفسد على سعادتى؟!

كان يبدو بينهما من الحميمية البالغة ما جعلها تتناسى من كان بيننا من فيضانات حب وسيول مشاعر منذ قليل، تجاوزَتْها فى لمح البصر حتى إنها لم تشعر

بنفسها وهى تنتزع يديها بعنف جعل يداى تهويان فجأة وتلطمان بسطة المقعد الجالس عليه لتستفيقا من سباتهما العميق، وأحلامهما الوردية.

بعد لحظات قليلة مرَّت كأنها الدهر، أقبلت به نحوى، وزادت دهشتى أكثر حينما تبينته لأجده غريمى السابق على رقعة الشطرنج، فكما أفسد علىَّ سلسلة إنتصاراتى سابقًا وأهدانى خيبتى الأولى، ها هو اليوم يثبت أنه ما زال يحمل لى فى جعبته خيبات جديدة، ثم اقتربت منى وقدمتنى إليه قائلة:

"دكتور محمد صديقى الجديد التقينا منذ فترة لكن لم تسنح فرصة كى أخبرك عنه".

لم تزد على كلماتها تلك ما جعلنى أتأكد من ظنونى، ثم التفتت نحوه لإتمام التعارف لكنى قاطعتها قائلًا: "بشمهندس "حسام" بطل الجامعة فى الشطرنج سررت بلقائك".

ابتسم المتطفل ابتسامة ماكرة لزجة، أعرفها جيدًا، لكنه هذه المرة لم يحاول إخفاء علامات الحقد والغضب المتشبعة بهما كل ملامحه بل كان يرمقنى بنظرات حادة وكأن بيننا ثأر عظيم.

قطَعتْ نظراته كلماتها التى أردفت بها قائلة:

"أعلم أنكما كنتما خصمين شرسين على رقعة الشطرنج فى البطولة، لكن ما لا تعلمه يا (محمد) أن (حسام) هو عرَّابى وأبى الروحى الذى حدثتك عنه، فكم أتمنى أن أكون اليوم سببًا فى صداقتكما".

كانت كلماتها تهوى كصواعق خارقة فوق رأسى. لا أدرى كيفية تفاديها أو الاحتماء منها، لكن فجأة انتفَضَتْ من بين النار المستعرة بداخلى؛ بقايا كبرياء، جعلتنى أتمالك أعصابى، وأنا أقول لهما:

"لا بأس، خصم قوى خير من حليف أحمق، لكن مثلينا يا صديقى لا تنتهى المنافسة بينهما سوى بهلاك أحدهما".

ثم اعتذرت لهما متعللًا بارتباطى بموعد مهم تذكرته الآن ولملمت كل أشيائى المبعثرة ورحلت بعيدًا عنهما، عاقدًا العزم والنيَّة على عدم العودة مجددًا ولو كلفنى الأمر أن أمزق هذه المضغة التى ما زالت تمتعض بصدرى غير راضية بقرارى، لكن مثلى لا ينحنى أبدًا. وما لا تعلمه النساء عنى؛ أن كبريائى تأتى قبل قلبى دائماً.

ثم انصرفْتُ وأنا لم أستوعب بعد ما حدث.

نفس الخصم مرتين؟! لقد هُزمت فى المرة الأولى وها أنا اليوم على أعتاب الهزيمة الثانية، وسبب الهزيمة فى المرتين واحد (هي) أعظم نقاط ضعفى أمامه، مَن تحول بينى وبين الفتك به.

ومن سخرية القدر أن موقفه هذه المرة أفضل وأقوى منِّى بمراحل، فلديه هذه المرة من القطع الهجومية ما يضمن له النصر بلا جهد، بينما أنا لا أمتلك سوى حلم بدا لى الآن أنه كان يكبر فى خلدى وحدى، فقد أيقنت بالهزيمة ولا مفر منها، فلا داعى للانتظار حتى أشهد مراسم انتصاره، بينما أتلقى أنا دعوات التعزية بحظ أفضل فى المرات القادمة.

ما أن وصلت المنزل حتى أغلقت هاتفى، ولزمت صومعتى محاولًا التخلص من كل ما قد يذكرنى بها، وبدأت بإلقاء الرواية التى كانت سببًا فى كل ما حدث من الشرفة، فراحت تتهادى فى الهواء حتى سقطت فى صندوق إحدى سيارات النقل المارة من أمام العقار.

بعدها قضيت ليالى وأيام وأنا أتقلب فوق جمر الوجد وأكتوى بنار الحنين والاشتياق، يزورنى طيفها فى أحلامى كل ليلة، أتخيلها أمامى فى كل زاوية وكل موضع

بالبيت، وكان قلبى يقف وحيدًا يتصارع مع عقلى الحانق عليه وكبريائى التى تجلده كلما حاول تذكر طيفها.

قضيت أسبوعين لم أبرح فيهما البيت وكنت أتعلل للجميع بعدم وجود محاضرت هامة هذه الفترة والأفضل المذاكرة بالبيت، إلى أن اتصل (ماجد) صديقى بالكلية على هاتف المنزل ليخبرنى أن هناك امتحانًا سيعقد بعد يومين، ثم أملى علىَّ المواضيع المهمة التى يجب على مراجعتها، قضيت هذين اليومين منكبًا على الكتاب ما جعلنى أتناسى قليلًا جرح قلبى الذى لم يندمل بعد.

ثم ذهبت صباح الامتحان إلى الجامعة وهناك التقيت (ماجد) فطمئنته علىَّ فلم يحدث أن تغيبت كل هذه المدَّة من قبل.

لكن بعد أن انتهيت من الامتحان وودعت زملائى، صادفتها فى طريق عودتى للبيت، لأرتبكَ مجددًا ويرتبك كل شيء بى، أما هى فقد كانت شاحبة للغاية، وعلامات الحزن والإرهاق تكسو وجهها الناعم وكأنها لم تنم منذ أعوام، كانت هذه هى المرة الأولى التى أرى فيها حزنها العميق.

أقبلت نحوى ودون مقدمات قالت: " أنت بخير؟ فأجبتها بفتور لم أتوقع أنى سأجده فى مثل هذا الموقف حيث يهفو كل ما بى نحوها فقلت لها:

"أجل أنا بخير" فأعقبتْ:

"أتعلم أنى كنت أنتظرك كل صباح أمام بوابة الكلية أتلهف قدومك، خشيت أن يكون قد أصابك مكروه ولا وسيلة لى للاطمئنان عليك سوى هاتفك الذى كان مغلقًا. لقد أوجعت قلبى عليك كثيرًا" فقلت متماديًا فى عنادى:

أكل هذا من أجل صديق التقيتِه منذ فترة قليلة؟، عجبًا فلم ينزعج أحد من أصدقائى القدامى مثلك ؟ فقالت فى تحدٍ واضح:

"لما تتصرف هكذا؟! أنت تدرك جيدًا أننا لسنا بصديقين ولن يُقدَّر لنا يومًا بأن نكون صديقين، فقدرنا هو الحب، الحب وفقط".

فانتفض جسدى فجأة من كلماتها المباغتة، لكنها أردفت فى جدية تامة:

"كلانا يعلم جيدًا ما يضمره الآخر فى قلبه، فلما التستر إذن؟!"

فقلت "ولكن علاقتك بحسام..." لتقاطعنى هي:

"أنت لا تفهم شيئًا مطلقًا؛ لقد أحببتُكَ كما لم تحب امرأة رجلًا من قبل، بالغت فى الارتقاء بمشاعرك، لأنتشلها من سطحيتها وأسمو بها إلى مراتب العشاق، أفرغت حجرات قلبى من كل ما علق بها من ندوب الماضى وآلام الحاضر، وخصصت لك خزانة بقلبى أحتفظ فيها بكل أشيائك القديمة، ليقينى الشديد أنك ستعاود الحنين لها و السؤال عنها يومًا ما، علمتك كيف تحب وكيف يكون الحب، جعلت منك أميرًا يجبره تفرده على التصرف كالأمراء، لم أكترث يومًا لماضيك فجلُّ ما كان يشغلنى هو إعادة إنجابك من جديد، كنت أرى فيك زمانى القادم ومشروع حياتى، حقًا أحببتك كما لم تحب امرأة رجلًا، وها أنت تخذلنى كما لم يخذُل رجلٌ امرأة".

ثم أعقبت:

"حسام بالنسبة لي الآن؛ هو كل أهلى وعائلتى لذا فقد سررت كثيرًا عندما رأيته بالحديقة وأردت أن يتعرَّف كلاكما إلى الآخر".

ولقد حاولت أن أبرز ما له من مكانة عندى كى أبرر لكَ علاقتى به لتتقبل وجوده بحياتنا. فقاطعتها قائلاً:

"لكنى أكاد أجزم أنه متعلق بكِ، ويحبك"، فقالت:

"أعلم هذا، لكنى لا أستطيع الابتعاد عنه فله علىَّ فضل عظيم ودين كبير لا أستطيع سداده، فقد انتشلنى مرارًا من حتفى وهلاكى المحتم، انتزعنى انتزاعًا من أحزانى الغائرة التى كادت تفتك بى لولاه، معه ولدت مرة أخرى وكأننى قد بُعثت من جديد، فلقد خصص جُلَّ وقته لى وفتح عينىَّ على شتى ألوان الأدب والموسيقا والسياسة، أثرى حياتى الخاوية بعد رحيل والدى حتى أننى لم أجد وقتًا للحزن ولم يترك هو منفذًا واحدًا لذكرياتى المروعة تتسلل منه إلىَّ؛ فبرغم أعمارنا المتقاربة إلا أننى كنت أشعر معه بأنى طفلته المدللة، كان بمكانة أب حنون وأخ كبير ملهم لى، لم يبخل علىَّ بحنانه أو عنايته يومًا، لكن بعد وفاة والده واضطرارنا للعودة إلى مصر، ثم إقامتى فى بيت جدتى لأمى، تغيَّر من وقتها كل شيء، ففوجئت به وقد بدأ يصارحنى ويعترف لى بما يكنه من حب، فظللت فترة أتهرب من مواجهته، أتجاهل حديثه وكلماته متعللة بانشغالى بمحاضرات الماجستير الذى قررت البدء فيه حتى يقتل جزءًا كبيرًا من فراغى والذى كان قد اتسع كثيرًا بابتعادى عنه، لكنه كان يبدو متعجلًا، يخشى ضياعى من يده، بعدما فتحت الحياة هنا فجأة أمامنا نافذة كبيرة عكس شُرَّاعِنا الضيق هناك؛ فلم أجد مفرًا من الاعتراف له بطبيعة مشاعرى نحوه، فهو يعنى لى الأب والأخ والسَّنَد الوحيد الآن بالحياة، ولن أقبل مهما كلفنى الأمر أن يشوب علاقتى به شائبة، لأنى لا أحتمل خسارته أو فقدانه، فعلاقات الأبوة والأخوة وحتى الصداقة دائمة، أما الحب فهو غير مضمون، وأنا أحيا هذه الحياة وحيدة، لذا أريده أن يظل دومًا ملجأى الذى أهرع إليه عندما تغلق الدنيا أبوابها فى وجهى، وبرغم قسوتى الكبيرة عليه يومها وصدمته من رفضى لحبه؛ إلا أنه تقبل الأمر مكرهًا، ووعدنى بأنه سيظل بجانبى ولن يخذلنى أبدًا، لكنى آثرت الابتعاد عنه قليلًا كى أعطيه الفرصة لتناسى الأمر، إلى أن خاطبنى ذات يوم وأخبرنى بأنه قد

انضم إلى فريق عمل بإحدى الجرائد المستقلة والتى كانت تنوى تكوين عدد أسبوعى خاص بالشباب الجامعى تعكس أراءهم الحرة فى أوضاع المجتمع الحالية وتوجهاتهم وطموحاتهم بالمستقبل محاولة تقديم الحلول من وجهة نظرهم، وقد كنت أعلم أنه مولعٌ بالسياسة وهذه فرصة جيدة له، ثم طلب منى أن أنضم إليهم لأكون مسئولة عن الركن الثقافى الخاص بالتاريخ والأدب والشعر، وافقت مسرورة فقد كانت فرصة عظيمة ليتعرَّف علىَّ القُراء كبداية لمشروعاتى الأدبية القادمة، وبرغم قربنا مجددًا، وتعدد لقاءاتنا بالجريدة، إلا أنه كان يتعامل معى بحيادية شديدة ولم يعاود فتح الموضوع مرة أخرى، إلى أن صادفتك لأول مرة فى مباراة الشطرنج التى دعانى إليها. فعلمت منذ الوهلة الأولى بأنى كنت محقة، فالحب ليس تسوية أو رد دين، والقلب له أحكام أخرى؛ فقد بدأ شعور غامض يتملكنى ويسيطر علىَّ، لكنه كان ممتعًا، وقد رأيتكَ تحدق بى يومها فبادلتك التحديق رغمًا عنى وكأن حواسى قد تمرَّدت علىَّ وتأبى الخضوع لإرادتى؛ فدومًا كان اعتقادى أن الحب الحقيقى ما هو إلا حالة عشقية لا بد لها من شرارة أولى كى تُضرَم النار فى القلوب، وربما لا يلتفت أحد العاشقين إلى أن تلك الحادثة الصغيرة ستغير مجرى حياتهما للأبد وأنهما بأى حال من الأحوال؛ لن يعودا كما كانا آنفًا، ولن يتصور أحدهما حجم العواصف والفيضانات التى كما ستقتلع ذكرياتهم القديمة وحوادثهم السابقة؛ ستملؤها بأروع وأجمل الذكريات والتى على قدر ما ستحييهم؛ ستميتهم عشقًا ستنهى حياة لتولد حياة أخرى، لكنها حياة تملؤها حياة وكأنها لحظة ميلاد جديدة، لكن سرعان ما تملكنى الخوف فهرعت إلى الخارج. وبعدها لم أتوقف يومًا عن التفكير بك، كنت لأول مرة أشعر بأن مشاعرى وحواسى حرة طليقة، غير سجينة عطف أو شفقة، أنطلق معك كالفراشة بين الحقول، أستنشق

رحيق الحب من أى زهرة شئت غير متقيدة بدين أو فضل يغلُّ قلبى، لم تُشعرنى كما كان يُشعرنى الجميع بأنى مجرد قطعة أثرية قيِّمة يريدون اقتنائها وامتلاكها ولا يلتفتون لما أريده أنا، لكن الحياة علمتنى أن القدر لا تؤمَنُ بوائقه أبدًا، ولن ألقى بنفسى فى بحره دون أن يكون لى طوق نجاة، لذا أترجاكَ أن تدعه ليكون هو طوق نجاتى، دعنى أشعر بأن أحدًا من أهلى سيصفق لى فى زفافى ويأخذ بيدى حتى يسلمنى إليك؛ فأنت لا تعلم حجم معاناتى، وجحيم الحياة الذى تجرعت مراراته كثيرًا حتى إعتدته، ولا معنى أن تحيا وحيدًا فى هذا العالم الواسع بلا عائلة".

ثم انفجرت بالبكاء والنحيب وكأنها لم تبكِ من قبل، كان جسدها كله يرتجف وعيناها زائغتين، وحبلى بالدموع التى تساقطت كسيل مطر لا ينقطع، ولأول مرة أرى بها هذا الضعف الذى لم أكن أتوقع وجوده من الأساس، لذا كرهت نفسى وكرهت عنادى يومها كثيرًا، فرقَّ قلبى لحالها ولان كيانى كله كما لم يلِن من قبل.

احتضنتها بشدة، وكأنى أنوى إيداعها بصدرى لأخفيها عن أعين القدر، لتتساقط دموعى أنا الآخر رغمًا عنى.

ثم أمسكت بوجهها بين كفى ونظرت فى عينيها وأنا أعدها بأنى لن أكون يومًا سببًا لألمها حتى وإن هلكت على يديها وفى سبيل إرضائها، سأعطيها حب لم يعطهِ رجل لامرأة من قبل، ولن أنتظر منها شيئا مطلقًا.

كما وعدتها أننى سأمنحها تاريخًا حافلًا بعهود من الحب والسعادة لن تُمحى من ذاكرتها للأبد، بل ستحيا عليها ما تبقى من عمرها، وأكدت لها أننى غارقٌ فى عشقها وأهيم شوقًا بحبها، متيَّمٌ بكل تفاصيلها. وأحبها كما هى بلا تغيير.

وقد جاهدت يومها كثيراً محاولًا التخفيف عنها، لكنى كنت قد غرست مخالبى عميقًا فى كل جراحها القديمة، لذا لا بد وأن تأخذ وقتها كى تتعافى.

تفاجأت بعد ذلك اليوم أنها قد صارت مفرطة معى فى كل شيء؛ فى حبها وحنانها، فى اهتمامها وإغداقها، حتى فى ألمها.

صارت تحب حتى العشق وتعشق حتى الجنون، لقد صارت مازوشية بحق.

كانت تحب من أعماقها وبكل كيانها، لذا فقد تغلغلت فى شراييني وعششت فى دورتى الدموية حتى جابت كل خلية بجسدى ونثرت عطرها داخل كل نواة.

كانت تتنفسنى وكنت أتنفسها عشقًا، غزلت من حبها إكليلًا فتوَّجتنى وتوجت به نفسها، وكثيراً ما كنت أتسائل لما قد تفعل امرأة ذلك؟!. تراها تزخم ذاكرتى بها لتعدنى لفقدان كبير؟! فأى فخ تُنصب لى هذه المرأة وأى مكيدة تُحاك وتُدبر فى غفلة منى؟ حقًا لقد كانت جميلة فى كل شيء رائعة حد الكمال فماذا ينقص امرأة مثلها وماذا أملك أنا كى أعطيها؟

كان لها حضور طاغ وغياب موجع لا تملك أمامه غير إستحضارها بشتى السبل فتبدأ حواسك فى استحضار ما إختزلت واحتفظت به فى حضورها فتشم بقايا عطرها داخل جيوبك الأنفية حتى يفوح وينتشى به نخاعك، تتذوق عذوبة كلماتها مجددًا بطريقتها اللامعهودة، باسترسالها المتجانس والمنمق ثم توقفها المفاجئ مع نظرة ساحرة من عينيها كأنها تنتقى كل حرف ستقوم بتجميعه لتهديك أجمل باقة من فردوس كلماتها وتنتخب أروع جُملٍ لتخرج لك في النهاية أبلغ حديث، لكأنها كانت تعلم جيدًا أنى سأقوم باستحضاره مرارًا وتكرارًا بعد رحيلها فتريده أن يخرج فى أجمل صورة.

كان حديثها امرأة فريدة فى حد ذاته كأنها ليست امرأة واحدة بل مجموعة نساء اختزلن داخل امرأة واحدة.

كانت تتحدث بسحر وأناقة فتاة باريسية تفوح منها أشذى عطور فرنسا، تمشى منتعلة عراقة وأصالة أميرة عربية خارجة لتوها من رواية شرقية تحمل مجد وعبق الذكريات، لها بساطة وسذاجة فلاحة إسكندنافية لم تفارق حقول الشوفان ومزارع الكروم، ولديها ثقة وذكاء نجمة هوليودية تربعت على عرش الأوسكار لأعوام.

كانت تمتلك كل مفاتيح إبهارى، تعرف شفرات المداخل والممرات السرية لسعادتى، امرأة لا يحدها واقع ولا تتقيد بقانون، تجتاحنى بعواطف جياشة فترفع شهواتى حدود الإدمان، يغرقنى فيض مشاعرها فلا تصمد أمامها قلاعى ولا تنفعنى سترات نجاة ومَن قال أنى أريد منها النجاة!

إعصارها يقتلع جذورى من الأعماق فأسلم نفسى فى نشوة عارمة لتياره الهادر فأراها تقرضنى جناحيها لأطير هائمًا منتشيًا فى براح فضائها.

كما كان لحديثها إيقاع جدولٍ عذبٍ رقراقٍ فى بستان أندلسى يتراقص على أنغام معزوفة إغريقية تواطأ الحمام مع البازوالقُمرى فى عزف ألحانها.

اليوم أدرى لما عشق ابن زيدون ولادة بنت المستكفى حد الجنون، ولما أُغرم المأمون العباسى ببوران بنت الحسن، وكيف ملكت روميكيا لبَّ المعتمد بن عبَّاد، وكيف فُتِن خالد بن الحديدى بليلى بنت المأمون

فكم كنت أود أن أعشقها فى زمن الأندلس، فى عصر الموشَّحات ونوبات الرصد والاستهلال، وكم كنت أود أن أكون أعظم شاعر فى التاريخ كى أهديها أروع قصائدى ومعلقاتى، ليتغنى بها كل الشعراء والعامة من بعدى، كم كنت أود أن أكون بيكاسو أو فان جوخ لأنقش ملامحها على صفحات الماء، وأوراق الشجر،

وأطبع وجهها على قطع السحاب فإذا ما هطل المطر؛ فاز المحبون ببضع قطرات من حبها ليعلموا كيف يكون الحب الحقيقى.

ولكم كنت أود أن أكون أديبًا عالميًا لأخلدها فى كتاب يتهادى به العشاق فى أعيادهم ومواسم عشقهم، ويصبح مرجعًا للحب فى شتى العصور.

وقد كان يؤلمنى كثيرًا أنى لا أستطيع مجاراة حديثها الآسر، ومبادلتها أحرفها الرائعة، حقًا لا أسوأ على الرجل إلا من حب أديبة، فوحدها القادرة على رفع سقف مشاعره وتعلقه بها حد الجنون.

كم أهدتنى من القصائد ما أجزم أنى لا استحق عناء كتابة بيت واحد منها، كم أبدعت وكم جابت بحور الشعر ذهابًا وإيابًا لتنتزع من جوف محار الأدب؛ أروع الأبيات، فأهدتنى أثمن ما وقَعت عليه عيناها وأنفس ما وقَّعت يداها، فلكم هامتْ ولكم ارتحلتْ، كم ضحكتْ وكم بكتْ وهى تتغنى وتشدو بحبى.

لقد فتحت لى جميع بساتينها ولم تبخل عنى يومًا، فرُحت ألتهم كرز شفتيها وأنهل من أنهار شهدها دون اكتراث أو مراعاة لآداب الضيافة، فكم كانت شهية يومها، واليوم باتت أكثر اشتهاء، وأذكر يوم قلت لها "أراكِ تعصين الله بِحبكِ لى وأشعر أن الله غاضب منكِ الآن". فصمتت قليلًا ثم أخذت تنشدنى:

إن كان حبنا معصية؛ فأعلم أن الله سيغض عنها طرف العين
فأنا رسولة العشق الأولى، خُلقت من وِجدٍ وحب وليس من ماء وطين
فإن كنتُ نبضكَ الكامن فى القلب؛ فأنت موجى الهائج فى الشرايين
وإن كنت لك الأمل الساكن فى العين؛ فأنت قدرى الموشوم على الجبين

فابتسمت وقلت لها "الآن تأكدت أن الله غاضب من كلينا".

لكم كانت كلماتها رائعة وحبها لا يوصف، كان لها سحرها الخاص كأنما تربَّت على يد أعتى الساحرات، كان سحرها يكمن فى أحرفها الفريدة، فحقًا "إن للبيان لسحر". وهى لم تكن تمتلك عصا سحرية فحسب، بل كانت تخضع لها جميع سحرة الأرض.

****

الفصل السابع

"كم أعشقها تلك الابتسامة التى ترتسم على شفاهى حين يقرر الحنين فى لحظة تواطؤ، أن يبعث بها من أعماق النسيان إلى مرفأ الذاكرة، فتأخذنى حينها لحظات شرود أنأى فيها عن العالم، وتسرى رجفة لذيذة وبرودة تعترى جسدى، وتعتزل جميع حواسى كل ما يحيط بها من مؤثراتٍ خارجية، عدا صوت حالم، وحلم ضائع، وحب جرفه تيار الحياة بعيدًا عن موانئه"

عاد (خالد) إلى طليطلة حزينًا، مغتمًّا، لما صار عليه حال الأمة وحال أمرائها ما قد ينذر بقرب زوالها.

وأثناء إقامته بطليطلة كان تارة يغتنم أى صدفة عابرة أو فرصة سانحة للقاء محبوبته الغالية، وتارات أخرى يختلق الحجج والمبررات للإختلاء بها، إلى أن حدثته ذات مرة قائلة:

ألم يأن للعيون التى أضناها السهر؛ أن ترتاح من طول السفر؟" ليجيبها خالد:"

"بلى، آن يا (ليلى)، لكن صبرًا قليلًا، فالفجر يوشك أن يمحو بنوره عتمة الانتظار، وأنا أتوسم خيرًا فى قادم الأيام".

وكان (المأمون) فى هذه الأثناء قد اغتر بملكه وقوته، فاستسلم لأطماعه التوسعية، وراح يشن الغارات المتتالية ضد جيرانه المسلمين، ولذا خاض (خالد) رفقة جيشه؛ العديد من المعارك الطاحنة ضد (بنى هود) رغم عدم اقتناعه بجواز الإغارة على أبناء دينه، وقد كان الموت وشيكًا أكثر من مرة، لكن تشبثه العظيم بحلمه، دفعه لرفض الموت مرارًا، لكن ذلك صار ينغص عليه حياته ويقضّ مضجعه كل ليلة، خاصة بعدما وصل الجشع بالمأمون أن يتحالف مع ملك النصارى (ألفونس) ويعينه على سلب ونهب أراضى المسلمين بسرقسطة ملك بنى هود، لكن (خالد) وجد نفسه مجبرًا على غض طرفه عن هذا البلاء العظيم، رغبة فى عدم تكدير صفو العلاقة بينه وبين المأمون، وأملًا فى الفوز بابنته.

فراح يتعجل الأمر بمحاولة التقرب أكثر وأكثر من (المأمون) أثناء وجوده بالقصر، ويبدو أنه قد بلغ مراده، حيث صار (المأمون) يبالغ فى الترحيب به، بل ويتعمد الثناء عليه فى مجلسه كل مرة أمام حاشيته وضيوفه، مفتخرًا بما حققه من انتصارات على (بنى هود)، حتى صار المأمون يلقب بـ (عظيم ملوك الأندلس)، وكان (خالد) قد اعتاد أن يكون دائمًا ضمن قائمة ضيوفه الكرام، فلا يتخلف مطلقًا عن أى اجتماع لهم سواء أكان اجتماعًا عامًا فى مجلسه المكرم مع علماء وأدباء المدينة، أو جلسة خاصة فى بلاط قصره رفقة وزراء دولته وخاصته، وقد أخبره (المأمون) أكثر من مرة أنه يودّ لو كان له ولد مثله حيث مات جميع أبناءه الذكور.

كل ذلك شجع (خالد) على التفكير باستغلال الأمر، والاعتقاد بأن الفرصة مواتية أمامه الآن لطلب يد ابنته للزواج، إلا أن المأمون صدمه بقوله:

"لقد أسديت الكثير من المعروف لأبناء ذى النون وبنى عامر يا (خالد)، وسيكون لك شأنًا عظيمًا الأيام القادمة بكلا الدولتين، خاصة بعدما تتم مصاهرة (بنى عامر) لنا".

هوت الكلمات كجبال تتساقط فوق رأس (خالد) فلم يستوعب ما يرمى له المأمون سريعًا، لكن ما لبث أن فطن للأمر، وحدث نفسه قائلًا:

"مصاهرة بنى عامر، لبنى ذى النون؟!، لا شك أن الملك يقصد أن (عبدالملك) ينوى مصاهرته، لكن من ستكون ضحية هذا الفاسق العربيد؟ هى إحدى بنات المأمون بالطبع لكن؛ يستحيل أن تكون هى (ليلى)، فلن يدفع بها ثمنًا لتحالفٍ منشود مع هذا الفاسق؟".

انخلع قلب (خالد) رعبًا من التفكير بالأمر، وكاد يسقط مغشيًا عليه، لكنه تمالك نفسه ثم استأذن فى المغادرة، وبينما يهم بمغادرة القصر، إذ لحقت به (سيليا) وأعطته رسالة منها، ففتحها ما أن توارى عن الأعين، ليجد الأميرة تطلب لقاءه بالمنية المنصورة.

وهناك؛ التقاها (خالد) وكان ما يزال فى قمة توتره وتشتته، يكذِّب ما يخبره به حدسه وظنونه، لكن ما أن رأته (ليلى) حتى اندفعت نحوه فى شوق ولهفة عارمة، وألقت بنفسها بين أحضانه، ودموعها تنساب كشلالات نهر تاجه فوق خديها الناعمين.

هدَّأ (خالد) من روعها وحاول أن يتقصَّى منها حقيقة الأمر، لتخبره بطلب (عبدالملك) الزواج منها وموافقة أبيها، خاصة بعد توسط حفيده (يحيى) والذى تولى إقناع المأمون بأهمية إتمام هذا الزواج، حيث كان (يحيى) صديقًا (لعبدالملك) فكانا على دين بعضهما بعضًا؛ قد أفسدت الخمر والنساء عقليهما، كما كان لأمه دور كبير فى الأمر مكيدة لها، ونكاية بها؛ فلم تغفر لأمها يومًا أنها كانت محظية المأمون، أحب وأقرب زوجاته إلى قلبه، فدأبت على الكيد لها ولم تفلت منها إلا بوفاتها، لتراه سببًا غير كافٍ ليخمد نار الغيرة المتقدة بقلبها، فراحت تصب جام حقدها وغلها على ابنتها (ليلى)، وزاد هذا الحقد يومًا بعد يوم كلما زاد علم (ليلى) وذاع صيتها وجمالها بالمدائن، لتجد فى هذا الأمر بغيتها، فأوعزت فى رأس ولدها (يحيى) أن يطلب من صديقه (عبدالملك) طلب يد (ليلى) للزواج، ورغم رفض (عبدالملك) للأمر فى البداية لاقتناعه باستحالة موافقة المأمون، وخوفه من الانقلاب عليه؛ لما يعلمه من حب المأمون لها، ورفضه أفضل الملوك والأمراء من

قبل، إلا أن (يحيى) وعده بأنه سيقف بجانبه ويجمل صورته أمامه، مستغلًا حب (المأمون) له، فقد صاريستشيره فى كافة الأمور ليعده لتولى الحكم من بعده.

ثم أخبرته أن نساء القصر بدأن يتهامسن بعلاقتهما، حيث أفشت إحدى وصيفاتها بما يدور بينهما، وتخشى إن علم المأمون بالأمر أن يكيد له.

فأخبرها (خالد) بأنه لن يسمح لأحد أن ينتزعها منه، مهما كلفه الأمر، سيحارب العالم أجمع كى يفوز بها، فتشبثت الأميرة به وتوسلته ألا يتركها لهم، فلن تقوى على الحياة بدونه، وحينها سيكون الموت أهون عليها من الحياة مع غيره، فطمأنها (خالد) وهو يربت على كتفيها ووعدها بأنها ستكون له مهما حدث، وذكرها بأنه لا يخلف عهدًا قطعه على نفسه، فهدأت نفسها قليلًا، ليقينها أن حبيبها ما أن قطع وعدًا على نفسه، فلن يخلفه أبدًا.

تركها (خالد) ومضى عائدًا إلى بيته، ليصادف فى طريقه؛ صديقه (عبدالرحمن) والشيخ (ابن قرديال)، فأخبراه برغبتهما فى الحديث معه، وكان (خالد) فى الفترة الأخيرة قد انقطع كثيرًا عن رؤية (عبدالرحمن) نظرًا لكثرة وجوده بقصر المأمون.

حاول (خالد) التملص منهما، لكنهما أصرا على الحديث معه، متعللين بأن الأمر لا يحتمل التأجيل على حد قولهما، فذهبوا به إلى دار الشيخ، وكانت علامات الهم والحزن جليَّة على وجه (خالد) ليستفسر (عبدالرحمن) منه عن السبب، لكن (خالد) لم يجيبه، هنا قال (ابن قرديال) موجها كلامه لخالد:

"اعلم يا (خالد) أنى أعدك بمنزلة ولدى، ولا شك لدى فى غيرتك على دينك، فقد ربيتك صغيرًا وغرست فيك عزة هذا الدين وبذل العزيز والنفيس لنصرته، والوقوف فى وجه أعدائه حتى وإن كانوا من بنى جلدتنا، فتقويم الملوك والأمراء

فرض واجب على الرعية متى حادوا عن الحق، وأنت تعلم يا ولدى ما آلت إليه أحوال المسلمين اليوم فقد تداعى علينا أعداء الله من كل حدب وصوب، كما تتداعى الآكلة إلى قصعتها، وقد زاد الطين بلة؛ جشع (المأمون) الذى لم يجد فى نفسه حرجًا من أن يتحالف مع النصارى ضد إخوانه المسلمين، فيعينهم على نهب أراضيهم وسلب ممتلكاتهم بل وهتك أعراضهم فساروا يساقون عبيدًا وجوارى إلى (ألفونس) يفعل بهم ما يشاء، وكان (ألفونسو) قد تمكن من حكم قشتالة وليون بعد وفاة أخيه (شانجة) وهو يحاصر قلعة سمورة لينتزعها من أخته (أوراكه)، فتمكن منه أحد الفرسان التابعين لأخته وقتله".

ثم سكت الشيخ وقد احمرَّ وجهه غيظًا وغضبًا حتى كاد الدم يتفجر من عروقه ثم قال وهو ينفث زفيره بغضب:

"فوالله الذى لا إله إلا هو؛ لن نكون كغثاء السيل، فنقف عاجزين ومكتوفى الأيدى، لندع أراذل الأمم تفعل بنا ما تشاء، لقد أعمته أطماعه عن الصواب فصار عبدًا لشهوته وهواه، ورغم نصحنا الدائم له إلا أن نفسه صارت أكثر تضليلًا له من بطانته وحاشيته الفاسدة، فلكلٍ منهم أطماعه ومصالحه الخاصة، ولا أقصد بذلك والديكما، فكلنا يعلم جيدًا رفضهما التام لذلك الجنون، ولولا يقينى باستحالة وقوفهما فى وجه (المأمون) لما أقسما عليه من الولاء التام والسمع والطاعة العمياء لبنى ذى النون؛ لطلبت منهما أن يكونا بيننا الآن".

لم يرَ (خالد) شيخه الجليل المعروف بوقاره وهدوئه، بهذا الغضب العظيم من قبل، لكنه كان يدرك جيدًا مدى غيرته على دينه، ورغم ذلك قال لهما (خالد) مستنكرًا:

"أتطلبان منى الخروج على الملك؟!"

فقال الشيخ:

"لم يعد هناك مجال للتردد أو التراخى يا (خالد)، فهناك طائفة كبيرة من شباب المدينة وعلمائها الغيورين على دينهم؛ تعد العدة للوقوف فى وجهه، بالإضافة للكثير من التجار والأعيان الذين أرهقتهم ضرائب وجبايات (المأمون) الباهظة، والتى لا تنتهى ينتزعها منهم ويبعث بها للنصارى إرضاء لهم ليريقوا دماء إخوانهم المسلمين ويستبيحوا أعراضهم، أى جنون هذا؟!" قالها الشيخ متعجبًا قبل أن يردف:

"لكننا نخشى حدوث فتنة عظيمة لا يمكننا السيطرة عليها فيهلك معها الجميع، ويستغلها أعداؤنا لصالحهم، لذا قررنا أن نجتمع غدًا فى دار الشيخ (أحمد بن مغيث) ونتشاور فى الأمر، وأنا أرغب فى حضورك يا (خالد)، حتى تستمع بنفسك لرأى العلماء وأهل الحكمة والرأى والمشورة".

فقال (خالد) "لن أشارك فيها يا شيخى الجليل فالأمة فى غنى عن فتنة تشتت شملنا أكثر وحضورى يعنى موافقتى على هذا الأمر..." فقاطعه (عبدالرحمن) قائلًا:

"نحن نعلم أنك مغرم بالأميرة (ليلى) يا (خالد)، لكن إن لم نعجل بخروج أمر هذه الدعوة للنور، فستضيع الأميرة منك كما توشك طليطلة على الضياع" ليحدق به (خالد) مستفهمًا، ليخبره (عبدالرحمن) بأن المأمون قد طلب من والده دعوة الملوك والأمراء وبدء التجهيز لعرس الأميرة (ليلى) على المظفر (عبدالملك بن المنصور)، ذلك الأمير الذى لا تفارق الخمر وأجساد النساء يديه وشفتيه، فالمأمون يا (خالد) أصبح كالثور الهائج مستعد للتضحية بكل شيء وبيع أغلى ما يملك من أجل أطماعه فى الاستيلاء على أراضى جيرانه المسلمين غير آبه بما يتركه خلفه من

خراب ودمار، أتعلم أنه أرسل نساء مسلمات أسرن فى إحدى غاراته على ملك بنى هود كهدايا لألفونسو؟! أصرنا نلقى بأعراض المسلمات المحصنات العفيفات فى أحضان النصارى؟! ثم احتد عليه قائلًا:

"استفق يا (خالد) وعد إلى رشدك وصوابك، فوالله لا حياد عن الحق وتقويم المعوج، والجهاد الجهاد، ومن لم يردعه النصح، فالسيف خيررادع"

كان (خالد) يستمع لكلمات (عبدالرحمن) فى ذهول، ليشعر وكأنه كان منفصلاً عن أرض الواقع منذ أعوام، ليكتشف أنه كان مغيبًا بالفعل، فقد أعماه عشقه الكبير للأميرة عما كان يفعله أبوها بل لقد أعانه على ذلك، وحقًّا صارت جيوش القشتاليين على أبواب المدينة تنتظر غفلة من أهلها، وبسقوط طليطلة وهى الثغر الأوسط، خط الدفاع الأول والقلعة الحصينة، سيكون البلاء عظيمًا وسيفتح الباب لضياع الأندلس كلها، فكيف سيقف أم ربه ليبرر خذلانه هذا؟! لكنه أسف لحبيبته، فما ذنبها فى هذا الصراع المحتدم والنار التى توشك أن تندلع؟! ماذا جنت كى يلقى بها والدها الجشع المغرور فى أحضان ذلك الفاسق الماجن وهى المتدينة الورعة، ما أثقل همَّك يا (ابن الحديدى).

طلب (خالد) منهما التريث قليلًا، حتى يعرض الأمر على أبيه، ورغم تخوف الشيخ وعبدالرحمن إلا أن (خالد) طمأنهما بأنه يعرف أباه جيدًا، لذا سيحاول إقناعه، فوجوده بين صفوفهم سيكون له تأثير كبير فى تغيير موازين القوة، ثم استأذنهم وانصرف.

اجتمع (خالد) بأبيه، وأخبره برغبته فى الزواج من الأميرة (ليلى)، ويبدو أن أبوه كان يتوقع هذه الطلب منه،

فأطرق قليلًا ثم قال له:

-يا بنى إنك أغلى ما لدى، وكنزى الحقيقى الذى جاهدت فى جمعه على مدار سنوات عمرى التى قضيتها فى خدمة بنى ذى النون، وأعلم أن قلبك متعلق بابنة (المأمون) منذ أن كنتما صغاراً تركضان ببراءة داخل جنبات القصر، ولما خفت من أن يأتى مثل هذا اليوم، الذى تقف فيه أمامى وتطلب هذا الأمر؛ جاهدت فى إبعادك عن القصر وعن رؤية الأميرة، عسى بُعد المكان، يبعد حبها عن قلبك، لكن كما قلت لك سابقًا "لا ينفى حذر من وقوع قدر"، "والله غالب على أمره".

ثم صمت لهنيهة أمسك خلالها بلحيته البيضاء الطويلة وأخذ يجذب خصلاتها فى شرود، ثم استأنف حديثه قائلًا:

"يا ولدى، أنا أدرى الناس بالمأمون بل وعائلة ذى النون كلها، لن يبارك هذا الملك حبكما يا ولدى، بل إن علم بما كان يدور بينك وبين ابنته من وراء ظهره؛ سيكيد لك ولن يشفع لك عنده ما كان بينى وبينه من إخلاص تام ووفاء مطلق له ولأبيه من قبله، ورغم ما قدمته أنت أيضًا من نصرة وإخلاص، وما أثبته من ولاء وتفانى، بل سيعتبرك مجتراً على الملوك، ولن يتوانى فى الغدر بك، كما لن يتوانى فى إيذاء ابنته، رغم حبه الشديد لها، إن هى خالفت طاعته، أوحادت عن دربه، وكلنا يعلم ما فعله (المأمون) بعمه (أرقم بن عبدالرحمن) عندما وقعت الفتنة بينهما، فآثر (أرقم) ترك المدينة وفر إلى بلاد النصارى ليتفرغ لعلمه وأدبه هناك، لكن (المأمون) لم يدعه وشأنه بل دسَّ إلى (فرديناند) ملك قشتالة من يخبره أنه جاسوس قد أرسله ليطلع على بلاده، فقتله، ولم يكن هذا البغض سوى حسد من المأمون لعمه بسبب علمه الغزير وإعجاب الناس به فخشى على ملكه منه. لقد تحول (المأمون) يا بنى لوحش جائع، نهم، ولن تشبع أطماعه مهما جمع أو حاز،

فالجشع مرض عضال إن تمكن من صاحبه فلا دواء له ولا براء منه. ألم ترَ كيف تحالف مع النصارى ضد إخوانه المسلمين رغم نصحنا الدؤوب له بالعدول عن الأمر إلا أن هواه غلب عقله وحكمته، فأسلم عقله لحفيده (يحيى) الذى سيوردنا ويورده المهالك بأفكاره الطائشة".

كان (خالد) فى موقف لا يحسد عليه، فقد شُلَّ عقله تمامًا، ولأول مرة لا يدرى ماذا يفعل، جُلَّ ما يشغله هى (ليلى) وفقط، ليقول لأبيه متحدياً:

"سأذهب إليه يا أبى وسأطلبها منه، لن أدعه يلقى بها بين أحضان هذا الفاسق، كيف يسلم ابنته وهى درَّة طليطلة وزهراءها، زهو الأندلس ومفخرتها، فريسة هكذا..."

فقاطعه أبوه قائلًا:

"سبق السيف العزل يا ولدى، فالمنادون والمغنون يجوبون الآن شوارع المدينة وبلدان المملكة كلها، يعلنون خبر زواج الأميرة بـ (عبدالملك)، وقد عُلِّقت الزينات والأعلام فى كل الطرقات، فلا جدوى الآن من أى شيء".

فقال خالد :

"لا يا أبي، لن أقف مكتوف الأيدى هكذا، فالمدينة كلها تغلى بسبب تصرفات المأمون المتهورة"، ثم أخبره بعد تردد عن دعوة الشيخ (ابن قرديال) للوقوف بوجه المأمون، ورغبته فى انضمامه لها، لتتغير ملامح الوزير المحنك فجأة، ويتلون وجهه، لكن بدا عليه التماسك والثبات وكأنه كان على علم بما يدور خارج القصر، فصمت قليلًا قبل أن يقول:

"يا بنى إعلم أنى ربيتك طائعًا لله، لا تخشى فى الحق لومة لائم، وأنت الآن قائد كبير ورجل دولة بمعنى الكلمة، كما أنك صرت حر نفسك، ولن أملى عليك ما

تفعله، لكن النصح واجب علىَّ تجاهك،فانظر؛ إن كان غضبك هذا وغيرتك تلك خالصة لله ولرسوله ولنصرة دين الإسلام، فتوكل على الله فهو ناصرك بإذنه، ولكن إن كانت غيرتك لنفسك وهواك فهذه دعوة شيطان، فراجع نفسك الآن"

فعرض عليه (خالد) الانضمام إليهم، لكن كبير الوزراء رد عليه قائلًا:

-يا بنى، والله إنى لأشتهى هذا، ولولا أنى أقسمت للظافر (إسماعيل بن ذى النون) على الطاعة العمياء والولاء التام لولده (المأمون) لخرجت معك ووقفت فى وجهه، فلقد أفنيت عمرى برًا لقسمى هذا ووفاء لعهدى لهما، وها أنا اليوم شيخًا هرمًا، أكل منى الدهر وشرب، فدعنى لهم، لعلى أُفلح فى إقناعه بالعودة للدرب الحق والبعد عن دروب الشيطان، عساه يفيق قبل فوات الآوان، لكنى أوصيك يا بنى، إن قطعت على نفسك عهدًا فى هذا الأمر؛ فإياك أن تخذل ثقة من وثقوا بك،وكن أسدًاجسورًا فى الحق، و"ليقضى الله أمرًا كان مفعولا".

غادر(خالد) بيت أبيه الذى ما أن ابتعد عنه حتى فارت دموعه لتروى لحيته، ثم أخذ يبتهل إلى الله أن يحفظ ابنه ويهديه إلى الحق دومًا، فالفتنة توشك أن تقع، ولا سبيل الآن لأخماد النار المستعرة تحت الرماد، بل الأفضل إزاحته عنها وتركها تلتهب وتنفجر.

بدأت المدينة تتزين بالفعل استعدادًا لعرس زهرائها، فضجَّت شوارعها وطرقاتها بالمغنيين والمنادين وهم يجوبونها، فيملأونها أهازيج وأغان مبهجة، احتفالًا بالحدث العظيم المقبل.

بينما كانت الأحزان والكآبة تعشش بجدران صدر(خالد)، الذى لم يعتقد أنه سيكون أتعس أهل الأرض فى يوم كهذا، وأنه سيكون على الجانب الآخر البعيد، يكتوى بنيران حزنه وخيبته، وماذا عن أميرته الحسناء التى قضت سنوات عمرها،

مدللة تتقلب فى رغد العيش ونعيم ملك أبيها، فها هى الأخرى مقبلة على أسوأ قدر لم يتوقعه أشد حاقديها.

دخل (خالد) جامع طليطلة العظيم بوسط المدينة، فصلى العشاء، ثم أخذ يدعو الله أن ينير بصره وبصيرته ويهديه إلى الصواب، ثم لم يدرى وهو يسلم نفسه للنوم فقد بلغ منه الإرهاق مبلغه.

فرأى (خالد) فى منامه رؤية عجيبة، فقد وجد نفسه؛ فى واد فسيح والعتمة تغلِّف أرجاء المكان، فلا يرى موضعًا لقدمه، يسمع صرخات وعويل تملأن جنبات الوادى ويتردد صداها فى الأفق، وكأنه يوم الحشر، لكن الظلام الدامس يعيق الرؤية، يشعر بأجساد تتخبط، تتبعها أنات وآهات تعلو، همسات وهمهمات تتصاعد متحشرجة تشبه الاحتضار، جاهد لتفريقهم والمرور من بينهم، إلى أن لمح ضوء نار يأتى من خلفهم من بعيد، فحاول جذب انتباههم، فكانوا يتأملونها قليلًا، ثم ما يلبثون أن يعطونها ظهورهم، ويعاودون الركض باتجاه الظلمة، وكأن قوى الشيطان هى من تسوقهم، فركض (خالد) نحوها، حتى إذا اقترب منها؛ وجد قطعان من الذئاب المفترسة تحوم حولها فاغرة أشداقها، كاشرة عن أنياب حادة مخضبة بدماء ما زالت تسيل منها، ارتعدت فرائس (خالد) وهمَّ بالركض بعيدًا، لكنه فى لحظة ما، قرر الإندفاع نحوها بكل ما أوتى من قوة، شاهرًا سيفه البتار، وهو يردد "الله أكبر"، لتهرع الذئاب بعيدًا، فوصل النار، ليكتشف أنها ليست بنارٍ، بل قرص مضيء كأنه الشمس، فالتقته وحمله بين يديه، وكان نورها دافئًا، صافيًا، ليس بحارقٍ، بل بعث الراحة فى نفسه، ثم عاد به إلى الحشد العظيم، وما أن اقترب منهم، حتى وجدهم قد صاروا فرقًا مصطافة، ترتدى لباس الحرب، ثم بدأت تكبيراتهم تعلو شيئًا فشيئًا حتى زلزت الأرجاء، فى مشهد ملحمى تقشعر له

الأبدان، ليختفى الصوت مرة واحدة، ثم تقدم أحدهم وأقام الصلاة بصوت عذب رخيم يهدهد النفوس وما أن انتهى، حتى أشار على (خالد) أن يؤم الجمع.

ليستفيق (خالد) على صوت المؤذن ينادى لصلاة الفجر، فوجد صوته عذبًا، رخيمًا، يهدهد النفوس، ويبعث على الراحة والخشوع، ليكتشف أنه يشبه صوت المؤذن بالرؤيا التى رآها منذ قليل، فتحسس يده فوجدها ما زالت دافئة، هنا ارتعد (خالد) وأخذ يبحث عن تفسير لها، ليجد الشيخ (ابن قرديال)، داخلًا المسجد، فهرع إليه يريد أن يخبره بالأمر، لكن الشيخ استوقفه وطلب منه انتظاره بعد الصلاة، وبعد أن فرغوا من الصلاة وشرع الجمع فى مغادرة المسجد، قام الشيخ وأسند ظهره إلى أحد أركانه، فذهب (خالد) إليه وسلم عليه وقبل أن يقصَّ عليه رؤياه، بادره (ابن قرديال) قائلًا:

"لا تفرط بشمسك يا (خالد)؛ فالذئاب توشك أن تعود" ففزع (خالد) من كلمات الشيخ، فأنى له بمعرفة أمر الذئاب وقرص الشمس، لقد حلم بها لتوه ولم يخبر أحدًا بعد.

فقاطع (ابن قرديال) حيرته بقوله:

"لقد اصطفاك الله لأمر عظيم يا (خالد)، فلا تخيب ظنه بك" ثم تركه ومضى.

أسند (خالد) ظهره إلى حائط المسجد، وأخذ يبكى كما لم يبكِ من قبل، وأخذ يتضرع ويبتهل إلى المولى قائلًا:

"يا الله، رفقًا بعبدك الضعيف (خالد)، وهوِّن علىَّ بلائى، واهدنى إلى طريقك المستقيم الذى لا عوج له، ثم أخذ يفكر مليًّا بالأمر، فظلَّ يحدث نفسه قائلًا:

"لقد حاد المأمون عن الحق فعلًا، فترك سنة الجهاد فى سبيل الله، ووجه قِبلة جيشه نحو إخوانه المسلمين، بدلًا من أن يكون عونًا لهم ضد ملوك النصارى، بل

لقد بلغ الظلم به أن يعينهم على الإغارة عليهم، ويقتطع لهم من مال بيت المسلمين حتى يعيثوا فسادًا بقرى المسلمين وضِياعهم، فقُتل منهم من قُتل وسُبى من سبى، كما ارتكبوا جرائم ومذابح لا تُغتفر بحق المسلمين العزل، الذين أُجبروا على تركها، وفروا إلى الجنوب مذعورين، فاستولى النصارى على أراضيهم وقراهم، لقد تنكر (المأمون) لتعاليم دينه الحنيف، وتحالف مع شياطين الفرنجة من أجل الاستيلاء على أراضى جيرانه وتوسيع ملكه، حتى إنه صار يتنازل لهم عن بلاد المسلمين التى بذل أجدادنا الأوائل؛ أرواحهم الطاهرة ودمائهم النفيسة لفتحها، إعلاءً لكلمة الله، وها هو اليوم يقدمها لهم بلا حرج. لقد حاد (المأمون) عن الحق، فسعى فى الأرض فسادًا، وأهلك الحرث والنسل؛ لذا وجب علينا تقويمه، وإرجاعه إلى رشده وصوابه بالعقل واللين إن قبِل، وبالقوة إن لم يستجب".

وخرج (خالد) من المسجد، شخصًا آخر غير الذى دخله بالأمس.

****

"وترتبك عيناها كلما تحرشت عيناى بهما ،
أما أنا فأغمض عينىَّ ثم أتنهد
وأسرها أمنية بينى وبين ربى"

كانت ترى الحياة من نافذة مختلفة، كأنها تطل من نافذة شاعر حالم أو فنان حاذق وربما رسام مبدع تبحث عن الجمال فى كل الأشياء من حولها ولا تدرى أن جوهر الجمال كله يكمن فى عينيها الحالمتين اللتان تنثران رحيق جمالهما فى كل ما تنظران إليه، تجعلك بمجرد تأملهما، ترى عالمًا خفيًا مجهولًا وأرضًا غامضة مغمورة تثير فى نفسك الحلم والرغبة فى الإستكشاف فتبحر بمركبك هائمًا تاركًا شراعك لرياحهما المتمردة تتلاعبان به كيفما تشاءان، مكتفيًا بإحساس النشوة اللذيذة التى تسرى بعروقك، مخمورًا بلا وعى. غير آبه بما ينتظرك من حتف وهلاك محتم.

وقد كانت اللحظات السعيدة تمر بسرعة فائقة وكأنها رمح نافذ يخترق سنوات عمرى، أو برق خاطف يسرق منى أغلى ما أملك.

فانقضت السنة النهائية سريعًا، وتخرجت من الكلية، ثم بدأت أستعد لسنة التدريب العملى والمعروفة بسنة الامتياز. وكنت قد قررت مع نفسى الإستعداد للتقدم لخطبتها ما أن أجد الفرصة مناسبة كى أخبرها بالأمر.

وفى أثناء ذلك؛ كانت قد نجحت فى جعلى أتعوّد بل أعشق القراءة مثلها، حيث كانت تقرضنى العديد من الكتب والروايات ودواوين الشعراء، فأحببت الشعر على إختلاف أنواعه وتوجهاته، وتعلقت بالكثير من الآداب حتى صار لدى مخزون عظيم من المعرفة.

اعتدت أن أترك لها شِراع عقلى وقلبى ودفة قيادة جميع أوقاتى، ولم أجرؤ يومًا على سؤالها إلى أين الوجهة المنشودة؟ أو متى سترسو سفينتنا؟

لكنى رأيت معها وجهًا آخر للإسكندرية لم أره من قبل ولم أتوقع يومًا بوجوده مسبقاً.

ففى إحدى المرات أخذتنى إلى مبنى قديم فى شارع صغير متفرع من شارع إسطنبول، خلف مسرح سيد درويش بمحطة الرمل، دلفنا عبر بوابته المفتوحة فلمحت فى مدخله لافتة من الرخام الأسود مكتوباً عليها "فى هذا البيت عاش كفافيس آخر خمس وعشرين سنة من حياته".

وكعادتى كنت التزم الصمت معها تاركًا لها مهمة إدارة الحديث متلذذًا بمراقبة الكلمات وهى تخرج إلى الحياة تتراقص فوق شفتيها الورديتين.

كانت تتملكها سعادة غريبة عندما تتحدث عن تاريخ وماضى الأشياء وكأنها قد عاصرتها بالفعل وعاشت مراحل شيخوختها عبر الأزمنة المتعاقبة.

فأخبرتنى أن هذا المبنى كان بيتًا لقسطنطين كفافيس وهو واحد من أعظم شعراء اليونان المعاصرين، فقد كان مصريًا يونانيًا، غير نمطي، وكان أبواه يونانيين من أصول تركية، وجده كان تاجرًا للألماس بتركيا.

لكن والديه هاجرا إلى الإسكندرية، وسرعان ما صار والده ثريٌ جدًّا، يمتلك مصنعًا لحلج الأقطان فى الإسكندرية حيث كانت المدينة وقتها مركزًا عالميًا لتجارة القطن كما كان له سلسلة محلات وفروع لبيع المحاصيل الزراعية.

وقبل أن يتحول منزله لمتحف، كان فندقًا يسمى " بنسيون أمير " واشترته القنصلية اليونانية وحولته لمتحف، وقد قامت بصيانته جمعية محبى كفافيس التى أنشئت فى نفس العام على يد المستشار الثقافى اليونانى مسكوف.

كان المتحف يضم تمثال رخامى نصفى لكفافيس وقناع الدفن الخاص به وأثاثًا وهدايا من الكنيسى اليونانى

كما كان يضم مؤلفاته وشرائط تحوى قصائده ملحنة ونصوصًا مكتوبة بخط يده وأيقونات ومجلد ضخم يسمى "دليل الإسكندرية" فيه صور قديمة نادرة ولوحة زيتية للخديوى إسماعيل الذى كان صديقًا لوالد كفافيس، حيث دعاه لحفل افتتاح قناة السويس، وكان كفافيس يعبر فى شعره عن التلاقى المشترك لعالمين وهما:

اليونان الكلاسيكية، والشرق الأوسط القديم، والأدب السكندرى الذى كان مهادًا خصبًا لكل من الأرثوذكسية والإسلام.

شرعت فى قراءة بعض من مؤلفاته ومقالاته لكن استوقفتنى هذه الكلمات كثيرًا عندما تعد الشراع لإيثاكا، سترغب فى أن تكون الطريق طويلة، مليئة بالمغامرات، مليئة بالمعرفة.

إنك لن تجد مثل هذا فى طريقك، لذا يجب أن تبقى أفكارك وروحك شامخة، وتطرق القلب عن طريق العاطفة الجميلة.

وإن كنت لا تحمل لهم داخل روحك شيء، إذًا لا مكان لهم فى روحك من قبل، الرغبة فى أن تكون الطريق طويلة فى الصيف ليكون هناك الكثير من المتعة والفرح، سوف تدخل موانئ شهدتها للمرة الأولى، وستقف فى الأسواق الفينيقية، وستشترى السلع الجميلة، الصدف والمرجان والعنبر وخشب الأبنوس، والروائح ذات الرائحة الرائعة من جميع الأنواع، يجب أن تذهب إلى العديد من المدن الليبية، حيث يمكنك أن تجد هناك السلع الأكثر جمالًا، للمعرفة والتعلم منها،

احتفظ بإيثاكا فى ذهنك، للوصول هناك إلى وجهتك النهائية، ولكن لا تهمنا الرحلة على الإطلاق.

فهناك أفضل من ذلك لسنوات عديدة فى الماضي، عندما كنا نستريح فى الجزيرة الغنيَّة بجميع ما كنت قد اكتسبته فى الطريق، لا تتوقع أن تقدم لك إيثاكا الثروات، وقد استمتعت رحلة جميلة من إيثاكا. لا شيء آخر لتعطيك، أصبحت لك الحكمة مع الكثير من الخبرة، يجب أنك بالفعل فهمت ما يعنى إيثاكا، لا أدرى لما شعرت بقشعريرة ورجفة شديدة بجسدى ما أن قرأت تلك الكلمات.

وبدأت ترودانى هذه الهواجس؛ أيُعقل أن يكون هذا الكيان الإستثنائى الماثل بجوارى والذى صرت مرتبطًا به جدًّا، متعلقًا بكل تفاصيله، أعشق حركاته وسكناته حد الجنون ما هو إلا رحلة جميلة لن تكتمل فى النهاية؟!

لكن ما هى النهاية التى أنشدها أصلًا؟. أهى الزواج بها؟ أم مجرد إمتلاكها؟ وهل هناك أحد قادر على فعل ذلك؟

أجل، فهى كيان عجيب غامض صارخ متفجر، بالغ حد الكمال فى كل شئ، معها تمتلك كل شيء لكن ما أن تبتعد أنتَ أو بالأحرى تبتعد هى عنك؛ حتى تسلبك كل شيء فى طرفة عين وكأنها الحلم أو الخيال.

هى مَن تحدد غناك معها أو فقرك وحاجتك بدونها، سعادتك فى حوزتها أو شقاءك فى غيابها. زهدك الأبدى بامتلاكها أو فاقتك وجموح رغباتك بمجرد فقدانها. ورعك وتنسكك ورهبانيتك فى حضرتها أو مجونك وفسقك وفسادك ما أن ترحل عنك.

وها أنا اليوم أطرق أبواب السماء، فى أوج لحظات حظى وسعادتى، فى قمة غناى معها وإستغنائى بها عن كل شئ. فى أشد أوقاتى زهدًا عن الدنيا ومتاعها يقنعنى قلبى جدلًا بامتلاكها.

لكنى ما زلت لا أعلم غدى المجهول معها وما ينتظرنى به القدر من مفاجآت. والأغرب من ذلك أنه لا رغبة لى بمعرفة أى شيء؛ فهل إكتفائى بما يحدث لى معها الآن؛ أمر طبيعى ومنطقى أم أنى أركض كالمجذوب نحو حتفى بكامل إرادتى.

لقد صرت بالفعل سجَّانًا لعقلى. أكمم فاه وأغض طرفى عن صرخاته المتلاحقة التى تصلنى كل حين ومازلت أصم سمعى عنها.

أتبع قلبى بكل كيانى ووجدانى مستسلمًا لحالة السعادة الجنونية التى تتملكنى الآن وكأنها تختزن حبوب السعادة فى حقيبة يدها وتنثرها فى كل مرة التقيها، لكن ما أقصر لحظات السعادة وما أطولها وأقساها ليالى الندم. بدأ شعور بالقلق والخوف الشديد يتملكنى مما جعلنى أهرب سريعًا من مجرد التفكير بالأمر.

****

"وكانت هى آخر حفرية حلم تندثر فى قلبه، وآخر مخطوطة عشق سطرتها يداه"

بدأت جرعات متزايدة من التوتر والكآبة تتدفق نحو عقلى وأنا فى طريق عودتى للمنزل حتى صادفت (محمود) عند ناصية الشارع ليخبرنى أنه كان فى طريقه إلىَّ.

بدا فى حالة يرثى لها، وكأن مخالب الحزن قد نهشت ملامح وجهه حتى شوهتها.

كانت عيناه تعاندان جدولًا من الدموع يتأرجح بهما، فأدركت أن أمرًا عظيمًا قد حدث، ثم طلب منى وهو يشخص ببصره للأرض متحاشيًا النظر إلىَّ؛ الذهاب إلى البحر ففهمت أنه يريد ألا يراه أحد.

وما أن وصلنا الشاطئ حتى انفجر بالبكاء فجأة، كانت هذه هى المرة الأولى التى يبكى فيها (محمود) أمامى، فحاولت تهدئته قليلًا كى أفهم ما حدث، ليحاول بعدها التحدث لكنه كان يئن بشدة وينتفض، وكأن جسده تنتابه نوبات تشنج بين الحين والآخر، ثم أخبرنى بما آلت إليه الأمور مؤخرًا مع (حبيبة)..

فبعد أن جاءت نتيجة الليسانس لتعلن نجاحهما، هرع إليها ليخبرها بنيَّتِه التقدم لخطبتها بعدما أخذ مباركة والده، فلن يجد له زوجة أفضل من ابنة جارهم الحاج (فتحى عوض) الموظف بالسجل المدنى، وصاحب السمعة الطيبة والجيرة الحسنة التى يزيد عمرها على الخمسين عامًا.

لكنها فاجأته بأن هناك أمرًا قد أخفته عنه سابقًا وترددت كثيرًا قبل الاعتراف به، لكنها ترى الوقت مناسبًا الآن.

فعندما باح لها (محمود) بحبه؛ آثرت ألَّا تخبره أنها لا تبادله مشاعر الحب لأن قلبها متعلق منذ الصغر بابن خالتها (مراد) الذى يبادلها هو أيضًا نفس الأمر.

وقد إتفقت عائلتيهما مسبقًا على إتمام خطبتهما وزواجهما فور حصولها على الليسانس، لتسافر بعد ذلك معه إلى إحدى الدول العربية حيث يعمل هناك، ثم أخبرته أنها قد أجَّلت هذا الاعتراف وآثرت أن تكذب عليه وتجاريه فى مشاعره، كى يتمكن من إتمام دراسته ولا تكون سببًا فى تعطيلها مرة أخرى لأنها تعتز بصداقته كثيرًا وتقدر له مساعدته إياها طيلة سنوات دراستها بالجامعة، وبالفعل لم تمض إلا أيام قليلة حتى تم زواجها وسافرت.

أنهى (محمود) حديثه ثم أجهش مجددًا بالبكاء حتى كاد يختنق، حاولت التخفيف عنه ومواساته رغم علمى بعدم إجادتى لهما، لأجد نفسى أعنفه وأنا أقول له:

"دعك من حماقات النساء هذه، وتماسك كالرجال، لقد خسِرَتك وأى امرأة تفّرط فى رجل مثلك موحلة فى الخسارة بالتأكيد، فأنت صادق ومعدنك أصيل ونقى يا صديقى، لا تعرف إلا العطاء ومثلك يحتفظ لهم القدر بنفيس دُرره، فانهض فإن الله جابرك قريبًا".

فلا تدع الأحزان تطرق بابك كثيرًا، فاذهب واغتسل واحمد ربك على مصابك ولا يجزعك قضاؤه، ثم أخذته ودلفنا أحد المساجد القريبة، وهناك توضأ (محمود) واعتكف بأحد زوايا المسجد ثم أخذ يصلى كما لم يصلِ من قبل، بينما صليت أنا العشاء وجلست أنتظره يفرغ من صلاته حتى ظننته لن يفرغ منها أبدًا.

بعد ذلك فشلت فى لقاءه رغم ملاحقاتى الدؤوبة والمتواصلة للسؤال عنه، لكنه بدا وكأنه يتهرب منى كلما حاولت الاقتراب منه حتى صادفته فى أحد المساجد

وكان قد اخترق الصفوف عقب صلاة الجمعة ليقف أمام جموع المصلين واعظًا ومذكرًا إياهم بعقد النية على صيام الغد والذى كان موافقًا للتاسع من شهر محرم.

لم أتعرف إليه فى البداية فهممت بالمغادرة لولا أن صوته المألوف أنعش ذاكرتى، فقد تبدلت هيئته كليًا، حيث طالت لحيته حتى طُمست ملامح وجهه خلفها وقصرت ثيابه فصارت أشبه بزى الهنود والباكستانيين وكان ممسكًا بسواك عظيم أشبه بنبوت خشبى صغير يهشم به قوائم أسنانه.

انتظرت حتى فرغ من خطبته فاقتربت منه وصافحته معاتبًا إياه على تملصه منى الفترة الماضية لكنه اعتذر بانشغاله بتلقى دروس العلم على يد مشايخه، ثم فاجئنى بقوله:

"لقد كنت فى غفلة كبيرة يا أخ محمد، أعمتنى حطام الدنيا الزائلة عن الانشغال بأمور الدين والدعوة..." ولم يكمل جملته حتى فاجئنى كيان ضخم عملاق أشبه بصناديد قريش فى العصر الجاهلى، يرتدى جلباب أبيض ويغطى رأسه بغترة بيضاء تتدلى إلى كتفيه وكانت لحيته تفوق أضعاف لحية صديقى بمراحل ثم قال بصوت أجش جاهد ليجعله رخيمًا فلم يُفلح لتتقاذف الكلمات من فمه كطلقات مدفع رشاش تدك ما يعترض طريقها:

"تقبل الله منكم يا شباب" ثم صافحنى وهو ينظر إلى (محمود) وكأنه يطلب منه تقديمى له، فسارع (محمود) الذى بدا أمامه صاغرًا، مرتعدًا، مطأطأ الرأس، لا يرفع عينه عن موضع خفى بالأرض قائلًا:

"هذا معلمى الشيخ (وجدى محروس) بارك الله فيه وزاده علمًا فوق علمه وجعله زخرًا للأمة ونفع به البلاد والعباد"

ثم أردف:

"وهذا صديقى (محمد) الذى حدثتك عنه من قبل يا شيخى".

فمد الشيخ صفحة يده العظيمة مرة أخرى وأمسك بيدى فجأة دون أن ينتظر حتى أرفعها أنا ثم قبض عليها بشدة فكادت أصابعى تُهرس بداخلها، بينما أشبعنى بيده الأخرى عدة صفعات على كتفى وهو يقول:

"أهلًا بك يا أخ (محمد)، لقد حدثنى (محمود) عنك كثيرًا، ثم دعانى إلى حلقة العلم التى ستُعقد بعد قليل لكنى اعتذرت منه لارتباطى بموعد مهم، فقطَّب حاجبيه وامتعضت ملامحه فجأة حتى ظننت أنه سيُخرج خنجرًا من طيات ملابسه ويفتك بى فغادرت مسرعًا وأنا أرمق (محمود) بنظرات حادة لكنه لم ينتبه لها كونه ما زال محدقًا بنقطته الوهمية بسجادة المسجد"

****

الفصل الثامن

"رغم تخبطات الرياح الطائشة،

ومحاولات الربَّان البائسة؛

لا بد للمركب من السير فى الطريق المعتاد،

الطريق الذى رُسِم مسبقًا. طريق القدر"

بدأ الشيخ العلامة (ابن قرديال) حديثه فى دار (ابن مغيث الصدفى) الذى أوكل له مهمة الحديث نظرًا لهرمه ومرضه الشديد؛ بحمد الله والصلاة والسلام على رسوله الكريم ثم قال:

"جميعكم تعلمون سبب اجتماعنا اليوم، وعلى علم بما الأمة توشك أن تقع فيه، ونحن هنا لأخذ الرأى و المشورة لتتوحد أراؤنا ورواياتنا على كلمة الحق بإذن الله، ولما فيه صلاح للأمة ونصرة لديننا الحنيف، فقد قال رسولنا الكريم (من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان)، فهذا دور العلماء الذى لا حياد عنه، فالعلماء هم ورثة الأنبياء فى الدعوة إلى الحق، وهم القلعة الحصينة متى اشتد البلاء، لما لهم من سلطان على الأرواح، تخضع له العامة طواعية ورغبة، خضوعًا فطريًا لا تَكَلُفَ فيه لشعورهم بأن العلماء هم حراس الدين المؤتمنون، لكن عندما يرضى العالم لنفسه خلاف ذلك يصبح من ورثة الشياطين وبوقًا للظلم والظالمين، فيبرره بل ويزينه فى أعين الناس، وحتى لا نكون فيمن قال فيهم الله عزوجل (لولا ينهاهم الربانيون والأحبار) فتارك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر كمرتكبه، وفى زماننا هذا، قد قيَّد الطمع والخوف ألسنة العلماء فسكتوا، وإذا نظرنا إلى فساد الرعية وجدنا سببه فساد الملوك وفساد الملوك سببه فساد العلماء والصالحين نتيجة لفساد النيات والأقوال والأفعال وقد قال ابن المبارك

وهل أفسد الدين إلا الملوك وأحبار سوءٍ ورهبانها

فباعوا النفوس ولم يربحوا. ولم تغلُ فى البيع أثمانها

وكلنا يعلم ما آلت إليه أحوال الأمة مؤخرًا جراء طمع وفساد الحاكم مخلفًا الوعد الذى قطعه والده إسماعيل لأهل طليطلة عندما ضجروا من حكامهم الذين أخذوا يعينونهم ويعزلونهم أيام الفتنة، فراسلوا (عبدالرحمن بن ذى النون) المقيم بشنت برية لحكمهم. فأرسل إلينا ولده إسماعيل، وحقًا فقد صار على العهد عندما جعل شيخ البلدة (أبا بكر بن الحديدى) ساعده الأيمن لا يقوم بعمل إلا بعد مشورته فكان له خير معين. فماذا ترون؟! فإنى أريد أن أسمع أرائكم لكن دعونا نقسم أولًا ونعاهد الله على حفظ السر وكتمان الأمر والوحدة والاعتصام بحبل الله مهما كان قرارنا بالنهاية" فأقسم الجميع على كتاب الله ثم طلب منهم الشيخ الإفصاح عن رأيهم.

فتحدث بعضهم عن عدم جواز الخروج على الحاكم خوفًا من الفتنة التى ربما تعصف بما تبقى من شمل الأمة متعللين ببعض آراء وفتاوى السلف ذاكرين بعض الأحاديث مثل: (الفتنة نائمة لعن الله من أيقظها) و(الفتنة راتعة فى بلاد الله تطأ فى خطامها لا يحل لأحد أن يوقظها ويل لمن أخذ بخطامها) ومنها أيضًا: (من كره من أميره شيئًا فليصبر، فإنه من خرج من السلطان شبرًا مات ميتة الجاهلية).

وذكروا قول الله تعالى (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة)، فقد كانوا يرون أن حياد الحاكم عن الصواب هو أمر طبيعى لفساد الرعية، ولو صلح حالهم لأصلح الله لهم ملوكهم، فاستبداد الحاكم وظلمه وفساده ما هو إلا نتاجًا لإبتعادهم عن تعاليم دينه ولضعفهم وتخاذلهم وفساد أخلاقهم والإصلاح يجب أن يبدأ من القاعدة. فـ (كما تكونوا يولى عليكم).

ثم قال أحدهم معقبًا:

-أجل، الحاكم الطاغية عقاب إلهى لفساد الرعية هذه سنة الله فى كونه، وكما أخبرنا المولى عزَّ وجلَّ فى حديثه القدسى (قلوب الملوك بيدى وإن العباد أطاعونى حولت قلوب ملوكهم عليهم بالرأفة والرحمة وإن العباد عصونى حولت قلوب ملوكهم بالسخط والنقمة فساموهم سوء العذاب فلا تشغلوا أنفسكم بالدعاء على الملوك)، وسيدنا (على بن أبى طالب) كرم الله وجهه حمَّل مسؤلية الفتنة التى وقعت فى عهد عثمان بن عفان إلى الرعية عندما سأله أحدهم: يا أمير المؤمنين ما بال أبى بكر وعمر انصاع الناس لهما ووليت أنت وعثمان الخلافة ولم ينصاعوا لكما، فقال: لأن رعية أبى بكر وعمر كانوا مثلى ومثل عثمان، ورعيتى أنا اليوم مثلك. وخليفة المسلمين (عبدالملك بن مروان) خطب الناس يومًا فقال "ما أنصفتمونا يا معشر الرعية، تريدون منا سيرة أبى بكر وعمر ولا تسيرون فينا ولا فى أنفسكم بسيرتهما". فإن العباد اذا كثر ظلمهم وفسادهم ومنعهم الحقوق الواجبة، ولى عليهم ظلمة، يسمونهم سوء العذاب، واذا صلحوا واستقاموا، أصلح الله رعاتهم، وجعلهم أئمة عدل وإنصاف، لا ولاة ظلم واعتساف". كما أن ابن عباس قال (اذا رضى الله عن قوم ولى أمرهم خيارهم، واذا سخط الله على قوم ولى أمرهم شرارهم).

كان (خالد) يستمع بإنصات إلى آراء العلماء، ينظر بين الحين والآخر إلى شيخيه (أحمد بن مغيث) و (ابن قرديال) الذان كاناهما الآخران منتبهان جيدًا، تبدو عليهما الجديَّة الشديدة، وما أن انتهوا حتى توجه (ابن قرديال) إلى خالد وعبدالرحمن قائلاً: وما رأيكم يا شباب الأمة؟

فقال عبدالرحمن:

-نعم الرأى رأيك يا (أبا عبدالله)، فمن رأى منكم منكرًا فليغيره، ونحن أعلم الناس بأمر المأمون، وقد نصحه والدى وعمى (أبى بكر ابن الحديدى) كثيرًا بالعدول عن تصرفاته والعودة لطريق الحق ونصرة الدين والجهاد فى سبيله لكنه لم يعد يأبه لنصحهم ومشورتهم بل صار الرأى رأى حفيده (يحيى) ذلك الشاب الأرعن، الذى لم يفارق أحضان النساء والجوارى بعد، لذا أرى أنه لا بد للحق من قوة تحميه ويجب أن يعلم المأمون أنه هناك قوة رادعة ستقف أمامه إن لم يرجع إلى رشده وصوابه. ثم نظر (ابن قرديال) إلى(خالد) قائلًا:

لم نستمع إلى رأيك يا (خالد)؟-

فقال (خالد) وقد ارتسمت على وجهه ملامح الجدية:

-يا شيخنا الجليل؛ أنتم أهل علم ورأى ونحن أهل حروب ومعارك، أنتم لسان الأمة الصادق وقلبها النابض ونحن يدها الباطشة وسيفها البتَّار، فوالله الذى لا إله إلا هو؛ لو انقضّت السماء من عليائها؛ لتلقّفناها بحرابنا، ونحن معكم فيما ترونه وتتفقون عليه.

تفحص (ابن قرديال) وجوه العلماء ملياً، ثم قال:

-لقد ذكرتم من الأحاديث والسيرة ما ذكرتم وأعلم أن بعضكم حاول البحث عن مخرج يجنبنا الصدام مع ابن ذى النون، لكنه واقع لا محالة، إن لم يكن اليوم فهو غد وكلنا لا يرغب فى إشعال فتنة تفسد أكثر مما تصلح، وكما قال رسولنا الكريم (إنكم سترون بعدى أثرة وأمورًا تنكرونها. قالوا فما تأمرنا يا رسول الله؟ قال: أدوا إليهم حقهم وسلوا الله حقكم) كما قال (فاصبروا حتى تلقونى).

أما من استشهد بحكم بنى أمية فكلنا يعلم ما فعلوه بالأمة وعلمائها لتمكين أنفسهم من حكم البلاد وتشريع التوريث لأبنائهم من بعدهم، كما أن (عبدالملك بن مروان) جاء بعده خامس الخلفاء الراشدين (عمر بن عبدالعزيز) فأصلح الله على يديه أحوال العباد فعزهم من بعد ذل وأغناهم من بعد فقر، كل هذا خلال عامين وخمسة أشهر فقط، فكان زاهدًا ورعًا، أقام العدل والمساواة وردَّ المظالم التى ارتكبها أسلافه من بنى أمية، وعزل الولاة الظالمين وعاقبهم، أعاد العمل بالشورى، حتى عم العدل والرخاء فى أرجاء البلاد حتى أن الرجل كان يأتى ليخرج زكاة أمواله فيبحث عن فقراء فلا يجد من فى حاجة إليها، ويذكر أن جاءه مرة بالزكاة فقال أنفقوها على الفقراء والمساكين فقالوا ما عاد فى أمة الإسلام فقراء ولا مساكين، قال فجهزوا بها الجيوش، قالوا جيش الإسلام يجوب الدنيا، قال فزوجوا بها الشباب، قالوا من كان يريد الزواج زوج، وبقى مال، فقال اقضوا الديون على المدينين، قضوه وبقى المال، فقال انظروا فى أهل الكتاب (المسيحيين واليهود) من كان عليه دين فسددوا عنه ففعلوا وبقى المال، فقال أعطوا أهل العلم فأعطوهم وبقى مال، فقال اشتروا به حبًا وانثروه على رؤوس الجبال، لتأكل الطير من خير المسلمين. فهذا حال خليفة من بنى أمية صلح فصلحت رعيته.

كما نذكر أيضًا أن عمرًا بن الخطاب لما أتى إليه بتاج كسرى وسواريه جعل يقلبه بعود فى يده ويقول: والله إن الذى أدَّى إلينا هذا لأمين. فقال على بن أبى طالب: يا أمير المؤمنين عففت فعفُّوا، ولو رتعت لرتعوا.

فطباع الرعية نتيجة طباع الملوك، فالعوام إنما يبخلون، ويركبون الفساد، وتضيق أعينهم اقتداء منهم بملوكهم، وفى كل زمان تقتدى الرعية بالسلطان ويعملون بأعماله، فصلاح الناس فى حسن سيرة الملك، ومتى كان السلطان بلا سياسة، أفسد سائر أمور بلاده.

هنا تحامل الشيخ (ابن مغيث) على نفسه، واستند على (عبدالرحمن) كى يستيطع الوقوف؛ وكان يبدو أنه مؤيد لكل كلام (ابن قرديال) وكأنه كان ينطق بلسانه، ثم قال لهم:

-يا أهل الرأى والمشورة، لقد تجلَّت الأمور كلها الآن أمامكم، وإن قدِّر لى نصحكم؛ فأنا أرى أن نتفق على عدة مطالب نرفعها أولًا إلى (المأمون)، وذلك حقنًا لدماء المسلمين وتجنبًا للفتنة، فإن اهتدى ووافق عليها فله منا السمع والطاعة، لكن إن غلب شيطانه تقواه، وترك حكمته واتبع هواه، فعلينا قوامته كما قال (أبو بكر الصديق) بعد بيعة السقيفة عندما بويع خليفة للمسلمين: "أما بعد أيها الناس فإنى قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينونى وإن أسأت فقومونى، الصدق أمانة والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوى عندى حتى أريح عليه حقه إن شاء الله، والقوى فيكم ضعيف حتى آخذ الحق منه إن شاء الله، لا يدع قوم الجهاد فى سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل،ولا تشيع الفاحشة فى قوم قط إلا عمهم الله بالبلاء، أطيعونى ما أطعت الله ورسوله، فاذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم".

ثم وضع يده على الطاولة وقال هل تقسمون وتبايعون على ما عزمنا عليه، فبايعه المجلس كله ومعهم (خالد) و(عبدالرحمن) وأقسم الجميع على الوفاء وصدق النية والعزم.

ثم تحدث أحدهم قائلًا:

-ولكن مَن منا سيذهب بهذه المطالب إلى (المأمون). فعمَّ الصمت الجميع، لكن (ابن قرديال) ردَّ فى حزم:

-أنا واقف بين يديه غدًا بإذن الله، فمن يجد عنده من الشجاعة والإقدام أن يقف فى وجه الظلم فليلحق بى غدًا إلى قصر المأمون، ثم ذكر حديث رسولنا الكريم (إن من أعظم الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر).

هنا انقبض صدر (خالد) لكن الشيخ أردف:

-لكن أوصيكم إن أصابنى مكروه، أن تولُّوا عليكم (خالد ابن الحديدى)، فحينها سيكون (ابن ذى النون) قد ركب كبره واختار السيف حلًا، و (خالد) هو أعلمكم بأمور الحرب ونحتسبه والله حسيبه، ونزكيه ولا نزكى على الله أحدًا؛ مخلصًا لدينه، لا يخشى فى الحق لومة لائم.

فانبهر الجميع من صدق وشجاعة (ابن قرديال) وغيرته وإخلاصه لدينه، وقبل أن ينفضّ المجلس؛ طلب منهم (ابن قرديال) إن حدث ما يخشوه، أن يلتقى الجميع خارج المدينة عند جبال الشارات لبحث الوضع من جديد وإعادة ترتيب الصفوف، فغادر الجميع المجلس إلا عبدالرحمن و خالد الذى توجه إلى شيخه قائلًا:

-لما أنت يا شيخى الجليل، فنحن نعلم (المأمون) جيدًا، لن يسمح لأحد أن يعترضه أو يناطحه، لقد كان الأمر ممكنًا فيما مضى، لكن اليوم؛ لقد تغير الوضع كثيرًا، فلن يستمع إليك، فقال (ابن قرديال) فى حزم وثقة (قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا).

ذهب (ابن قرديال) و(ابن مغيث الصدفى) فى وفد من العلماء ومشايخ طليطلة إلى قصر المأمون، فقدموا إليه مطالبهم، لكن حدث ما توقعه (خالد) و (عبدالرحمن)، فقد ثار (المأمون) وغضب كما لم يغضب من قبل، واعتبرهم مجترأين عليه، وتمادى فى توبيخهم، فاشتد عليه (ابن قرديال) قائلًا له:

"اتق الله فى دينك ورعيتك، لكن (المأمون) أخذته العزة بالإثم، وركب غروره وكِبره، فزجَّ بهم إلى السجن، وتوعَّد من يتجرأ عليه مجددًا؛ بالويل والعذاب".

انتشر خبر القبض على (ابن قرديال) و (ابن مغيث) فى أنحاء طليطلة كالنار فى الهشيم، فثار تلامذتهما مع أهل طليطلة الأحرار، وما أن بلغ هذا الأمر (عبدالرحمن) حتى هرع يبحث عن (خالد) ليستشيره فى كيفية التعامل مع الأمر.

كان (خالد) فى هذه الأثناء على موعد مع حبيبته، يخبرها بما آلت إليه الأمور مؤخرًا، ليجدها ترتمى فى أحضانه والدموع تفيض من عينيها، وهى تخبره بأن أبيها يدبر لإعتقاله، فقد علم باجتماعهم أمس فى دار (ابن مغيث)، وأن (ابن قرديال) قد أوصى القوم؛ بأن يتزعمهم (خالد ابن الحديدى) ويقود حركة التمرد والعصيان فى حال أن قُبِضَ عليه، ثم أخذت تتوسل إليه بالرحيل بعيدًا عن هذا العالم نهائيًا، وطلبت منه عبور البحر والهروب إلى أبعد مكان لا يمكن أن يصل إليهما فيه أحد، ليرحلوا إلى الشام أو مصر، ثم ضغطت على يديه بقوة وهى تقول:

-يا (خالد)، إنى أرى نذير الشؤم يغلف أجواء طليطلة كلها؛ ينذر بقدوم الشر والهلكة، وقد تيقنت الآن من نبؤة العرَّافة، فدعنا نترك كل هذا الظلام، ولنحيا معًا لحبنا فى أرضٍ أخرى لا يعلم بنا أحد، فأنا لا أحتمل الحياة بدونك.

لكن (خالد) الذى كست القسوة والغلظة ملامحه؛ أخبرها أنه لن يخذل دينه وسيدافع عن حق طليطلة فى ألا يلطخ أبوها تاريخها العظيم بأفعاله

الخسيسة، ولن يخذل شيخه الذى عاهده على الصمود فى وجه الظلم، ولن يخذل جنده الذين وثقوا به، فقاطعته قائلة:

-لكنك لن تتوانى فى خذلانى يا (خالد)، فأنت تعلم جيدًا أنك ستدخل حربًا لا قبل لك بها، كما تعلم أن أبى لن يرحم من يقف بوجهه، ولن يصمد أى جيشٍ طويلًا أمام جيوشه الجرارة. فرد عليها (خالد) قائلًا:

-ولكن الحق اليوم معنا، وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله، فأنا ماضٍ فى طريقى يا مولاتى، ولن يثنينى عن قرارى هذا سوى الموت.

اشتد نحيب الأميرة وبكاؤها بعدما سمعت كلمات (خالد) القاسية فها هو يعود لمناداتها مجدداً بـ (مولاتى) عوضاً عن حبيبتى أو حتى مناداتها بإسمها مجرداً لتتيقن أن النهاية موشكة.

وبالفعل كان (خالد) قد حسم أمره نهائيًا، فلم تجدى معه توسلات محبوبته أو دموعها التى لم تنقطع، فتغاضى عن ذلك الألم الموجع الذى كان يذبحه ويقطع فى أحشائه مع كل كلمة جافة، قاسية تخرج من فمه، لكنه وعدها بأنه لن يسمح لأحدٍ بأن يصل إليها، وسيعود قبل أن يتم أي شيء.

ظلَّت (ليلى) مذهولة، تائهة وفاقدة لإتزانها، تحاول جاهدة أن تتمالك نفسها، لكن (خالد) كان قد أوصد فى وجهها كل الدروب، فشعرت وكأنه قد غرس خنجراً فى قلبها، فعادت إلى القصر خائبة مستسلمة، وارتمت فى فراشها كجثة هامدة.

أما (خالد) فانطلق إلى خارج المدينة بصحبة (عبدالرحمن)، وفى أحد أودية جبال الشارات وجدا جمعًا غفيرًا فى انتظارهما، كان من بينهم (على بن القاضي)

والكثير من جنود فرقة (خالد) الخاصة، حيث كان (عبدالرحمن) قد نجح فى اقناعهم بالخروج معهم.

تفحصهم (خالد) ملياً، قبل أن يخطب فيهم ليلهب حماستهم، ثم تعاهدوا مجددًا على إخلاص النية وصدق العهد فى الوقوف بوجه (المأمون)، ثم أمرهم أن يلبسوا أكفانهم، بعد أن أطلعهم على الخطة التى كان قد وضعها مع (عبدالرحمن)، فجعل جنود فرقته البالغ عددهم قرابة الخمسمائة فارس من خيرة جند المأمون والأندلس أجمع فى مقدمة الجيش.

كان (خالد) يرى أنهم لا يمكنهم اتخاذ مقر ثابتٍ، كى لا يتمكن (المأمون) من حصارهم والقضاء عليهم بسهولة، لذا يتوجب عليهم البقاء وسط الشعاب والأودية، والدخول فى حرب عصابات مع جيش المأمون المنظَّم، فحينها ستكون لهم الغلبة دومًا لامتلاكهم سلاح المباغتة. كما أن هذا سيتيح لهم تنظيم صفوفهم جيدًا، وتدريب من لا خبرة لهم بالحرب، لكن (عبدالرحمن) عارضه فى البداية قائلًا:

-نحن لسنا بلصوص أو قطاع طرق حتى نختبئ كالفئران بالجحور، إننا على الحق ولا بد أن يرى الناس دعوتنا وحركتنا، كى نكسب تأييد العوام لنا، ونتمكن من ضم متطوعين جدد.

مال عدد كبير من الفرسان والمشايخ لرأى (عبد الرحمن) وأيَّدوه، فحاول (خالد) أن يثنيهم عن ذلك لأن موازين القوى ليست فى صالحهم، والوضع العسكرى يفرض عليهم ألا يدخلوا فى مواجهات مباشرة مع جيش المأمون؛ فلا مقارنة بينهم وبينه فى أى شيء. لكنه كان يعلم فى قرارة نفسه أن الناس لا بد أن

تدرك مدى قوتهم وترى لهم انتصارات حقيقية، ليعلموا أنها دعوة حقٍ وليست حركة تمرد أو خروج على الحاكم؛ لذا نزل على رأيهم.

****

استقر الرأى فى النهاية على اختيار قلعة أيوب ومدينة سالم قاعدة للانطلاق وذلك لقربهما من موقعهم الحالي، ولما لهما من بُعدٍ ومِنعة عن المأمون حيث تقع مدينة سالم عند مصب نهر (خالون) فى المنطقة الحدودية بين أراضى المسلمين بالأندلس وممالك النصارى بالشمال، وهى قاعدة عسكرية حصينة كانت دومًا محل نزاع بين المسلمين والنصارى.

ومر جيش (خالد) بوادى الدم وقلعة النسور، فرأى ضريحًا قد نقش عليه:

آثاره تنبيك عن أخباره حتى كأنك بالعيان تراه

تالله لا يأتى الزمان بمثله أبداً ولا يحمى الثغور سواه

كان ذلك هو ضريح الحاجب المنصور (محمد بن أبى عامر) أحد أقوى رجال الدولة الأموية فى الأندلس، حيث مرَّ بها وهو عائد من إحدى غزواته على برغش، والتى أصيب فيها بجروح، وكان قد أوصى بأن يدفن حيث مات، وكانت قد بلغت غزواته التى غزاها بنفسه ٥٧ غزوة، لم يُهزم فى أحدها قط، ووطئت قدماه أراضى لم تطأها أقدام مسلم قط، وكانت أكبر انتصاراته غزوة « ليون »، حيث تجمعت القوات الأوروبية مع جيوش مملكة ليون، فقُتل معظم قادة هذه الدول، وأُسرت جيوشهم، وأمر برفع الأذان للصلاة فى تلك المدينة.

لذا فرحت بخبر موته كل أوروبا وبلاد الفرنج، حتى أن القائد (الفونسو) جاء إلى قبره، ونصب عليه خيمة كبيرة، فيها سرير من الذهب، ونام عليه هو وزوجته. وقال الفونسو «أما ترونى اليوم قد ملكت بلاد المسلمين والعرب» وجلست على قبر أكبر قادتهم، فقال أحد الموجودين: «والله لو تنفس صاحب هذا القبر ما ترك فينا واحدًا على قيد الحياة، ولا استقر بنا قرار»، فغضب الفونسو وقام يسحب سيفه على المتحدث حتى أمسكت زوجته بذراعه، وقالت: «صدق المتحدث، أيفخر مثلنا بالنوم فوق قبره !، والله إن هذا ليزيده شرفًا، حتى بموته لا نستطيع هزيمته، والتاريخ يسجل انتصاراً له وهو ميت، قبحاً ما صنعنا وهنيئًا له النوم تحت عرش الملوك».

دخل (خالد) مدينة سالم، والتى فتحت أبوابها عندما علم (عبدالله بن الكاتب) قائد حميتها أن (ابن الحديدى) على رأس الجيش القادم ولم تكن قد وصلته أخبار التمرد بعد، لكنه قرر بعد ذلك الإنضمام لها.

كان لانضمام (عبدالله بن الكاتب) إلى حركة (خالد) بالغ الأثر فى نفوس الناس، فبدأ (خالد) فى تنظيم قواته وإضافة المزيد من التعزيزات إلى حصن القلعة، والاستعداد لغزو قلعة رباح.

أما فى طليطلة، فقد اندلعت نيران الغضب والثورة فى كل أرجاءها، ما أن انتشر نبأ القبض على (ابن مغيث) و(ابن قرديال) مع لفيفٍ من كبار مشايخ وأعيان المدينة، فسادت حالة من الاحتقان والغليان فى نفوس الجميع.

بينما بداخل القصر؛ فقد أمر (المأمون) قادة جيشه بالاستنفار الكامل لكل القوات، وطالبه حفيده (يحيى) بالقبض على (أبى بكر بن الحديدى) و(سعيد بن الفرج) ومحاكمتهما بتهمة الخيانة العظمى، لما بدر من ولديهما، واعتقاده بأنهما

متورطان بالأمر أيضًا، لكن (المأمون) أبَى ذلك واقتنع بقسمهما له بأنهما ما زالا على الوفاء والعهد القديم، ولا صلة لهما بما يحدث بالمدينة لكن هذا الأمر لم يُقنع (يحيى) ولم يشفِ صدره نحوهما.

وفى نفس الوقت، أصرَّ (المأمون) على استكمال مراسم عرس الأميرة (ليلى)، لكن ما أن نما إلى علمه ما يدور فى مدينة سالم من استعدادات لحركة تمرد واسعة، وتزعُّم (خالد بن الحديدى) و(عبد الرحمن بن الفرج) لها، بعد تسليم (عبدالله بن الكاتب) المدينة لهما دون قتال؛ حتى سارع بإرسال حفيده (يحيى) مع كبير قادته (أبوعيسى بن لبون) على رأس جيش يضم عشرين ألف فارس وجندى، لإخماد تلك الحركة إلى الأبد، وإحضار رؤوس المتمردين الثلاثة لتعلق على أبواب المدينة.

فانطلق الجيش الغفير يشق أراضى طليطلة نحو الشمال الشرقى بإتجاه مدينة سالم يقوده حفيد المأمون (يحيى بن ذى النون).

وصلت أنباء خروج جيش طليطلة سريعًا إلى مسامع الجيش المتحفز فى مدينة سالم. فقرر (خالد) بعد مشورة (عبدالرحمن) و (على بن القاضي) و(عبدالله بن الكاتب) الخروج لملاقاتهم فى الجبال قبل وصولهم لأسوار المدينة حتى يتسنى لهم نصب الكمائن ومباغتة الجيش الغفير، وحتى يكون لهم ملجأ آخر يلجئون إليه إن دارت الدائرة عليهم.

التقى الجيشان بالقرب من قلعة النسور فى وادى يقال له (وادى الدم) حيث شهد المعركة الأخيرة للحاجب (المنصور) والتى أصيب بها الإصابة التى أودت بحياته. ورغم كثرة عدد وعتاد جيش (يحيى) إلا أن (خالد) كان قد تمكن من نشر رماته فوق قمم الجبال المحيطة بالوادى فكانت له أفضلية التحكم فى ساحة

المعركة التى اشتد وطيسها وقُتل فيها خلقاً كثيراً، وقد صدق (خالد) وفرقته فى القتال، كما كان لعبدالرحمن الذى تولى قيادة الميمنة دور حاسم فى تمزيق شمل جيش يحيى، والذى ما أن أيقن بالهزيمة واستحالة تنظيم صفوفه مجدداً؛ انسحب بجيشه عائدًا إلى المدينة، فطاردهم (خالد) حتى قرى شقوبية وحصن طلمنكة والتى نجح فى دخولها والاستيلاء عليها أيضًا، إلى أن وصل وادى الحجارة فتوقف.

فرح أهل شقوبية وطلمنكة بخالد كثيراً، وقرر عدد غفير من شبابها الإضمام إليه.

استتبت الأمور سريعاً لخالد بشقوبية والحصن، حيث كان أهلها قد ضجروا من أفعال المأمون الأخيرة وكثرة الضرائب الباهظة التى زادتهم فقراً على فقرهم، كما أغضبهم أيضاً تجنيد أبنائهم قسراً والزج بهم فى حروب إخوانهم المسلمين.

قرر (خالد) أن يترك بالحصن حامية من خيرة جنده بقيادة (عبدالرحمن بن الفرج) ثم انطلق إلى مدينة سالم ليعيد تنظيم جيشه هناك مجددًا، وإقناع المزيد من أهلها بالإنضمام إليه، ثم الخروج إلى قلعة أيوب لضمها، وذلك ليقينه أن (المأمون) لن ينتظر كثيراً للخروج إليه ما أن يصله نبأ هزيمة جيشه.

وبالفعل استشاط (المأمون) غضبًا ما أن علم نبأ فرار حفيده، الذى بالغ فى توبيخه، ثم أمر بإيقاف مراسم العرس وتجهيز جيش طليطلة بالكامل للخروج لملاقاة تلك الشرذمة.

لاقى نبأ انتصار (خالد) على جيش المأمون قبولًا واستحسانًا كبيرًا عند أهل طليطلة والأقطار المجاورة، خاصة بعدما نجح (خالد) فى ضم قلعة أيوب لسيطرته، مما دفع بالكثير للانضمام إليه، فتكوَّن له جيش كبير، لكن كان أغلبه

من الشباب غير المدرَّب على فنون القتال، فرأى (خالد) أن تدريبهم وإعدادهم للحرب يحتاج إلى الكثير من الوقت، فأوكل إلى (على بن القاضي) مهمة تدريبهم فى أسرع وقت فالحرب الحقيقية توشك أن تقع.

فى هذه الأثناء؛ تفاجأ (خالد) بإرسال المقتدر (أحمد بن هود) صاحب سرقسطة يعلمه بأنه يؤيده فى حركته ويعرض عليه المساعدة، إلا أن (خالد) لم يقبلها؛ وذلك لعلمه بأطماع المقتدر فى مدينة سالم، وما كان يدور بين أبيه (سليمان) و (المأمون) من حروب شرسة من أجل استيلاء كل منهما على أراضى الآخر، فقد كان يرى (المأمون) أنه أحق بسرقسطة من (سليمان بن هود الجذامى) وذلك كونه خال القتيل (المنذربن يحيى) صاحب سرقسطة السابق.

كما أن (سليمان بن هود) قد أغار أكثر من مرة على مدينة سالم حتى إنه نجح فى الاستيلاء عليها فى إحدى المرات قبل أن يستردها المأمون.

فرفض (خالد) عرض المقتدر، رغم أن عرض كهذا من شأنه تغيير موازين القوى رأساً على عقب.

وما هى إلا أسابيع قليلة حتى جهز (المأمون) جيشًا عظيمًا وخرج على رأسه رغم ما به من آلام الشيخوخة، فما أن علم بذلك (عبدالرحمن بن الفرج) وكان يتحصن بحصن طلمنكة المنيع؛ حتى أرسل لخالد يعلمه بالأمر ويطلب منه التحرك لنجدته، وكان (خالد) قد ترك مع (عبدالرحمن) أغلب فرق الجيش المدربة كونها خط الدفاع الأول.

استعد (خالد) للخروج لنجدة صديقه، رغم أن جيشه لم يكتمل تدريبه بعد، لكنه خطب فيهم مُحفزًا ومُحمِّساً، وأخذ يشد من أزرهم، لكن تأتى الرياح بما لا تشتهيه السفن،حيث وصلت إليه الأنباء تفيد بإرسال (ألفونسو) قوات قشتالية

من الشمال لتغير على القرى والأراضى الحدودية وهى فى طريقها الآن إلى مدينة سالم للاستيلاء عليها، فقد عرض عليه (المأمون) التنازل عنها مقابل الإتيان إليه برأس (خالد).

أُسقط فى يد (خالد)، وأخذ يفكر، فإن هو ترك المدينة لقوات ألفونسو؛ حينها سيكون بين مطرقة النصارى من الشمال وسندان (المأمون) من الجنوب، فقرر أن يرسل إلى (عبدالرحمن) يطلب منه ترك طلمنكة وشقوبية والانضمام إليه فى مدينة سالم.

لكن لم يكد رسوله يغادر القلعة؛ حتى علم (خالد) بخروج (عبدالملك بن أبى عامر) هو الآخر على رأس جيش من بلنسية متوجهًا نحوه، حيث أغضبه تمرد (خالد) على صهره وتأجيل عرسه، فسارع إلى نجدته والانتقام من (ابن الحديدى) كى يثبت ولاءه (للمأمون) وجدارته بمصاهرته.

فتكالبت المصائب كلها فوق (خالد) فقد صار بالفعل محاصراً بين جيوش الممالك الثلاثة، ويقف وحيدًا بقواته الغير مدربة جيداً، وسيتحتم عليه الدخول فى معركة غير متكافئة بالمرة، فأشار عليه (على بن القاضي) بمكاتبة (المقتدر بن هود) وطلب العون والمساعدة منه، فوجد نفسه مرغماً على فعل ذلك.

قرر (عبدالرحمن) و(عبدالله بن الكاتب) الذى كان برفقته؛ عدم الهروب والدفاع عن أهل شقوبية وطلمنكة الذين ناصروهم، ومواجهة جيش المأمون وبالفعل اصطدم الجيشان، فأبلى القائدان بلاءً منقطع النظير فى الشجاعة والثبات أمام جيش (المأمون) الجرَّار، فقتلوا منه خلقاً كثيراً، إلى أن بلغ التعب والإجهاد مبلغه بجيش (عبدالرحمن)، فاحتموا بالحصن، لكنه لم يصمد كثيراً،

فبدأت الدائرة تدور عليهم، إلى أن قُتل القائدين (عبدالله) و(عبدالرحمن) الذى كان قد أُصيب بإصابات بالغة لفظ على إثرها أنفاسه الأخيرة.

لم يكتفِ (المأمون) بمقتلهما بل قام بالتمثيل بجثتيهما، وعلَّق جسديهما على باب المدينة.

ثم أمر جيشه بإستئناف الزحف صوب مدينة سالم، إلا أن قوات (ألفونس) و (ابن أبى عامر) كانت قد سبقته إليها، وبدأت بالفعل تدكُّ أسوار القلعة الحصينة التى احتمى (خالد) بجنوده خلفها؛ انتظارًا لمدد (ابن هود) الذى لم يأتِ.

ولم تصمد أسوار القلعة كثيرًا أمام الجيوش الثلاثة فانهارت، وانتقلت المعركة إلى شوارع المدينة وطرقاتها، فقُتل خلقاً كثيراً، وتحولت طرقاتها إلى جداول حمراء من كثرة الدماء المراقة.

وأصيب (خالد) بإصابات عديدة، ونزف نزفًا مميتًا، لكنه صمد إلى أن بدأت معالم الحياة تتسرب من عينيه شيئاً فشيئاً، لكن شيئاً واحد فقط ظلَّ متشبثًا به، هو وجه حبيبته (ليلى) فقد رآها تنظر إليه فى ألم بالغ وتحسر شديد، قبل أن يسقط عن فرسه فاحتضنته وأسندته إلى صدرها وظلت تمسح عن وجهه دماء وغبار المعركة، ثم أخذت تعاتبه قائلة:

"ألم أستجديك مراراً أن نترك هذا العالم الظالم، ونفر بحبنا بعيدًا عن هذه الدماء المروعة؟!" فأخذ يردد:

"سامحينى يا حبيبتى، سامحينى يا حبيبتى، إلى أن أظلمت الدنيا أمامه وغاب عن الوعى".

انتبه (على) إلى جسد (خالد) الملقى على الأرض، فقام بحمله على فرسه وانطلق به بعيدًا؛ خشية أن يمثل به (المأمون) كما فعل بأصدقائه، إلا أن فرقة

من جند (المأمون) تبعته، حتى لحقت به وهو على إحدى ضفتى نهر (خالون)، فأدركته إحدى سهامهم من بعيد، لكنه تحامل على نفسه حتى ألقى بجثة (خالد) فى النهر، الذى ابتلعها فى بطنه وأخفاها عن أعين الجند؛ ثم قاتلهم (على) بضراوة قتال اليائس المستميت إلى أن لفظ أنفاسه الأخيرة.

ما أن انتهى القتال حتى أمر (المأمون) جنده بالبحث عن (خالد) بين الجثث، فأخبره الجند بمقتله وإلقاء (على) لجثته بالنهر، ثم أحضروا له جثة (على) فأمر بصلبها هي الأخرى، وقام بإعدام كل من أيد دعوة (خالد) فنصبت المشانق عدة أيام، بعدها سلم مفاتيح المدينة لقائد قوات (ألفونسو) مكافأة له على مساعدته، ثم ترك المدينة ورحل لاستكمال عرس ابنته.

وفى طليطلة، كانت (ليلى) تنتظر فى خوفٍ وترقب نتائج الحرب الضروس التى تجرى فى الشمال، ولم يكن الحال مغايراً بالنسبة لـ (أبى بكر بن الحديدى) و (سعيد بن الفرج) اللذين ما أن نما إلى علمهما خبر مقتل ولديهما حتى انفجرا فى البكاء والنحيب.

بينما كانت (ليلى) لا تكاد تفرغ من الصلاة؛ فظلت تبتهل إلى الله وتدعوه ألا يفجعها فى أبيها أو حبيبها وأن تحدث معجزة لا تدرى ماهيتها فتنقذ كليهما من قسوة القدر القادم والمصير المحتوم.

لكنها فوجئت بقدوم والدها مظفرًا، ترفرف راياته فوق أسوار المدينة، وظل العامة يهتفون بإسمه، وراحوا يسبُّون ويلعنون العصاة المتمردين و الخوارج، بعد أن كانوا يدعون لهم بالأمس القريب أن تنجح دعوتهم وكأن شيئًا لم يكن، وهذا حال العامة فى كل زمان، لا يُمجَّد إلا المنتصر، حتى وإن كان ظالمًا، يكفيه أن يمتلك القوة اللازمة لإرهابهم وقمعهم إن هم خالفوه.

ثم علمت الأميرة بخبر مقتل (خالد) فى مدينة سالم، فانهارت مغشيًا عليها، وكان الضعف والهزال الشديد قد تمكنا من جسدها فانطفأ جمالها وصارت شاحبة اللون، كما أكلت تجاعيد الحزن وجهها النضر فصارت كأنها فى الخمسين من عمرها.

فى اليوم التالى استُكملت الاحتفالات بالنصر وبزفاف الأميرة معًا، لكنها لم تزف بل سيقت جثة هامدة لا روح بها ولا حياة إلى وكر (عبدالملك بن المنصور) فى بلنسية والذى كان قد علم من (يحيى) بما بينها وبين (ابن الحديدى) من عشق، فما أن رآها على حالتها تلك حتى بالغ فى إهانتها وتعذيبها فزادها إعياء على إعيائها، فكانت تلوذ بوحدتها تناجى حبيبها الراحل وتلومه على تركها فريسة وحيدة تتجرع قسوة هذه الحياة، تعاتبه كثيرًا سواء فى صحوها أو أثناء إغماءاتها المتكررة، كونها لم تعد تنام مطلقًا فكانت كثيراً ما تناجيه قائلة :

"ها أنت اليوم قد أخلفت وعدك يا (خالد) وتركتنى، أين عهدك ووعدك لى بأن تظل ملاكى الحارس وأنى سأجدك متى احتجتك، فها أنذا فى أشد حاجتى إليك لتنقذنى مما أنا فيه؛ فالحياة بعدك لم تعد تُحتَمل. لكنى سأظل أنتظركَ دوماً ".

****

"فى ذروة إمتلاكى لها؛ كانت هى تتسرب من بين أصابعى"

بدت الحياة وكأنها مقبلة نحونا بوجهها البشوش الباسم، ما جعلنا نغض الطرف عن مخالبها المتحفزة، ونتجاهل نظرات القدر المتوعدة، فأخذنا ننهل من ينابيعها الرقراقة العذبة حتى ارتوت جنائن الحب بداخلنا وازدهرت بساتين العشق برياض أرواحنا، إلى أن أقبلت ليلة رأس السنة تحبو نحونا شيئًا فشيئًا. تعدنا بمزيد من أنهار الحب المتدفقة وتغرينا بقادم أوقاته السعيدة، ظللنا نحادث بعضنا بعضًا فى الهاتف بينما ننتظر قدوم العام الجديد الذى تواعدنا بأنه سيكون بداية لصفحة جديدة بحياتنا بعد انتهاء تدريبى فى فبراير المقبل. ثم أغلقت معها الهاتف متمنيًا لنا عامًا مليئًا برضاء القدر وعامرًا بمباركات السماء لأحلامنا به.

حقًا لقد كانت نور يسعى فوق صفحات الأرض. تستمد منه الشمس ضيائها وفى المساء ينعكس سنا بريق عينيها الساحر فى الأفق، فيتفاخر البدر كذبًا بضياءه المختلس منها. وكان قلبها كبصائر وحى تُجلى ما دون الحجب المستورة وتُرفع فى حضرتها أسترة الغيب المسدلة.

لكن ما أن ألقيت الهاتف على الطاولة المجاورة للفراش حتى أفزعنى دوى إنفجار هائل إعتقدت فى بادئ الأمر أنه ربما يكون جزء من احتفالات العام الجديد، لكنى فوجئت ببعض أصوات المارة بالشارع تتحدث عن وقوع تفجير مروع بكنسية القديسين، نظرت من شرفة المنزل لأجد الجميع يهرع إلى هناك.

نهضت على الفور وذهبت إلى شارع خليل حماده بسيدى بشر، مكان الحادث، فكان المشهد كارثى بكل المقاييس، الضجيج والهلع يسيطر على المحيط كله. الأشلاء المتطايرة والدماء الساخنة تملأ أرجاء المكان. المشهد المروع للقتلى والمصابين. بكاء الأطفال. صرخات النساء وعويلهن يدمى القلب. سيارات الأمن وعربات الإسعاف والمطافئ تتوافد على المكان باستمرار، قمت بمساعدة الأهالى فى إسعاف ونقل المصابين بما لدى من خبرات أولية، اتجهت بعدها إلى مستشفى (مارمرقس) الذى يبعد أمتار قليلة عن مكان الحادث، وكان يستقبل جميع الحالات فى بادئ الأمر، لكن بعدها تم نقل الحالات الحرجة إلى مستشفى باب شرق.

كانت طرقات المستشفى تعج بحركات الأهالى الدؤوبة وأجساد المصابين الذين خضبت دماءهم أرضياتها بينما كانت تهتز جدرانها لآهاتهم وأنينهم.

بعد المشاركة فى إسعافهم، قمت بالتبرع بدمى وهذا ما استنزف ما تبقى لدى من طاقة، فأحسست بدوخة ودوار مفاجئ ما جعلنى أقرر العودة إلى البيت، كانت الشوارع مكتظة برجال الأمن الذين أغلقوا معظم الشوارع المجاورة للكنيسة بـ " كردونات أمنية ". حيث تظاهرت جموع حاشدة من الأقباط وأخذت تهتف " بالروح بالدم نفديك يا صليب ". كما تجمهر عدد كبير منهم أمام المسجد المقابل للكنيسة يريدون اقتحامه، ما دفع بعض الأهالى بشرفات المنازل المجاورة يهتفون " يحيا الهلال مع الصليب، تركت المشهد المحتقن الدامى، ثم وصلت البيت حيث كانت عقارب الساعة تشير إلى الرابعة صباحًا وارتميت بالفراش.

فى الصباح كانت معظم المواقع الإخبارية تتكهن بضلوع تنظيم القاعدة بالعراق بالتفجير إستنادًا لتهديداته السابقة وتوعده بتفجير كنيسة الأقباط بمصر عقب تفجير كنسية سيدة النجاة ببغداد.

ثم فوجئت بإعتقال السلطات لمحمود صديقى مع مجموعة من الملتزمين وأصحاب اللحى متَّهمين إياهم بالضلوع فى الأمر، بالطبع إستنكرت الأمر ولم أصدق أن (محمود) الذى أعرفه منذ الصبا قد يشترك فى أمرٍ مماثل، لكن كان ذلك هو رد فعل الشرطة المعتاد عند حدوث أى عمل إرهابى أو تخريبى.

كما فاجئنى أيضًا؛ ما كتبته (نور) أمس على صفحتها بالفيسبوك، معلقة على الحادثة كانت تشير بأصابع الاتهام إلى الجهات الأمنية إما بالتقصير أو بتورطها فى الأمر برمته، فهاتفتها محذرًا من عواقب جرأتها هذه، فقد كانت كتاباتها فى الفترة الأخيرة تفيض بالنقد اللاذع لسياسات الدولة اعتراضًا على تفشى الظلم والفساد والمحسوبية فى كل قطاعات الدولة، وغياب العدالة الاجتماعية وتقييد الحريات، خاصة بعد مقتل الشاب السكندرى (خالد سعيد) منذ عدة أشهر على يد بعض رجال الشرطة، لكنها اقتضبت حديثها معى وآثرت عدم الخوض فى جدالى بقولها:

"انتظر قليلًا، فجميع الحقائق توشك أن تبوح بخباياها".

ثم قطعت المحادثة متعللة بإنشغالها بإعداد مقالها الأسبوعى لتسليمه للجريدة غدًا، لتنقطع أخبارها فجأة دون تحذير أو سابق إنذار فكدت أجن حينها، فظللت طيلة ثلاثة أيام أحاول الإتصال بها، وأجوب الطرقات بحثًا عنها فى أماكن وجودها المعتادة كمكتبة الجامعة أو مكتبة الإسكندرية لكن دون جدوى، فقد اكتشفت أنه برغم علاقتنا القوية هذه، ما زلت لا أعرف لها عنوان.

فقد كانت ترفض بشدة فى كل مرة أرغب فى توصيلها لمنزلها دون إبداء السبب، فتوقعت أنها ربما لا تريد أن يراها أحد أقربائها أو جيرانها بصحبة شاب دون إرتباط رسمى يربط ألسنتهم، ثم بدأت الظنون السيئة تراودنى خشية أن يكون قد أصابها مكروه.

إلى أن هاتفتنى فى صباح اليوم الرابع لغيابها، فرحت فى البداية أطمئن أنها ما زالت بخير بعدها أفرغت فى وجهها ما كان بداخلى من شحنات قلق وخوف عليها، ربما كانت هذه هى أول مرة أعاتب فيها أحدًا على غيابه عنى، بل لقد كانت المرة الأولى التى يوجعنى فيها غياب أحدهم هكذا.

حينها أيقنت أنها بالفعل قد امتلكت كل شيء بى وأصبح مجرد الإبتعاد عنها يعنى هلاكى المحقق.

لكنها أخبرتنى أن مجموعة من زوَّار الليل داهموا شقتها فى ساعة متأخرة من الليل ثم اقتادوها معصوبة العينين إلى مكان مجهول ما زالت إلى الآن لا تعرف إحداثياته، لكنه بلا شك أحد مقاراتهم السرية، وظلت فى حوزتهم طيلة الثلاثة أيام الماضية، ثم فوجئت بعد الافراج عنها أن زملائها بالجريدة قد اختفوا أيضًا فى نفس الليلة من بينهم (حسام)، ولا يعلم أحد عنهم شيئًا إلى الآن.

ورغم أنه لم يكن لى أى احتكاك بهم من قبل، لكنى شعرت برجفة تهز أوصالى وانقبض صدرى بشدة فقد كان فى هذه الفترة مجرد ذكر اسم أمن الدولة يجعلك ترتعد خوفًا.

لكنى تمالكت نفسى وحاولت الإستفسار عن سبب احتجازها، فأخبرتنى أنها بسبب إنتقاداتها اللاذعة لأوضاع الشارع القائمة منذ وفاة (خالد سعيد). فقد كانت تحت مجهرهم منذ فترة، لكن مقالها الأخير بالجريدة الذى هاجمت فيه السلطات الأمنية مباشرة بسبب إستغلال قانون الطوارئ فى قمع وتقييد الحريات والذى راح ضحيته مؤخرًا (سيد بلال)؛ قد أغضبهم كثيرًا مما جعلهم يكشرون عن أنيابهم.

فتم ممارسة جميع أنواع الترهيب النفسى معها مما جعلها تعتقد أن عينيها لن ترى الشارع مرة أخرى، لولا أن تعرَّف إليها أحد الظباط حيث كان صديقًا قديمًا لوالدها قبل سفره وإكرامًا له أمر بالإفراج عنها لكنه همس فى أذنها مهددًا وهو ينفث دخان سيجارته فى وجهها بأن هذه مجرد قرصة أذن فقط إكرامًا لوالدها الميت ولأنها المرة الأولى لكن بعد ذلك سترى منه وجهًا آخر.

الغريب بالأمر أنها لم تُظهر أى خوف أو ندم جعلنى أشعر وكأنها تمتلك قوة عظيمة من الإصرار والعناد لا حد لها.

أما أنا فقد امتلأ قلبى بالخوف عليها، فحاولت إثنائها عن ذلك النفق المظلم، لكنها قالت فى تحد وعناد:

"لن أترك حق (حسام) وزملائى ولن أغض الطرف عن أى ظلم أو ظالم حتى وإن هلكت روحى دونه، فهذا حق قلمى علىَّ وواجبى تجاه الوطن الذى أنتسب إليه، وليعلموا أن ما حدث هناك قد زاد من عزيمتى وسأخطو فى طريق العدل والحرية إلى نهايته حتى لو وصل الأمر أن يزول النظام بأسره".

فأدركت يومها أنها قد تغيَّرت كليةً وأن قصتنا قد تراجعت للمرتبة الثانية فى قائمة أولوياتها، فقد تمكنت منها قضية أكبر وهدف أسمى وأعظم، إنها قضية الوطن الأسير وحلم مشروعٍ بِحُريَّة مفقودة طال انتظارها، لكنى استجديتها أن تلتزم الصمت حتى أراها اليوم خشية أن تكون ما زالت تحت المراقبة.

وبالفعل التقيتها قبيل الغروب، يومها بدا كل ما عرفته بها مختلف، كأنى أراها لأول مرة، لم تعد تلك الفتاة الرقيقة البريئة التى تثير مشاعر الحب والإحساس المرهف فى قلبك من أول وهلة، وتجعلك ترغب أن تضمها وتحنو عليها ما أن تتعثر عيناك بعينيها.

بل لقد بدت قوية أكثر من اللازم، تفوح من كلماتها ونبرة صوتها حدة وصلابة تشعرك أنك أمام امرأة حديدية أو زعيم قومى، حاولت كثيرًا الضغط عليها لتبوح بما جرى هناك لتتغيَّر طباعها هكذا، لكن دون جدوى.

يبدو أن الأمر كان بالغ التعقيد، فقد اكتست عيناها بحماسة متقدة وشجاعة عظيمة جعلتنى أكف عن محاولات إقناعها بالعدول عما هى مقدمة عليه، ثم فاجئتنى بأنها قد قررت مع مجموعة من الشباب على مواقع التواصل الإجتماعى النزول غدًا وكان هو يوم ٢٥ يناير إلى ميدان التحرير للتعبير عن إعتراضهم عما يجرى على أرض الوطن من ظلم وفساد. فصرخت بوجهها وانفعلت عليها حاثًا إياها بضرورة التخلى عن هذا التهور والإندفاع الطائش الذى سيوردها المهالك فلن يسمح لهم أحد بتغيير شيء بل لن يُسمح لهم حتى بمجرد الاعتراض. لكنها قالت:

"ألم تعلم بما حدث بتونس وكيف أدت صرخة مظلوم واحد إلى انهيار نظام بأكمله، فهذه الأنظمة الغاشمة كلها قد نخرها السوس منذ زمن فأصبحت هشة أضعف بكثير مما تبدو عليه".

ولأول مرة كشفت لى كليوباترا عن وجهها الآخر، فقد بدت وكأنها تقف متحفزة بلباس الحرب وسط أسطولها الأسطورى قابضة على مقبض سيفها وتلك الكوبرا المخيفة تتلاعب فوق كتفها وتبرز أنيابها الحادة من فمها المفتوح على مصراعيه، تتأهب للانقضاض على أعدائها.

ولما لم تجدِ يومها أى من توسلاتى، اضُطررت لطلب مرافقتها إلى القاهرة حتى أكون بجوارها وأضمن ألا يصيبها مكروه رغم عدم اقتناعى بهذا الطيش والتهور.

لكن يبدو أن القدر كان له رأى آخر فاستيقظت فى الصباح على صرخات والدتى التى هرعت إليها لأجدها ملقاة على بسطة السلم تصرخ من الألم حيث إنزلقت قدماها على درجات السلم، فحاولت بمساعدة أختى الصغرى حملها وذهبنا إلى المستشفى، وهناك أخبرنى الطبيب أن أربطة الركبة بها إلتواء وتمزق شديد يلزمه راحة تامة بالسرير، ثم طلب عمل بعض الأشعات ما أن تلتئم الجروح ويخف التورم قليلًا، لأنها قد تحتاج لإجراء جراحة بالمفصل، وبالفعل كان يبدو أن الألم فوق قدرتها على التحمل فلم أرها تتوجَّع بهذه الطريقة من قبل ولم تجدى معها فى البداية أيٍ من المسكنات العديدة التى وصفها الطبيب.

حملتها وعدت إلى المنزل، كانت الشمس فى طريقها للرحيل، لكن الطريق كانت مزدحمة وهناك العديد من التجمعات الشبابية المصطافة على جانبى الطريق يحملون لافتات مكتوب "لا للظلم والفساد". "لا للفقر والغلاء". "لا للواسطة والمحسوبية". "لا لقانون الطوارئ".

فتذكرتها وتذكرت وعدى إياها أمس بمرافقتها اليوم، فما أن وصلت المنزل حتى التقطت هاتفى الذى كنت قد نسيته بالبيت لأتفاجأ بعدد كبير من المكالمات الفائتة منها.

حاولت الاتصال بها لكن هاتفها كان غير مُتاح، فتحت التلفاز لأجد الجميع يتحدث عن تظاهرات الشباب بميدان التحرير بالقاهرة وعدد من المدن الأخرى كالإسكندرية والسويس والمحلة الكبرى وإنضمام العديد من الحركات السياسية إليهم مثل شباب ٦ أبريل وحركة كفاية والجمعية الوطنية للتغيير وعدد غفير من جموع المواطنيين بالإضافة إلى جماعة الإخوان المسلمين.

مما جعل السلطات تقطع شبكات المحمول والإنترنت عن المنطقة، وعلى النقيض تمامًا كانت قنوات التلفزيون الرسمى تنفى كل ذلك، فتحت حاسوبى ودخلت على مواقع التواصل الإجتماعى وبعض المواقع الإخبارية التى بدأت تشير إلى أن الأمر فى طريقه للخروج عن السيطرة نظرًا لتزايد أعدادهم باستمرار وبطريقة سريعة تفوق الوصف، فحاولت مجددًا الاتصال بها لكن دون جدوى، فبتُّ ليلتى أما التلفاز أتابع تطورات الأحداث فى شغف كبير وقلق بالغ عليها، ثم استقيظت فى الساعات الأولى من الصباح على هتافات المارة بالشارع، نظرت من الشرفة لأرى مسيرات حاشدة من المواطنين تجوب الشارع تندد بالظلم وتهتف "عيش حرية عدالة اجتماعية"

أحسست حينها بشعور غريب يبدو أنها كانت على حق، صرخة المظلوم فى وجه ظالمه كفيلة بتحطيم أعتى القيود، فتمنيت بشدة مشاركتهم إنتفاضتهم هذه لكن بالطبع لم أستطع ترك والدتى فى تلك الظروف خاصة وأن أختى الكبرى كانت قد سافرت منذ عدة أيامٍ إلى ألمانيا فى بعثة هناك للعمل وتحضير الدكتوراه.

****

ظلت الأوضاع فى مختلف الشوارع والميادين على حالتها المحتقنة تلك حتى الساعات الأولى من صباح الجمعة التالى، والذى فوجئت فيه بإنقطاع جميع وسائل الإتصالات اللاسلكية سواء شبكات الهاتف المحمول أو الانترنت عن القطر كله فأدركت أن العصر البائد بدأ يترنح وأن فجرٌ جديدٌ يوشك على البزوغ فى سماء المدينة العريقة وأن ثورة البركان الكامن منذ سنوات فى قاع البحر فى طريقها للاندلاع.

وبالفعل ما أن فرغنا من صلاة الجمعة حتى رأيت جموع الشعب على إختلاف أعمارهم وطبقاتهم تنتفض فى موجة غضب عارمة لم أعهدها من قبل، فلم أتخيل يومًا أنه ما زال بداخل هذا الشعب هذه الجرأة العظيمة على الغضب والثورة رغم تاريخه الحافل بالروائع والمواقف الخالدة لكن الواقع المزرى فى تلك الفترة كان مخنقٍ جدًّا ومخجل حد الرثاء.

ومن روعة المشهد وتفرده لم أشعر بنفسى إلا وأنا أهتف معهم بحماس بالغ وأصرخ بكل ما أوتيت من قوة فى مسيرات حاشدة كانت تجوب شوارع المدينة كلها.

لكن مع نهاية اليوم بدأت مناوشات عنيفة بين المتظاهرين وقوات الأمن التى اشتبكت معهم فى محاولات عديدة لتفريقهم تارة باستخدام المياه المندفعة من الخراطيم تحت ضغط عال، وتارة أخرى بقنابل الدخان والغاز المسيل للدموع أو استخدام الطلقات الصوتية لتخويفهم، فتحولت الشوارع إلى ساحات مطاردة ونوبات كر وفر كما يحدث فى مدن العصابات بين عناصر الشرطة والخارجين على القانون.

بعدها فوجئت بسيل من الطلقات الطائشة تحصد ما يعترض طريقها، لا أعلم كيف تجنبتنى يومها، فقد كانت تلتقط المتظاهرين من حولى بين الحين والآخر فيتساقطون كما تتساقط أوراق الشجر إما نتيجة إصابتهم بالأعيرة النارية أو جراء اختناقهم بقنابل الغاز والدخان، لتدهسهم الأقدام نتيجة للتدافع الشديد والهرولة العشوائية.

فقدرت أعداد شهداء المدينة فى ذلك اليوم زهاء التسعين شهيد.

ثم بدأ المتظاهرون يبادلونهم العنف بتحطيم مقار الحزب الحاكم وإلقاء زجاجات المولوتوف الحارقة على أقسام الشرطة التى احترق عدد كبير منها، ووجد

عدد كبير من البلطجية ومثيرى الشغب الفرصة سانحة ليندسوا بين المتظاهرين فبدأت موجة تخريب واسعة للممتلكات العامة والمحال التجارية والتى نهب الكثير منها.

ثم بدأ الناس يتحدثون عن الانسحاب المفاجئ لقوات الأمن من الشارع فيما عُرف لاحقًا بالفراغ الأمنى فاقتُحمت السجون وسُرقت محتوياتها من الأسلحة وهرب عدد كبير من المساجين من بينهم قيادات بارزة بجماعة الإخوان المسلمين، لتنتشر أعداد كبيرة من البلطجية بالشوارع.

ولقد علمت أن (محمود) كان قد تمكن من الهرب من سجون أمن الدولة، وذهب لوالده ليطمئن عليه ويطمئنه على نفسه، لكن سرعان ما ودَّعه وغادر كى يشارك فى ثورة الشباب، ثم اختفى ولم يُعثر على أثرٍ له من يومها.

لكنى رأيته ذات مرة على شاشة التلفاز؛ وسط جموع من الإسلاميين فى مظاهرة حاشدة أمام مسجد القائد إبراهيم تطالب الدولة بالإفراج عن زوجة أحد القساوسة والتى يزعمون أنها محتجزة بأحد الكنائس بعد اعتناقها للدين الإسلامي. لكنه عاد للإختفاء مجددًا.

ظهرت مطالبات بتشكيل لجان شعبية من الأهالى لحماية البيوت من البلطجية تحت حملة "احمى بيتك الكبير" فتذكرت أمى وأختى الصغرى فقد تركتهما منذ الظهيرة، لذا قررت الرجوع للمنزل لكن كانت وسائل النقل العامة والخاصة قد انعدمت تمامًا فاضُطررت للعودة سيرًا على الأقدام، وما أن اقتربت من المنطقة التى أقطن بها حتى وجدت شباب المنطقة بالفعل قد وضعوا حواجز ومتاريس على نواصى الشوارع وجلسوا بعُصيِّهم وأسلحتهم المنزلية يتفحصون الداخل والخارج.

دخلت المنزل بملابسى الرثة المتسخة نتيجة لابتلالها بماء الشرطة ثم إختلاطها بالتراب بسبب سقوطى المتكرر أثناء ركضى.

وجدت والدتى وأختى قابعتين أمام التلفاز تتابعان فى لهفة الأحداث الجارية وما أن رأتنى والدتى حتى تهلل وجهها فرحًا فقد خشيت أن يكون قد أصابنى مكروه.

وقد تفاجأت بعدم غضبها منى لتركها، بل لقد أخبرتنى فى نشوة وحماس أن البلد كلها تموج فى حالة فورة عارمة وغليان كبير.

نزعت ملابسى المهترئة لأكتشف العديد من الكدمات والسحاجات المتفرقة بجسدى، فاغتسلت ثم استبدلت ملابسى، وجلست بجوار أختى ووالدتى أمام التلفاز أتابع الأخبار بشغف بالغ.

وقد كانت كلها تتحدث عن إندلاع ثورة عارمة بالبلاد، وفشل الأمن فى التعامل معها مما أدى لموجات عنف شديدة سقط على إثرها عدد كبير من الشهداء من بينهم فتيات فى ربيع العمر وأن المشهد كان دراميًا جداً فى ميدان التحرير والشوارع المؤدية إليه حيث كانت الاشتباكات أكثر حدَّة هناك، مما جعل الرئيس يعلن بصفته الحاكم العسكرى؛ حظر التجوال ويصدر أوامره بنزول وحدات الجيش المصرى للشوارع لإحكام السيطرة، وحفظ الأمن بعد إنتشار قُطَّاع الطرق الذين أخذوا يفرضون إتاوات على المارة.

كما تزايدت أعمال النهب والسرقة بجميع الممتلكات وصلت إلى نهب البازارت الملحقة بالمتحف المصرى والإستيلاء على إيرادات العديد من محطات المترو، كما نُهبت العديد من البنوك والشركات والمحال التجارية ووصل الأمر لمحاولة إقتحام مطبعة البنك المركزى لولا تدخل قوات الجيش.

ثم بدأت إحدى القنوات تعرض صورًا لبعض الشهداء، فانخلع قلبى خوفًا على " نور " لأتفاجأ بصورتها الصامتة أمامى على التلفاز فانقبض صدرى فجأة واختنقت أنفاسى حتى إنى من شدة الهلع لم أتمكن من رؤية ما كُتب تحت صورتها.

لكن سرعان ما انتشلنى صوتها الحاد والذى كان أكثر رحمة بى من صورتها، ليخبرنى أنها ما زالت على قيد الحياة.

فقد كانت تراسل إلى إحدى القنوات الفضائية، فوجدتها تتحدث بلباقة وارتجال سياسى محنك، كأنها تمتلك شجاعة محاربة أمازونية وإقدام قائد مخضرم.

لا أبالغ إن قلت أن كلماتها ألهبت مشاعر الحماسة بداخلى، فقد جعلتنى أودُّ أن أصرخ أمام الجميع لأقول لهم هذه حبيبتى.

ثم تصدرت صورها معظم التقارير الإخبارية بالقنوات، من بينها صورة لها وهى تصرخ فى نوبة هياج شديدة بملامح غاضبة وقد تحولت عيناها الزرقاوان الحالمتان إلى عيون حادة شاخصة كالصقر وتندفع منها نظرات مخيفة متوعِّدة فى وجه قوات الأمن ومدرعاتهم التى وقفت مرتعدة أمام جرأتها النادرة، وكأنها لا تأبه لتهديهم بدهسها فكانت كجبل عتيق شامخ، حقًا لقد كانت كأسدٍ جسور يزأر بلا خوف فى وجه صياده.

حينها وجدت ما كنت أفتش عنه منذ أن رأيتها لأول مرة، فهذه المرأة بها قوة وتحد وعناد لا مدى لهم، وسيتحتم على أن أبذل عناء الدهر كله للاحتفاظ بها.

فى الصباح التالى ضجت الشوارع بالمسيرات الطويلة والهتافات الحماسية، وكانت والدتى تجلس بجوارى وما أن تسمع هتافاتهم بالخارج حتى تدعو لهم بالنصر

والثبات، تتابع الأحداث بلهفة أمام التلفاز وما أن يظهر وجه (نور) المتحفز حتى تدعو الله بأن يحفظها.

فكنت سعيدًا بذلك للغاية، وبدأت هى تلاحظ تلك الابتسامة التى ترتسم على شفتىَّ، لكنها لم تُعقِّب على ذلك.

ثم ذهبتُ بعدها إلى الشرفة لأشاهد المسيرات التى إكتظت بها الشوارع بينما امتلأت نوافذ وشرفات المنازل بالأهالى وهم يلوحون للمتظاهرين بعلامات النصر، لكنى تفاجأت بمسيرة عظيمة يتقدمها شاب محمول على الأكتاف، يصرخ فيهم فيرددون صرخاته خلفه، تحققتُ منه فكان هو (حسام حلمى) يصيح بعبارات مناهضة للنظام والظلم والفساد.

وكانت هذه هى المرة الأولى التى لم أمتعض فيها لرؤيته، بل على النقيض تمامًا ما أن إلتقت عيوننا حتى وجدت نفسى ألوِّح له بعلامة النصر ثم قبضتُّ على يدىَّ وكأنى أشد من أزره، فابتسم لى ابتسامة بدت صادقة نابعة من القلب هذه المرة، جعلتنى أشعر بالأسف والخجل لحكمى السابق عليه، فيبدو أنى كنت مخطًا كثيرًا بشأنه بينما كانت هى محقة بتمسكها الشديد به.

ثم شهدت الأيام التالية تأييد شعبى أكبر لثورة الشباب وانضمت إليها جميع طوائف الشعب خاصة بعد الموقف البطولى المشرف من جانب الجيش المصرى العظيم والذى اختار الانحياز لشعبه وأعلن تأييده لمطالبهم المشروعة طالما فى إطار من السلمية والتحضر، كما وقف بحزم للخارجين على القانون ومثيرى أعمال الشغب والبلطجة.

وقد ظلَّ المتظاهرون يفترشون الشوارع والطرقات، لا يكترثون لبرودة الطقس فى هذه الشتاء القارس، بل يتغنون ويتراقصون على أنغام أمطاره التى

تزورهم بين الحين والآخر لتغسل أرواحهم وتزيل عوالق الجبن والخوف التى ما زالت متشبثة بداخل البعض منهم.

ثم نُصِبت الخيام وأقيمت المنصات بمختلف الميادين، وظلت القنوات فى حالة بث حى لأحداث ووقائع الثورة، وكانت عدسات الكاميرات تتبَّع " نور " فى كل صولاتها وجولاتها بالميدان.

ترصد هتافاتها وصرخاتها وتبث خُطَبها الرنانة فوق المنصة الرئيسية والتى كانت تلهب جموع المتظاهرين فيهتفون خلفها، وفى إحدى المرات رصدتها الكاميرا وهى تعانق (حسام) فى لهفة وحرارة بالغة بعد أن دعته لإعتلاء المنصة ثم قدمته لهم على أنه بطل شعبى حارب الفساد بقوة، وعانى مثلهم من ظلم واضطهاد النظام، ثم ظلا معًا يخطبان فى المتظاهرين فى حماس بالغ.

لأشعر وكأن اللوحة قد اكتملت أمامى بعد أن اكتشفت مدى التشابه الكبير والإنسجام المتناغم بينهما، فقد بديا معًا لائقين للغاية، بينما بديت أنا وحدى غريبًا عن عالمهما الذى لم أنتمِ له يومًا بل لقد حللت عليهما ضيفًا ثقيلًا، مختلف عنهما كُليةً فى التوجه والطباع.

****

"غابوا عنّا فاشتقنا إليهم،
ثم إعتادوا الغياب؛ فتعلمنا النسيان"

بعد عدة أيام من الشد والجذب وما حوته خطابات النظام من نوبات ترهيب وترغيب عجزت فيها عن مواكبة سرعة تحول الأحداث بالميدان، جاء الرئيس ليلهب قلوب المصريين ويستعطف طيبتهم فى خطبة أعلن فيها عدم نيته الترشح مرة أخرى وأنه يرغب فى الموت ببلاده ليقرر كثير من المتظاهرين؛ العودة إلى المنازل وانتظار موعد الانتخابات القادمة.

لكنى تفاجأت فى الصباح بخبر اقتحام مجموعة كبيرة من البلطجية بالخيول والجمال للميدان ثم قاموا بالاعتداء العنيف على المتظاهرين مما أدى لسقوط عدد كبير من القتلى والجرحى، ليتحول التحرير بعدها إلى مستشفى ميدانى، فيما سمى بـ"موقعة الجمل".

لم أرَ أيًّا من "نور أو حسام" على التلفاز فى ذلك اليوم أو الأيام التى تلته ورغم عودة الإتصالات والإنترنت بعدها إلَّا أننى لم أستطيع الوصول إليها.

ثم أُعلن خبر تنحى الرئيس عن مهامه بعدها بعشرة أيام لتعُمَّ الأفراح والاحتفالات جميع ربوع الوطن.

فى هذه الأثناء؛ كان قد وقع العديد من التفجيرات بسيناء وبدأ يتردد على مسامع الجميع؛ اسم أحد الإرهابيين التكفيريين والذى كان يُدعى (أبو عمار المصرى) حيث يُعتقد أنه قائد تنظيم القاعدة بسيناء وهو المسئول الأول عن هذه العمليات التخريبية، وكان هذا الشخص ما هو إلا صديقى (محمود).

كان قلبى يعج بالقلق على (نور)، لذا ظللت مرارًا أطالع أسماء الشهداء راجيًا الله ألا تكون بينهم، إلى أن رنَّ هاتفى فى صباح اليوم التالى، فلم أصدق عيناى عندما لمحت اسمها على شاشته، فكدت أطير فرحًا، وبعد أن هنَّأتها على نجاح ثورتها؛ رحت أعتذر لها عن عدم مرافقتى إياها فى ذلك اليوم بسبب إصابة والدتى المفاجئة والتى أربكت كل حساباتى.

ثم أخبرتها أننى قد شاركت فى جمعة الغضب، كما كنت أتابعها كل يوم وأدعو لها.

كما أخبرتها فى سعادة أن والدتى تعشقها كثيرًا ولن تُصدِّق نفسها عندما أقدم لها تلك الفتاة القوية العنيدة التى أبهرت العالم أجمع على أنها حبيبة قلبى ورفيقة دربى.

لكن صوتها بدا مختلفًا كثيرًا عما عهدته عليه، حزينًا فى وقت لا يجوز الحزن فيه، فتسائلت فى نفسى عمَّا يكون قد أفسد فرحتها بنجاح هذه الثورة العظيمة التى أشعلت شرارتها الأولى ثم قادت تفاصيلها بنفسها وعاشت أحداثها الملحمية لحظة بلحظة حتى حققت حلمها الذى كان يعتقده الجميع أمرًا مستحيلًا.

ثم وجدتها تطلب منى مقابلتها، فغادرت المنزل فى عصر ذلك اليوم رغم برودة الطقس الشديدة حيث كانت السماء ملبدة بالغيوم، كثيفة السحب كحُبلى تتأهب لتضع مولودها فى أى لحظة.

لأجدها قد سبقتنى إلى المقهى، لألمحها من الخارج وقد انتقت لها مقعدًا يطل على الشارع مما سمح لى برؤيتها عبر زجاجه الخارجي.

بدت شاردة للغاية تحدق فى الفراغ، فلم تنتبه لوجودى بجانبها رغم أنه لا يفصل بيننا سوى ذلك الزجاج الشفاف، فرأيت ملامحها عاريةً تمامًا،

يبوح جسدها بكل أسراره للجميع ولم يعد يلفّه ذلك الغموض الذى أتعبنى كثيرًا فى محاولاتى السابقة لقراءاته، فكان كل ما بها يوحى بأن أمرًا عظيمًا قد حدث أو على وشك الحدوث.

سلَّمت عليها، فردت بسلامٍ باهتٍ بارد، وقد كانت برودته أشد من برودة ذلك اليوم، مما جعلنى أشعر ولأول مرة منذ لقائنا وكأنى غريبًا عنها، لا أنتمى لها مطلقًا، فاعتقدت أنها ربما غاضبة منى لأنى تخلَّيت عنها يوم سفرها إلى القاهرة، فرحت مجددًا أعيد على مسامعها أعذارى نافيًا عن نفسى تهمة الخذلان وعار الجُبن، لكنها ظلت شاردة محدقة بى وكأنها ما زالت لم ترَنى بعد.

****

الفصل التاسع

"وإن كنتِ الآن قد أخلفتِ بعهودكِ،
وصحبتِ العمر ورحلتِ
فأمنية العمر القادم؛
أن أجد بعدكِ فى البرد غطائى ومدفأتى"

فى بلدة صغيرة من أعمال مملكة سرقسطة، أخذ أحد المزارعين وكان شيخًا كهلًا بلغ من العمر أرذله، يتفقد أشجاره الجميلة التى أوشكت أن تثمر، ويتفحص أزهاره الحسان التى يفوح عبيرها فى دلال وخيلاء يعطر أرجاء المكان عبقًا وانتشاء، ثم ذهب إلى باب بستانه الرائع المطل على أحد جداول (نهر خالون) العظيم والذى يسبقه بعدة فراسخ هناك على مرمى النظر إحدى شلالاته الجميلة المنسابة فى مشهد خلاب آسر يذهب بالعقول.

أخذ الشيخ يعدل مسار مياهه العذبة الرقراقة لتأخذ مجراها ودورتها المعتادة داخل بستانه الجميل المتسربل بباقة فريدة من شتى أصناف النباتات والأشجار البديعة والنادرة، لكنه تسمَّر فجأة فى مكانه حينما وقع بصره على تلك الملابس الطافية والتى لفظها النهر فجأة أمامه كأنه يقصده هو واحتفظ بها فى جوفه ينتظر قدومه.

كان من السهل على هذا الشيخ الجليل الذى تفوح من عينيه ملامح الحكمة والفراسة أن يدرك منذ الوهلة الأولى أنه زى أحد الفرسان وبخاصة إن كانت ما زالت تحوى جسده الطافى بداخلها.

"إذا جلست بجانب النهر فترة فحتمًا سترى جثة عدوك طافية" تمتم بها الشيخ، قبل أن يستجمع ما تبقى لديه من قوة واعترض طريقه بعصاه الطويلة ثم أخذ يقربه من الضفة الواقف عليها لكن لم يسعفه جسده الواهن فى انتشالها من الماء؛ فنادى على ابنه الشاب الذى أتى على الفور وقفز فى الماء وقام بمساعدته فى إخراجها.

نزع عنها الشيخ ملابسها المهترئة المخضبة بالدماء، فهاله مشهد الجسد الممزق بالكامل كعيون الغربال، فلا يوجد به موضع إلا وطبعت عليه طعنة رمح أو ضربة سيف، لكن برغم برودة الأطراف الزرقاء المتيبسة إلا أن صدره كان به دفء غريب وكأن قلبه ما زالت به بقايا روح وحياة أبت أن ترحل مع باقى الجسد الميت إلى عالم البرزخ، أو أن الموت نفسه هو من ضنَّ عليه برحمته فتركه يتجرع قسوة ومرارة الحياة.

قام الشيخ العجوز بالضغط بشدة عدة مرات متتالية على صدر الفارس بطريقة متمرسة، ليندفع من جوفه فجأة، سعال عنيف، كادت تخرج معه بقايا روحه المتشبثة بجسده الميت لكنه أفرغ على إثرها ما ابتلعه من ماء النهر.

ثم وضعه الشيخ بجوار النار التى أوقدتها زوجته العجوز، وحاول تضميد ما استطاع من جراحه العديدة، وساعده على احتساء شراب دافئ، أعدَّه من بعض الأعشاب التى جمعها ومزج عصارتها مع بعضها، فقد كان يبدو عليه أنه يعرف ماذا يصنع جيدًا. وكيف لا؟! وهذا الشيخ العجوز لم يكن إلا (ابن بصال) عالم النباتات الشهير، وصاحب كتاب (الفلاحة) والذى أوكل إليه (المأمون) مهمة العناية بحدائقه وبساتينه، فاستطاع أن يزرع فيها فاكهة الرمان وشجر التين فى أى وقت من السنة، كما أولى اهتمامًا خاصًا بالورد والياسمين والسوسن الأزرق وقسمها إلى أحواضٍ بديعة.

لكنه كان قد اعتزل الناس ومجالس الملوك فى أواخر أيامه، وعكف على إجراء تجاربه على النباتات فى بستانه الخلاب.

ظل العالم الكبير طويلًا؛ يداوى فى جراح الفارس، الذى كانت تنتابه حمى شديدة بين الحين والآخر تفقده وعيه لعدة أيام، ثم تهدأ لفترة وجيزة، لكنها ما تلبث

أن تعود مجددًا، وكأنه لن يبرأ أبدًا، وكان خلال الحمى؛ يهذى بكلمات وهمهمات غير مفهومة، يبكى حتى تتحشرج أنفاسه وكأنه يحتضر، يناجى أشباحًا بالغرفة لا يراها سواه، ثم يعتذر لأحدٍ بشدة فيرفع صوته عاليًا وهو يقول:

-سامحينى لن أتركك مجددًا، رجاءً؛ انتظرينى قليلًا، فأنا فى الطريق إليكِ. لكن ما يلبث جسده أن يتخشب فجأة وكأن الروح تخرج منه، ثم يهدأ مرة واحدة، ليصير رخوًا كعود الريحان.

استغرق (ابن بصال) قرابة الشهر فى مداواة الشاب المسكين، حتى رآه يفتح عينيه الزائغتين لأول مرة؛ فبادره قائلًا:

-حمدًا لله على سلامتك يا (ابن الحديدى)، لقد لفظك النهر ورفضك الموت، فيبدو أنه ما زال فى قدرك أمرًا عظيمًا لم يكتمل بعد يا (خالد)، قالها (ابن بصال) وهو يقدم مشروبًا دافئًا إلى (خالد) الذى مد يده فى شرود يسأله أين أنا؟! وماذا حدث؟، فطلب منه (ابن بصال) أن يهدأ وينتظر حتى تتحسن حالته قليلًا، وسوف يخبره بكل شيء.

بعد عدة أيام تحسنت صحة (خالد) وجلس مع (ابن بصال) فقال له:

-تعجز الكلمات عن شكر صنيعك يا شيخى الجليل، وأدعو الله أن يعينى على رد ولو جزء يسير منه، ليثنيه (ابن بصال) عن الإسهاب فى مديحه. ثم سأله (خالد) عن أحوال طليطلة، فأخبره (ابن بصال) بإحكام (المأمون) السيطرة عليها مجددًا، وإخماد كل الثورات التى اندلعت ضده، ثم أخبره نبأ زفاف الأميرة (ليلى) على المظفر (عبدالملك بن المنصور)، فاغتمَّ (خالد) كثيرًا وأصابته الحمى مجددًا، وصار يهذى باسم الأميرة ليلًا نهارًا، ففطن (ابن بصال) للأمر، فما أن تعافى (خالد) حتى

طلب منه الإفصاح عما بداخله، فأخبره (خالد) بأمره، فرثى (ابن بصال) لحاله كثيرًا.

وأراد (خالد) أن يراسل والده سرًا ليطمئنه بأنه ما زال بخير، لكنه تراجع عن الأمر خشية أن يعلم (المأمون) فيظن أن أبيه يتآمر ضده، فأخبره (ابن بصال) بأنه يستطيع التواصل مع أبيه دون أن يشك أحدٍ بأمره، وسيخبره بكل شيء في أقرب فرصة.

ثم ترك (خالد) البلدة بعدما تحسنت صحته وتعافى، وودَّع (ابن بصال) الذى فشلت محاولاته العديدة لإثنائه عن قراره، لكن (خالد) قال له::

-دعنى يا عماه، فأنا رجل عليه دَين عظيم للقدر، ولا بد من ردِّه قبل موتى.

كانت الممالك الأندلسية كلها بحالة يرثى لها وبخاصة الثغور العليا؛ فقد بدأ النصارى في الاستيلاء على أراضيها الواحدة تلو الأخرى.

فنصحه (ابن بصال) بالرحيل إلى إشبيلية عند (المعتمد بن عباد) وأخبره بأنه سيتوسط له عنده؛ لما بينهما من علاقة طيبة حيث عمل (ابن بصال) ببستانه زمانًا، لكن (خالد) أصر على الذهاب إلى (المقتدر بن هود) صاحب سرقسطة، وذلك تنفيذًا لوعده السابق إياه بمساعدته متى احتاج إليه، وبالفعل ما أن رآه حاكم سرقسطة؛ لم يصدق عينيه، وبالغ في الترحيب والحفاوة به وقربه إليه، ثم أوكل إليه فرقة من خاصة جنده لعلمه بخبرات القائد الكبير.

وقد كان الصراع ما زال محتدمًا بين (المأمون) والمقتدر(أحمد بن سيمان بن هود)، فكل منهما يطمع في ملك الآخر، وهذا ما كان يرنو إليه (خالد) حتى يتمكن من الانتقام من المأمون.

وقد أتت الفرصة لخالد؛ حينما وقع نزاع بينهما على مدينة (وادى الحجارة) وكان أهلها منقسمين إلى قسمين: قسم يميل إلى (ابن هود) والآخر يميل إلى (المأمون)، فعاجل (أحمد بن هود) بالخروج إليها بجيش عظيم تحت قيادته، وانضمَّ له (خالد) وفرقته.

وبعد قتال طويل وحروب ضارية استبسل فيها (خالد) وأظهر مهاراته وفنونه القتالية الفائقة وبمساعدة أيضًا من أهل المدينة تمكن القائدان من دخول المدينة وإحكام السيطرة عليها، فأثار هذا العمل غضب (المأمون) خاصة عندما علم أن (خالد) ما زال على قيد الحياة وعاد ليتحداه مجددًا، فتحرك بجيوشه مسرعًا إلى مدينة (وادى الحجارة) ليتابع بنفسه أمر هذه المدينة وحدث النزاع والقتال وكانت حرب ضروس ثبت فيها جيش (ابن هود) واستبسل فى القتال وكان لفرقة (خالد) التى عُنى بتدريبها ورفع مستواها القتالى إلى أقصى الحدود، فكان لها الدور الأعظم فى ترجيح كفة جيش (ابن هود)، أما (المأمون) فقد فرَّ إلى مدينة (طليرة) وتحصن بها، فتبعه المقتدر (أحمد بن هود) و(خالد) وحاصروه بها، وظل الحصار مدة، فقرر (خالد) دخول المدينة وهدم أسوارها، لقتل (المأمون) بيده، إلا أن (أحمد بن هود)؛ انسحب بجيشه، عندما علم بخروج أخيه (يوسف المظفر) حاكم لاردة، للإغارة على سرقسطة، فأعطى أوامره للجيش بالعودة، فانصاع له (خالد) مكرهًا.

وأمام ذلِّ الهزيمة المخزى؛ أخذ (المأمون) يبحث عن فرصة ينتقم فيها من (ابن هود) و (خالد) ففاوض ملك قشتالة وطلب عونه مقابل أن يدفع له إتاوة، فأخذ (ألفونسو) يهاجم مرة أخرى الأراضى الإسلامية، وينهب ما بها من سبى ومتاع بل ومحاصيلٍ أيضًا، حتى إنه لم يدع ما يقتاته الطائر، كما أخذ (المأمون) يُغير على

أراضى (ابن هود) المجاورة له وينشر الفوضى والتخريب والفساد فى أراضى المسلمين.

وفى سرقسطة؛ ظلَّ (خالد) يتحسس الأخبار عن حبيبته المفقودة فى قصر (بن أبى عامر) لكن دون جدوى، فقد انقطعت أخبارها التى كانت يومًا ما تملأ أرجاء الأندلس كلها، كما نشأت علاقة صداقة قوية بين (خالد) وشاب شديد الطموح، يدعى (أبو بكر بن عمار)، والذى كانت تفوح منه ملامح الذكاء والدهاء.

ثم اشتد النزاع بين ابنى (سليمان بن هود)؛ المقتدر أحمد و يوسف المظفر، وأضمر كل منهما فى نفسه الحقد والشر لأخيه، لكن ما أغضب (خالد)؛ هو التصرف المشين للمقتدر، حينما وقعت مجاعة فى مدينة (تُطيلة) فاستعاد أهلها بالمظفر، فجمع لهم المؤن والأطعمة، لكنه خشى من غدر أخيه المقتدر؛ فراسل (سانشو راميريث بن ردمير) ملك أراغون، يستأذنه بمرور المؤن عبر بلاده مقابل مبلغًا من المال فوافق، لكن المقتدر ضاعف المبلغ لسانشو راميريث ليمكِّنه من قافلة أخيه، لينتهى الأمر بمذبحة مروعة للقافلة على أيدى جنود المقتدر، وذهبت القافلة للنصارى.

لكن الفاجعة الكبرى التى جعلت (خالد) يثور على المقتدر ويترك سرقسطة كلها، تلك المذبحة العظمى التى حلَّت بأهل بربشتر على أيدى النصارى حيث كانت من مدن الثغر الأعلى وكانت فائقة المنعة والحصانة وكانت تحت حكم (يوسف المظفر)، لكنها تعرضت لحملة عسكرية دعا إليها البابا (إسكندر الثانى) فى روما، فانطلقت الحملة من إقليم نورماندیا بشمال فرنسا، وشارك فيها (سانشو راميريث).

فقاوم أهل بربشتر مقاومة باسلة حتى كادوا يموتون عطشًا بعد فرض الحصار عليها أربعين يومًا، ففاوضوا النورمانديين على التسليم مقابل الأمان، فوافق الفرنج، لكنهم غدروا بهم بعد فتح أبواب المدينة، وارتكبوا مجازر مروعة، ورغم توسلات (خالد) للمقتدر بالخروج للدفاع عن المدينة وأهلها إلا أن المقتدر تخاذل عنها وترك أهلها لمصيرهم المشئوم، فأصابته بذلك معرَّة كبيرة.

****

فى بلنسية؛ ظلت الأميرة (ليلى) على حالتها التى تفطر القلب، فقد حرص (عبدالملك) على عدم وصول خبر وجود (خالد) بسرقسطة على قيد الحياة إلى (ليلى)، كى تظل على إعتقادها القديم بمقتله فى مدينة سالم، لتتدهور صحتها أكثر وأكثر، فقد تخلّى عنها الجميع سوى مربيتها (سيليا) والتى رحلت معها إلى بلنسية، فكانت تحاول جاهدة التخفيف عنها لكن دون جدوى.

فذُلَّت الأميرة الحسناء كثيرًا، واختفى جمالها الفريد، خاصة بعد تمكن المرض منها والذى بدأ ينهش فى جسدها النحيف يومًا بعد يوم حتى أوشكت على الهلاك.

لكن مربيتها (سيليا) حاولت إنقاذها، وجازفت بالخروج سرًا والذهاب إلى طليطلة لإعلام (المأمون) بأمرها قبل فوات الأوان، وهناك علمت (سيليا) أن (خالد بن الحديدى) ما زال حيًا يرزق بسرقسطة وأنه قد دخل فى حروب جديدة مع (المأمون) وقد تمكن له الأمر هناك؛ فسرت لذلك كثيرًا، وقررت العودة إلى بلنسية مرة أخرى لتسعد الأميرة بهذا الخبر السار؛ رغم علمها بما ينتظرها هناك من مخاطر وعقاب محتمل على أيدى (عبدالملك بن المنصور).

ما أن علم (المأمون) بما حدث لابنته من تعذيب وسوء معاشرة، حتى أرسل إلى (عبدالملك) يهدده ويتوعده إن لم يحسن إليها، لكن لم يكن هذا ليغير من طباع (عبدالملك) وخلقه الفاسد، فظلَّ على حاله، بل قام بسجن مربيتها (سيليا) ما أن عادت من طليطلة، ولم يدعها ترى الأميرة؛ رغم توسلاتها، فانقطع بذلك عنها البلسم الوحيد الباقي لها، لتفتح إحدى الجوارى باب حجرتها ذات يوم؛ فتجدها جثة هامدة، متقوقعة في جانب من الحجرة، وقد فاضت روحها إلى بارئها.

وماتت الأميرة الحسناء، زهراء طليطلة وزهوها، مهجة القلب وغاية المنى، وما أن علم (المأمون) بموت ابنته حتى جن جنونه.

فأرسل إلى (عبدالملك) يخبره بقدومه لينقل جثمان ابنته بنفسه إلى طليطلة، فدخل بلنسية بعد أن استقبله (عبدالملك) خارجها وبالغ في ضيافته وإكرامه، فبقى (المأمون) على حال الضيافة عدة أيام، بعدها قام بمعاونة الوزير (أبو عبدالله محمد بن عبدالعزيز) بالقبض على (عبدالملك) وابنه ونفيهما خارج بلنسية، ثم أقام الوزير (ابن عبدالعزيز) على حكم بلنسية.

****

ما أن وصل نبأ وفاة الأميرة (ليلى بنت المأمون) إلى (خالد)؛ حتى انهار وأخذ يدفع برأسه للحائط حتى سالت الدماء من جبهته بغزاره وهو يبكى كما لم يبكِ من قبل، فهرع إليه خادمه وجاهد ليمنعه من ذلك، لتسودّ الحياة مجددًا في وجهه على ما بها من سواد قائم، ليقرر (خالد) النزول على رأى (ابن بصال) القديم والرحيل إلى إشبيلية عند (المعتمد بن عباد) فما زال يحمل كتاب (ابن بصال) الذى طالبه بإعطاءه له فور لقاءه، فلجأ إليه (خالد) خاصة عندما علم بالمخاصمة التى وقعت بينه وبين (المأمون)، بسبب غدر (المعتمد) به بعدما عرض عليه أن يترك له

قرمونة، حيث كانت قريبة من المعتمد وبعيدة عن حكم المأمون وقد ملكها المأمون عقب تنازل (العزيز بن إسحاق البرزالى) رئيس بنى برزال وحاكم قرمونة فقد رأى أن يبتعد عن المعتمد الذى كان فى حرب طاحنة معهم عن طريق التنازل للمأمون عنها وعن جميع بلاده مقابل بلاد أخرى من بلدان المأمون.

فخاطب (المعتمد) المأمون سرًا؛ وعرض عليه ترك قرمونة له مقابل مساعدته فى الإستيلاء على قرطبة، فجاء العرض مغريًا جدًا للمأمون الطامع فى قرطبة ولكن بعد أن ضمن المعتمد قرمونة بالرجال والأسلحة لم يف بوعده.

رحب صاحب إشبيلية بخالد وبالغ فى إكرامه والحفاوة به، خاصة بعدما قرأ كتاب (ابن بصال)، لكن (خالد) ذُهل ما أن رأى صديقه القديم (أبا بكر بن عمار) فى بلاط المعتمد، يأمر وينهى، حيث كان صديقًا حميمًا للمعتمد منذ مرحلة الصبا، ولكن والده (المعتضد) نفاه إلى سرقسطة عندما رأى تأثيره الكبير على ولده، لكن بعد وفاة والده بالثياب المسمومة التى أرسلها له ملك الروم؛ سارع المعتمد إلى استدعاء (ابن عمار) وعرض عليه ما شاء من مناصب الدولة، فصار وزيرًا لحكومته.

سهَّل وجود (ابن عمار) الأمور كثيرًا لخالد بإشبيلية، فعُيِّن قائدًا على فرقة من أكفأ جنده يتولى تدريبهم وقيادتهم، فأثبت (خالد) كفاءته فى وقت قصير وخاض العديد من الحروب فى جيش (المعتمد)، إلى أن قرر المأمون مهاجمة قرطبة، حيث توجه إليها بجيشه وكان يحكمها فى ذلك الوقت (عبدالملك بن جهور) والذى ما أن علم بقدوم (المأمون) حتى أسرع إلى (المعتمد) حليفه يطلب منه العون والمساعدة.

فتحرك المعتمد إلى قرطبة ومعه كبار قواده وعلى رأسهم (خالد ابن الحديدى) الذى أتاح له القدر فرصة أخرى للإنتقام من (المأمون) وبقرطبة

اندلعت الحرب، فأبلى فيها (خالد) وفرقته بلاء حسنًا، وكان هدفه الأول هو قتل (المأمون) لكنه استطاع الفرار إلى طليطلة بعد أن لحقت به هزيمة نكراء.

ودخل جيش (المعتمد) قرطبة، وأقام ابنه (سراج الدولة) واليًا عليها وأبقى معه القائد (ابن مرتين) في جماعة من الفرسان، كما أمر (خالد) بالوقوف بجانب ولده وإعانته على إحكام سيطرته على المدينة.

تجول (خالد) في شوارع مدينة الزهراء العريقة، وكان بريقها قد خَفت بعد تشييد المنصور (محمد بن أبي عامر) لمدينة الزاهرة وانتقال الحكم إليها، كما خفت بريق حبيبته (ليلى) بعد رحيلها إلى بلنسية وسجنها هناك، بل بعد خذلانه لها وتركها تواجه مصيرها الغاشم وحيدة، فلم يتمالك القائد العظيم دموعه وانفجر بالنحيب.

فأخذ (خالد) على عاتقه مهمة توزيع الجند على المدينة وتسيير أمور الدولة وتوفير الأمن والحماية لأهالي المدينة وللتجار القادمين إليها والعمل على حل مشاكلهم بينما كان واليها (سراج الدولة بن عباد) والقائد (ابن مرتين) يلهوان في أحضان النساء والجواري تتلاعب الخمر برأسيهما طيلة الوقت متجاهلين نصائح (خالد) وتوجيهاته، فضاق بهما ذرعًا وخاطب (المعتمد) بما يدور في المدينة، فطلب من ولده الاستقامة والعدول عن تصرفاته الطائشة، وطلب من (خالد)؛ أن يصبر عليه، لكن الأمور بدأت تأخذ منحنىً آخر، فبدأ (خالد) يحتد عليهما، وكثرت بينهم المشاكل، فخاطب (خالد) المعتمد يستأذنه في العودة إلى أشبيلية ورغم رفض المعتمد لطلبه، ورغبته في أن يظل (خالد) بجانب ابنه إلا أنه أصر على ترك المدينة والرحيل إلى إشبيلية.

ومع رحيل (خالد)؛ وجد (الحكم بن عكاشة) ضالته وكان قائدًا لأحد الحصون المجاورة لقرطبة فاتصل بالمأمون وأخبره بأن لديه القدرة على إزالة حكم (ابن عباد) من قرطبة والوصول لحكمها، فاستجاب له (المأمون) وأيَّده بالعُدة والعتاد، وبالفعل توجه (ابن عكاشه) إلى قرطبة وتمكن بمساعدة قوم من شيعته؛ فتحوا به بعض أبواب المدينة فدخلها ووصل إلى دار ابن جهور؛ سكن الأمير (سراج الدولة)؛ بخيله ورجاله دون أن يشعر به أحد، وبعد صراع فى ساحة الدار تمكن من قتله ثم توجه إلى دار (ابن مرتين) فوجده على حال السكر فقتله هو الآخر، بعدها دعا ابن عكاشة (المأمون) لدخول المدينة فقدم من بلنسية ودخلها.

وما أن وصلت تلك الأخبار إلى المعتمد حتى استشاط غضبًا لمقتل ابنه وضياع قرطبة من يده وألقى اللوم كله على (خالد) لتركه المدينة، فأمر بسجنه إلا أن صديقه (أبو بكر بن عمار) شفع له عنده فعفا عنه (المعتمد بن عباد). خاصة بعدما وعده (خالد) بأنه قادر على دخول قرطبة فى أى وقت، فله شيعة وعيون كثيرة فى كل شبرٍ بالمدينة، وهم على أهبة الإستعداد لمساعدته متى شاء، فأمره (المعتمد) بتجهيز الجيش والزحف نحو قرطبة مجددًا لإستردادها، والإنتقام من (الحكم بن عكاشة) و(المأمون بن ذى النون)، فسُرَّ (خالد) كثيرًا بالأمر لعلمه بوجود (المأمون) بها.

فأسرع بالخروج إليها، لكنه علم وهو فى الطريق بمقتل المأمون مسمومًا على يد (ابن عكاشه)، بعد نزاعٍ كبير نشب بينهما، فقد وجد المأمون (ابن عكاشه) مجترًا على الملوك وأراد أن يفتك به، إلا أن (ابن عكاشه) فطن للأمر، فدسَّ له السم فى الطعام بمساعدة بعضٍ من خدم القصر.

فلم يجد (خالد) تفسيرًا لحزنه ما أن علم بخبر وفاة (المأمون) فقال لمن حوله: -سامحه الله؛ أورد نفسه وأهله المهالك بجشعه، ثم وجدها (خالد) فرصة سانحة لدخول المدينة فقرر استكمال المسير إليها وانتزاعها من (ابن عكاشة).

فى هذه الأثناء، كان الصراع فى طليطلة على أشده بين (أبو بكر ابن الحديدى) و(يحيى) حفيد المأمون، خاصة بعدما سلَّم له (المأمون) أمر المدينة قبل خروجه إلى بلنسية وقرطبة، ورغم تأكيد (المأمون) عليه بالأخذ بمشورة (ابن الحديدى) والإستعانة به والنزول على أمره إلا أن الفتى الطائش كان يرى أن حكمه لن يستقيم إلا بعد الخلاص من (ابن الحديدى)، كما أنه لم يغفر له ما فعله ابنه (خالد) وما ألحقه به من هزيمة نكراء، فألصق به معرَّة ما زالت تقضُّ مضجعه كل ليلة.

فما أن علم بوفاة جدِّه (المأمون) بقرطبة؛ حتى طلب من الوزير (أبو بكر بن الحديدى) الذهاب إليها لإحضار تابوت جده حتى يدفن بطليطلة، ووافق (ابن الحديدى) لما كان بينه وبين (المأمون) من عشرة وألفة طويلة، لكن (يحيى) تقلَّد أمور الحكم فى غيابه ولقَّب نفسه بالقادر، ثم أرسل جماعة من حاشيته خلف (ابن الحديدى)، ودبَّر مكيدة لقتله بمساعدة نفر من جواسيسه بقرطبة، وبالفعل وصل (ابن الحديدى) إلى قرطبة ودخل قصرها واستلم تابوت المأمون، وفى أثناء عودته كان أعوان (القادر يحيى) قد نصبوا له كمينًا بين جبال المدينة انتظارًا لقدومه، وما أن اقترب (ابن الحديدى) من الجبل حتى تفاجأ بخروج ابنه (خالد) من شعابها بجيشه، فقد علم بما يدبر من مكائد لأبيه عن طريق أحد أعوانه بالمدينة، فتحول بجنده إلى الجبل وتخلص من القتلة المتربصين به.

فتقابل الإبن مع أبيه لأول مرة بعد سنوات طويلة من الغربة والتشرد فى أنحاء الأندلس، ودار بينهما حديث لطالما افتقده كلاهما، فقصَّ عليه (خالد) ما مرَّ به من أمورٍ عجاب، حتى أن الموت ذاته قد رفضه وأعاده إلى الحياة مجددًا، ليتجرع نصيبه من الشقاء فى أغبر الكاسات، فأخبره أبوه، بما آلت إليه أحوال طليطلة من خراب وتدهور فى أواخر حكم (المأمون) وضيق أهلها به وبعائلته بسبب ضرائبه الباهظة التى أرهقتهم نظرًا لتطلعاته التوسعية.

كما حدثه عن (القادر يحيى) وما ينشب بينهما من خلافات بسبب تهوره وفساد أخلاقه، هنا أخبره (خالد) أن لديه معلومات تفيد بتورط (القادر) بهذه المكيدة التى أعدت لقتله، وطلب منه عدم العودة إلى طليطلة، لكن أبوه أخبره بأنه قد قطع على نفسه وعدًا للمأمون قبل وفاته، وأخذ عليه المواثيق الغلاظ، ليقف بجانب حفيده حتى يستقيم حكمه، ويعلو شأنه بين أهل طليطلة، فلولا البطانة الفاسدة التى تحيط به لتحسنت أحواله، ورغم إصرار (خالد) على أبيه بعدم الذهاب؛ إلا أنه لم يستمع إليه وأثر العودة.

فتركه (خالد) وسار إلى قرطبة بجيشه، فاستطاع بمساعدة أعوانه من دخول المدينة والقبض على (ابن عكاشه)، ثم انتظر أمر (المعتمد) الذى أشار عليه بقتله، فقطع رأسه وأرسلها إليه انتقامًا لمقتل ولده (سراج الدولة).

تولى خالد أمور المدينة مجددًا انتظارًا لقدوم المعتمد و (ابن عمار) إليها وعمل على إعادة النظام إلى شوارعها وأحيائها، حتى قدم المعتمد فسلمها إليه.

بعد دفن (المأمون) بطليطلة، كانت المدينة العتيقة على أعتاب ثورة عارمة، لكن يحول دون وقوعها الشيخ (أبوبكر بن الحديدى) والذى كان يحاول جاهدًا إقناع أهلها بالصبر على القادر (يحيى) وتصرفاته الطائشة وعدم اهتمامه

بمشاكلهم أو العمل على تحسين أحوالهم المعيشية التى بلغت فى تدهورها مبلغًا عظيمًا.

لكن على الجانب الآخر، ظل القادر (يحيى) فى رعونته وتهوره، وكان على قدر كبير من الضعف والهوان وقلة المعرفة وسوء الرأى وضعف الشخصية، تابعًا لكل من يوجهه، إمعة فى أمره وذلك بسبب نشأته فى حياة الترف والنعيم، حيث تربى فى أحجار النساء والدايات ونشأ بين الخصيان والغانيات، عاكفًا على شرب الخمر، ولا يكاد يفارق حاشيته الفاسدة، كما اعتاد أن يفعل فى حياة جدِّه (المأمون)، فذات مرة؛ كان يجلس بجوار جدَّه، فجاءت إحدى جوارى (المأمون) لتصب له الماء فأخذ (يحيى) يغازلها وهى تصده، فانتبه المأمون لما يدور، فطلب منها الإفصاح بالأمر وإلا أنزل بها العقاب فأخبرته بما كان من حفيده، فتوجه له (المأمون) قائلًا:

ألكَ بها حاجة؟ فسكت (يحيى) خجلًا فقال له المأمون:-

-إذن فهى لك، خذها واختلى بها فى هذه الحجرة. فأخذها (يحيى) ووطئها

بعدما بلغ التدهور مبلغه بالمدينة؛ احتد الوزير (ابن الحديدى) على القادر فى النصح وذكَّره بوعده لجده (المأمون) فلم يأبه له، وبالغ القادر فى الحنق عليه وإبعاده عن أمور السلطة، بل وبدأ يدبر المكائد للخلاص منه مجددًا، لكن فطن (ابن الحديدى) للأمر هذه المرة، فقرر الإبتعاد عن القصر والتزام داره، لكن القادر أرسل إليه يعطيه الأمان ويقسم له بأغلظ الإيمان أنه لا ينوى له شرًا وأنه يحفظ له فضله ومكانته عند عائلة بنى ذى نون كلها ويطلب منه مسامحته على قسوته فى معاملته ويستجديه الوقوف بجانبه حتى يستطيع إحكام أمور المدينة مجددًا، ورغم حذر (ابن الحديدى) الشديد وعدم ثقته بالقادر، إلا أن تدخل الفقيه (ابن المشاط) قاضى كونكة طمأنه، حيث كانت بينه وبين (ابن الحديدى) ألفه سابقة،

وبالفعل ذهب الوزير إلى قصر القادر ليشدَّ من أزره، لكن الأمر ما كان إلا مكيدة لإستدراجه، وكى يبعد عن نفسه شبهة الأمر هذه المرة، ترك الأمر لقوم من (بنى اللوارنكى) و (بنى مغيث) حيث كان الوزيرقد تسبب فى سجنهم فى عهد المأمون، فمكن لهم القادر قتل الشيخ (أبى بكر بن الحديدى).

فاهتزت جنبات طليطلة كلها لمقتله وهب الجميع بالسلاح من أجله وسادت بمقتله ضجة وفتنة عظيمة، فسارع القادر إلى (الفونسو) يدفع له الأموال الطائلة لإعانته على إخماد الثورة، غير آبه بسيطرة (الفونسو) على أراضى طليطلة الواحدة تلو الأخرى، مما زاد من كره القادر أكثر وأكثر فى نفوس أهل طليطلة.

فكان مقتل (ابن الحديدى) هو أول مسمار دُقَّ فى نعش المملكة، حيث ثارت جموع أهالى المملكة بأسرها لمقتله، وقرروا الإنتقام من القادر(يحيى)، لكنه فرَّ سرًا إلى (الفونسو) ليحتمى به وترك المدينة دون والى عليها، فسادت الفوضى والخراب فى أنحاء المدينة.

وفى قرطبة، قضى خبر مقتل (ابن الحديدى) على ما تبقى بجسد (خالد) من حياة، فجُنَّ جنونه، وأقسم على أن يقطع رأس القادر بيده، حتى وإن تعلق بأستار السماء، وطلب من المعتمد السير بجيشه ودخول طليطلة، لكن المعتمد رفض وتعذر بانشغاله بتثبيت أمور حكمه بالمدينة.

فترك (خالد) قرطبة وانطلق وحيدًا إلى طليطلة، فما أن وصلها، وجد أهلها قد خاطبوا (المتوكل عمر ابن الأفطس) حاكم بطليوس ليحكمهم، لكن لم تتغير أحوال المدينة فى عهده كثيرًا، لأن (ابن الأفطس) لم يهتم بها جيدًا.

فأصبحت المدينة العريقة التى كانت يومًا ما تشع توهجًا وحياة، أشبه بمدن الخراب والأشباح، وكأنها مريض على حافة الإحتضار، تلفظ أنفاسها الأخيرة قبل

خروج الروح منها، فقد ماتت طليطلة بالفعل بعد رحيل زهراءها عنها، فقد كانت هى روحها وبهجتها، وبعدها صارت كالجسد الخاوى، الذى يترنح يمنة ويسرة فى تخبط دون وعى، وما هو إلا وقت قصير وسيسقط هامدًا خامدًا إلى الأبد.

كما يبست أشجار حدائقها العظيمة وذبلت أزهارها الفاتنة من فرط حزنها وافتقادها ليد ساقيتها وراعيتها، فدفعها حنينها واشتياقها إلى الهلكة والإنتحار، فلا توجد حياة جديرة بأن تحيا بعدها، وخرِّبت مكتبة المدينة الكبيرة وسرقت أغلب كتبها النادرة.

حاول (خالد) البحث عن شيخه (ابن قرديال) وسط فوضى المدينة، لكن دون جدوى.

على الجانب الآخر، ظلَّ القادر (يحيى) يبحث عن مناصرين له، فلم يجد ضالته سوى فى (ألفونسو) غاضًا طرفه عن أمر (زايدة) زوجة جده (المأمون) التى فرت إلى ملك قشتالة عقب وفاة (المأمون) فبنى بها (ألفونسو) وأنجب منها ولده الوحيد (شانجة).

لكن (ألفونسو) أظهر للقادر تعاطفه فى بادئ الأمر، ورغبته فى ردِّ فضل جدّه عليه، لكنه لم يتحرك إلا بعد أن طلب أموال طليطلة ثمنًا لمساعدته، وأخذ حصن (سرية) و(قورية) رهنًا لديه بعد موافقة القادر على ذلك، لكن (ألفونسو) ما أن ملك الحصنين حتى زاد من تحصينهما ووضع عليهما حامية قوية ورفض ردّهما للقادر، ثم قام (ألفونسو) بدخول طليطلة بعد فرار (المتوكل بن الأفطس) منها إلى بلاده.

وأخذ (ألفونسو) من القادر (يحيى) أموالًا طائلة مقابل مساعدته حيث أحضر له القادر جميع الذخائر النفيسة الموروثة عن أبيه وجده بعد عدم قبوله بجميع أموال طليطلة، كما أجبره (الفونسو) على أن يشترى منه حصنًا قريبًا من طليطلة بمائة وخمسين ألف مثقال خالصة وخمسمائة مدى من طعام ضيافة، كما أخذ حصن (قنالش) رهنًا لديه.

وكان ضعف وذل القادر أمام (الفونسو) من الأمور التى زادت من كره أهل طليطلة له مما دفع البعض إلى الفرار إلى حكم (ابن هود).

بينما فرَّ (خالد) إلى حصن مجريط وهناك لحق به شيخه (بن قرديال) مع جماعة كبيرة من أهل طليطلة، فتحصنوا بالحصن معلنين خلعهم للقادر واستقلالهم بالحكم وذلك بعدما توفى الفقيه (ابن مغيث) والذى تزعم المعارضين لحكم القادر.

سُرَّ (خالد) كثيرًا بلقاء شيخه (ابن قرديال)، وقصَّ عليه أخباره، ليخبره الشيخ بأنه قبع فى سجن (المأمون) سنوات عديدة ولم يستطع الخروج إلا بعد أن عمَّت الفوضى بطليطلة بعد هروب القادر منها.

قرر (خالد) الذهاب إلى بلنسية، ما أن علم برغبة القادر فى الذهاب إلى هناك، حيث لم يعد يطيقه أحد بطليطلة، فسبقه (خالد) إليها، وهناك رحب به حاكمها (عثمان بن محمد بن عبدالعزيز)، لما كان بينه وبين أبيه فى السابق من علاقة وطيدة أثناء وجود (خالد) بالمدينة فى زمن الفاسق (عبدالملك بن أبى عامر)، فتوطدت علاقة (خالد) بالقاضى (ابن جحاف)، لكن جاء نبأ تسليم القادر (يحيى) طليطلة إلى (الفونسو) كالطامة الكبرى، التى أثارت أغضب جميع ممالك الأندلس، وكان ذلك مقابل أن يُعيِّنه (الفونسو) قائدًا على بلنسية،، فعزم (ابن عبدالعزيز)

على الرفض لكن (خالد) والقاضى أقنعاه بالقبول خشية دخول (الفونسو) المدينة، ورغبة فى قدوم القادر إليهم للانتقام منه.

وملك (الفونسو) طليطلة، وتزامن مع وجوده بها؛ ظهور (حنين اليهودى) بشوارع المدينة مجددًا، حيث كان قد لجأ إليه بعدما فرَّمن (خالد) ما أن اكتشف أمره فى وادى الموت، وظل فى كنف (الفونسو) فأطلعه على نقاط ضعف المدينة كلها، ومكافأة له فقد أوكل إليه (الفونسو) مهمة العناية بحدائق وقصور المملكة، فعاث اليهودى فسادًا بالمدينة وبمعالمها الأسطورية قدر استطاعته كما قام بتخريب حوضى البيلتين لرغبته فى معرفة سرهما.

فقدم القادر (يحيى) إلى المدينة والكل يلعنه، وما أن دخلها؛ حتى ثار عليه أهلها بقيادة القاضى (ابن جحاف) الذى قبض على القادر، ثم ترك أمره إلى (خالد).

وقف خالد أمام القادر يحيى، وهو يتذكر أن هذا البلاء العفن؛ سبب تكدير حياته كلها، بدءً من ضياع حبيبته وموتها ومقتل أبيه على يده، حتى ضياع مملكة طليطلة بأسرها، فرفع سيفه البتَّار عاليًا فى الهواء ثم هوى به على عنق القادر فنحرها، ثم طِيف برأسه فى شوارع وطرقات بلنسية كلها، فهلل الناس لمقتل هذا الخائن، ثم رُميت جثته فى سبخة و روث، فواراها فيما بعد رجل احتسابًا وصدقة دون أجر.

****

"عندما يتصدع الحب؛ رجاءً لا تحاولوا ترميمه، فكلها محاولات فاشلة"

كانت الأجواء بداخل المقهى أكثر دفئاً، وبدت هى فى ذلك اليوم متألقة جداً، رغم ارتدائها للأسود القاتم وكأنها فى حدادٍ، ورغم ركام الأحزان العميقة النائمة بعينيها، كما لو أن حسنها الفريد هو ما يضفى رونقاً خاصاً ويعطى جمالاً استثنائياً للموجودات من حولها.

وبينما كانت الخلفية الموسيقية للمقهى تعزف سيمفونية الخريف لشوبان والتى لا أدرى أهى من اختارتها لتتناسب مع خصوصية اللقاء أم لا؛ كانت قطرات المطر تتسلل خلسة كل حين من سماء المدينة لتحتضن زجاج المقهى الخارجى الغير مكترث بها فترحل مثقلة بخيباتها كدموع فراق تشق دربها فوق وجنتى عاشق مكلوم. لتجعل من المشهد كله مع برودة الشتاء بالخارج لوحة رومانسية فريدة لكنها ذات طابع كئيب بعض الشيء.

كانت تقرأ كتابًا مفتوحًا بين يديها، ثم تأخذ رشفة من فنجان القهوة القابع أمامها على الطاولة والذى مازلت تتصاعد منه الأبخرة، ويبدو أنها كانت مبحرة فى عالم سحيق جدًا، حيث مازلت لم تنتبه بعد لوجودى مما دفعنى للاستئذان قبل الجلوس على المقعد الشاغر أمامها، فانتبهت فجأة، لتحدق بى للحظات مرَّت متثاقلة يغلِّفها الصمت، جعلتنى أتيقن من انطباعى الأول، لقد عادت من هناك امرأة أخرى غير التى رحلت منذ بضعة أيام، ليستفز الأمر غضبى وكبريائى بدرجة كبيرة، حتى بدأ يختلج بصدرى هاتف يطالبنى بالتماسك وعدم إظهار اشتياق المحب ولهفة العاشق لكنى لم أستجب له.

فقلت برغم برودة مشاعرها المتجمدة كالثلج وقسوة ملامحها المتحجرة كالصخر:

"لقد افتقدتك كثيرًا سيدتى، ويبدو أنى لم يعد لى طاقة ولا قدرة على تحمل الحياة بدونك فغيابك صار موجعًا جدًّا". ثم أردفتُ محاولًا فك طلاسم وجهها العابس وإذابة جمود قلبها قليلًا:

"لكن يبدو أنكِ قد تجاوزت الأمر بسهولة" لترد بطريقة رسمية متجاهلة حديثى: مرحبًا بك، لقد أسعدنى كونك مازلت بخير بعد كل هذه الفوضى. فقلت بعد أن أدركت ما ترمى إليه: كما تعلمين المنزل أأمن بكثير من الشارع. فقالت بلا مبالاة وهى تداعب الفنجان الفارغ بين يديها بعد أن أسندت ظهرها للوراء:

"أتعلم أن (حسام) أُصيب بشلل فى ساقيه، جراء اعتداء البلطجية عليه فى موقعة الجمل، فقد تعثرت قدماى وأنا أركض أثناء الفوضى فسقطت على الأرض وقد أيقنت بالهلاك لولا أن الأرض انشقت عنه فجأة ليحتضننى ويتلقى العديد من الضربات القاصمة فوق ظهره ولولاه لكنت الآن فى عداد الشهداء الذين تمنيت كثيرًا لوكنت واحدة منهم".

بدأت الأمور تتجلى أمامى شيئًا فشيئًا، فقد كان عقلى فى حالة يقظة تامة، يستشف ما وراء الكلمات. يحلل كل حرف ينطق به لسانها وكل حديث تفشيه عيناها، فقلت بعد أن أظهرت التأسف على ما آل إليه وضع غريمى:

"لقد نال شرف ما بعده شرف، يكفيه أنه شارك فى إنجاح حلم شعب بأكمله وتوج كفاحه النبيل فى النهاية بالحفاظ على حياتك الغالية". فقاطعتنى قائلة "لا لم ينته الأمر عند هذا الحد التتويج الحقيقى سيكون الأسبوع القادم بزواجنا، فقد خطبنى أمس وقبلت".

هوت الصدمة علىَّ كصاعقة زلزلت كيانى كله، ولولا أنى أعرفها جيدًا وأدرك الجدية الشديدة فى حديثها، لقلت إنها مزحة سخيفة بل غاية فى السخافة، بعدها أكملت معقبة "لقد طلبتك اليوم لأدعوك لتشهد عقد القران لأنه سيكون مقتصرًا على أصدقائنا المقربين فقط، وأنت تدرك ما لك من مكانة لدى أنا وحسام لذا نرجو أن يكتمل الأمر بوجودك ومباركتك".

بعد تحديق طويل بها، أدركت خلاله أن قرارها كان إقرار نهائى منها وأمر حتمى واقع لا محالة، ومحاولات الاستجداء بدت لا جدوى لها ولا طائل منها، هكذا علمتنى سابقًا مشاهد الوداع ولحظات الفراق، الطرف الأضعف المستجدى وقتها دائمًا هو الخاسر النادم فيما بعد، وأكثر ما سيؤلمك هو لحظات ضعفك حينها لذا تماسك وتظاهر بالقوة قدر استطاعتك حتى وإن كان قلبك يقطر دمًا، تجاهله تمامًا، فجراحه ستلتئم بمرور الوقت، لكن إياك أن تذل كبرياءك يومًا، فجراحه لا تندمل.

فكانت القسوة خطيئتها وكان الكبرياء خطيئتى وحين إلتحمت الخطيئتان كان الفراق مولدهما، كما قالت (غادة السمان).

لكن الأمر الذى لم أتوقعه يومًا هو أن تنتهى حكايتنا سريعًا وبهذه السهولة، كنت أعتقد أن وداعنا سيكون دراميًا وملحميًا أكثر، مليء بمشاهد البكاء والنحيب والعيون الغارقة فى دموعها، والأيادى المتشبثة بالأخرى تأبى الفراق لكن يدًا خفية تشبه يد القدر الظالمة تنتزعها رغمًا عنها، أو ربما ستسبقه العديد من المناوشات والإرهاصات التى تنذر بإقترابه، فتذيب قليلًا من جبال المشاعر الكامنة بداخلنا، لكن أن يتلاشى كل شيء دفعة واحدة هكذا.

أن يتبدد الحلم الكبير فجأة وكأنه راهب متعبد قُتل غدرًا بصومعته أو مجنى

عليه نُفذ فيه حكم الإعدام قهرًا وظلمًا. فهذا ما لم يخطر ببالى يومًا.

فكنت كما قال الدكتور مصطفى محمود

"لست أخاف من امرأة شريرة لأن شرها يجعلنى أحتشد لها بكل أسلحتى، أما المرأة الفاضلة؛ فإنى أخافها وأرتعد منها لأن فضيلتها تجعلنى ألقى بكل سلاحى وأضع روحى بين كفَّيها بلا تحفظ"

ظلت محدقة بى تنتظر تعقيبًا منى لكنى خيبت أملها هذه المرة، كما خيبتْ أملى بها. وآثرت الصمت لا كبرياء منى بل لعجزى التام عن الكلام.

وظللت شاردًا فى تلك اللوحة المعلقة على جدار المقهى وقد كانت صورة لإحدى الموانئ القديمة، وكان الميناء خاويًا سوى من تهاطل المطر، وتلك السفينة من بعيد تشق عباب البحر، فأيقنت أنه قد آن أوان الرحيل.

بعدها مر الوقت بطيئًا، رتيبًا، ثقيلًا، ليفزعنى هزيم الرعد بالخارج، وانتفاضة السماء معلنة غضب الطبيعة على المدينة، فجاءت ومضات البرق الخاطف تتعاقب كخناجر تشق قلب السماء السوداء، وأبواق الرعد تضرب الأجواء كصيحات عذاب تصم الآذان، فأفقت من غفلتى لأجد المقهى خاويًا تمامًا. فهكذا عُدنا غرباء كما بدأنا، وهكذا رحلت من حياتى دون وداع لائق، كما اقتحمتها من قبل بلا استئذان واجب، لكنها تركت خلفها كيان مهزوم محطم وفنجان قهوة فارغ يرتجف فوق صحنه وكتابًا كان بحوزتها منذ قليل وما زالت صفحاته تتقلب ذاتيًا.

كان بى من الفاجعة والألم ما جعلنى أعزم على أن ألعنها فى كل لحظة أتذكرها بها، كما سألعن ذلك القدر الأحمق الذى جمعنى بها يومًا، وتلك الأيام التى قضيتها معها، فلن أتذكرها بالخير ما حييت.

وكان أعظم ما أثار جنونى وغيظى؛ هو ثباتها الكبير وتماسكها فى ذلك اليوم، حتى أنّى لم أرى دمعة واحدة تغادر عينيها، وكما يقولون؛ الدموع مخلوقات فضولية كلما حدث شيء مؤلم خرجت لتشاهد، إذًا فراقنا لم يؤلمها.

وحكايتنا ما هى إلا مجرد علاقة عابرة، تمكنَتْ من تجاوزها بسهولة، أما أنا فأشعر بأن العالم قد تهدم فوق رأسى ولا حياة بعدها.

فجلَّ وعود النساء خضراء فى البداية، بَيدَ أن شجرة الحياة يلتحف لحائها بأنياب الشوك، لذا تحت الضغط دائمًا ما تسوء الأمور.

ثم وقعت عيناى على كتابها الذى تركته على الطاولة، تناولته فوجدته رواية " مازلت أنتظرك "، لكن كان مكتوبًا فى أول صفحاته هذه المرة تلك العبارة:

"لقد كنت على يقين وأنا أكتب هذه الرواية، أنها ستُغيّر مجرى حياتى للأبد، سألتقيك، سأحبك، بل سأعشقك حد الجنون، لكنى فى النهاية سأرحل عنك، فهذا هو قدرنا القديم، ولا فرار منه، وأذكر أنك قد وعدتنى يومًا أنك ستحبنى كما أحببتك بلا مقابل، ومثلك لم يكن ليخلف وعدًا قطعه على نفسه، لذا رجاء تذكرنى بالخير دائمًا، فسنلتقى مجددًا، ستجمعنا موانئ الرحيل وأرصفة الوداع مرة أخرى وتذكر أن المتعة دائمًا ما تكمن فى الرحلة ذاتها، وليست الغاية التى ننشدها، وإنى راحلة اليوم؛ لكنى هناك سأظل دائمًا فى انتظارك فانتظرنى"

"حبيبتك نور (زهراء طليطلة)"

فذهلت من كلماتها تلك وقلت فى نفسى "أيعقل أن تكون هى زهراء طليطلة؟! وهى من كتبت هذه الرواية؟!"

****

"سيفوز بكِ غيرى، وستكثر بعدكِ عشيقاتى، ولكن سيبقى افتقاد أحدنا للآخر شبحًا يطاردنا"

الليلة أتجول هائمًا شاردًا فى شوارع المدينة، التى أصبحت أشبه بمدن الأشباح فى العصور الوسطى، وكأنها قد خُضِّبت بشتى ألوان الكآبة والهموم.

ولا أدرى أضاقت شوارعها إلى ذلك الحد أم أن صدرى لم يعد يتسع حتى لأنفاسى. تلفحنى رياح الحزن فلا أجد ما يسترقلبى منها.

تتناوب على روحى المبعثرة شتى أصناف الوجع. تُخِيفنى أبواق السيارات، وصراخ الباعة والأطفال فى الشوارع، يرتجف قلبى مع كل زفرة كأن ساعتى قد حانت.

وكأنَّ قطار الزمن قد عاد بأدراجه وعرباته كلها حفنة أيام إلى الوراء وكعادته لم يكن لِيَنسَ أن يجرَّ معه عاداتى السيئة كلها؛ السهر حتى الصباح، الإسراف في الشراب، التدخين بشراهة وإدمان القهوة مجدداً.

وكحصان حرب أنهكته رحى المعارك عدت لأسكن أحضان النساء مرة أخرى لكن تلك المرة صار الإضطراب والقلق الغير مبرر أولى سماتى. توتروعصبية مفرطة ومتطرفة لأتفه الأسباب وأحيانًا بلا أسباب، فقد صرت أشبه بحيَّةٍ صُفعت على وجهها فانتابتها نوبة هُياج وراحت تلدغُ كل ما يعترض طريقها.

وكنتيجة حتميَّة لكل ذلك كان لا بد لضيف قديم أن يعود هو الآخر ليشاركنى بلا دعوة أو استئذان طقوسى القديمة، ويشفى صدره قليلًا بالتلذذ بزفرات أنينى وتأوهاتى، إنها آلام المعدة المزمنة تعود مجددًا وتُلقى بظلالها وأشواكها على حياتى الكئيبة الرتيبة.

وكأن طول الغياب تلك المرة قد أصقلها وصنع منها وحشًا كاسرًا فصارت كالآكلة تنهش أحشائِي، وتنخر بلا رحمة قوائم الجسد الواهن المشرف على حتفه، فلم تعد تُجدى معها عقاقير أو أى من الوصفات القديمة.

وبرغم ذلك كان هناك وجعٌ آخر أشد وطئًا وأحرُّ جمرًا يكوى جزءًا آخر من أحشائى فأصبح جسدى كشاةٍ تُشوى حيَّة فوق أجيج النار.

عدَّت إلى البيت وأنا أشعر أن حياتى كلها قد سرقت فى غفلة منى، وأعد نفسى لليلٍ طويل من الفراق وريثما يطلع الصباح؛ ستلفنى الكوابيس كالكفن وسأستيقظ كالعادة على صوتى وأنا أنادى بإسمها كما أبدعت (غادة السمان) فى الوصف.

ثم صرت من يومها أشعر وكأنى محتجزٌ داخل حلقة زمنية مفرغة، أقبع فى حيز البرزخ بين عالم الحياة واللاحياة. فقد اختلفتْ وتداخلتْ لدى المفاهيم كلها، حتى أصبح ما هو صواب خطأ، وتحول الخطأ إلى صواب.

وكأنى أتجول فى عالم افتراضى، تحيط بى هالات الوهم والشك من كل الاتجاهات، تاريخ مزيف وحقائق مزورة، كل ما حولى صار وهم وضلالات، أتساءل كل يوم لما الحياة؟! لما المضى قُدمًا فى طريق مظلم لا أمل فى انقشاع عتمته؟! وفى عالم لا وجود فيه لما هو مطلق أو منطقى أو مؤكد؟

حتى ثوابتى وقناعاتى ومسلماتى التى لو كان طُلِبَ منى سابقًا أن أقسم بأغلظ الأيمان على ثبوتها وحتميتها لن أتردد لحظة واحدة، لكنى اكتشفت الآن أنها ما كانت إلا مجرد خيالات و توهمات لا أساس ولا جذور لها وإنما هى أمور نسبية متغيرة، وتختلف كليًا من إنسان لآخر، ومن كائن لآخر.

والحقيقة أن حياتنا كلنا عبارة عن مجموعة شموس تدور فى أفلاكها، ما أن تأفل شمس حتى يبزغ فجرى، تدور وندور معها فى مجموعة الأفلاك والمجرات، حلقات ودوائر مغلقة ولا يسمح لأحدٍ بالتوقف عن الدوران أو الخروج منها.

فهكذا نحن، وتلك هى طبيعتنا التى فُطرنا عليها، بل وعلينا أن نتقبل وبصدر رحب أننا نحيا داخل هذا العالم سجناء حواسنا بقدرات وإمكانات محدودة، بل ومحدودة جدًا. وهكذا صرت أنا ؛ على درب الحياة أمضى أجر حطام الذكريات، بلا خارطة طريق و بلا معالم أو حتى أهداف.

لم تعد الحياة تغرينى كالسابق، فلم تعد تغرينى مغازلات القمر، ولا مداعبات ورود الحديقة، أرشف قهوتى الصباحية فتستحيل ناراً تكوي صحارى الربع الخالى من خواء جوفى، أنظر للحياة خلف نافذة لطم زجاجها المطر، أرى أشباحاً و أشباه مخلوقات بوجوه باهتة شاحبة يطلق عليهم بشر، فقد تيبست المعالم من حولى وتبلد كل شىء وتوارى القدر خجلًا.

لم أعد أهتم بما يتساقط منِّى من أشياء، سواء تساقط بعضى، أو تساقط كلِّى، حتى تلك الروح التى تسرى بجسدى؛ صرت أشعر أنى لم أكن يومًا جديرًا بحملها.

واكتشفت أن مشكلتى الحقيقية هى أننى أقدر قيمة الأشياء جيدًا، وهذا ما يبكينى دمًا على فقدانها، ولكن هذا أنا، لا يمكننى الإحتفاظ بأى شئ، مازوشىُّ

أتلذذ بتعذيب نفسى، وحرمانها مما أحب وأشتهى، أتمتع بامتلاك الأشياء فى البداية ثم ما ألبث أن أشتهى فقدانها، بل وأستمتع بألام ضياعها، أبكى بكل كيانى حسرةً عليها، وأزهد فى الحياة ندمًا على خسارتها.

فصرت كلما إمتلكت شيئًا، أعد نفسى لضياعه من جديد، لتصبح أمنيتى الوحيدة اليوم؛ أن أتبدد مع خيوط الظلام وأسبح فى زوايا الكون، أصير ذرات وأتناثر أشلاءً فى فضاء الكون الرحب، كما أصبح كل ما يشغلنى هو أن يتحرك التاريخ من مكانه ولا يبقى متجمدًا مثلى فى موضعه.

لم أعد أهتم بما أنا عليه أو ما سأؤول إليه، حتى موضع قدماى الذى تناوب على اغتصابه العوام وهوامش الخلق والحرافيش لم يعد يعنينى استرداده مجددًا.

لقد جاءت خيبتى بتلك المرأة؛ لتكون بمثابة الإنفجار الذى دمر بنيانى من القواعد، تلك المرأة التى اعتبرتها صديقتى ورفيقة دربى والتى أملت فيها خيرًا أن تعوضنى عما مضى وحاولت جاهدًا أن ألملم فيها شتات عمرى ولكن خيبتى بها أغنتنى عن كل ما ولى أو سيلى من خيبات، هى التى نعتها بالمختلفة والفريدة والاستثنائية ونسيت أنها هى أيضًا فى الأصل امرأة، تركتنى وردة بلا رائحة فى موسم الربيع، بينما تتباهى الورود الأخرى بأريجها، بعدما سلبت منى أريجها.

لذا قررت الرحيل وتركها فريسة يتناوب على إغتصابها كل ذى مطمع، وكل من كان يترصد بها ولم يكن ليملك الجرأة حتى للنظر إليها، فما كانت للضباع من نصيب فى وليمة سبع إلا بعد أن يتركها جيفة ويرحل.

الآن؛ أمضى على رصيف اللامبالاة، أحيا داخل دائرتى المغلقة، تحوطنى العديد من الفواصل والخطوط الحمراء، قلعة لا يملك مفاتيح أبوابها غيرى، تحرسها جميع تنانين التاريخ، فلن يقوى على إقتحامها أحد، ولن أسمح لأى قدم

بالولوج إليها، فتكفينى خيبتى تلك، يكفينى ما جرى لى من عواقب وضع قدم واحدة خارجها.

الآن لم يعد يهمُّنى من إمتلكها بعدى، بعدما باعتنى فى سوق النخاسة بأرخص الأثمان، وسيكون مؤسفاً جدًّالمن يقبل على شرائى، أن يكتشف أنه قد خسر كثيرًا فى بضاعته؛ فقد اشترى بضاعة فقدت قيمتها.

كانت الدنيا قد إسودت فى عينى، فلم أعد أرى أى أمل فى ضوء قادم، ثم انقضت سنة الامتياز، وفى تلك الآونة كانت أختى الكبرى قد نجحت فى حجز موعد لإجراء جراحة بمفصل الركبة لوالدتى بأحد المستشفيات الألمانية، فأخبرتها برغبتى فى القدوم معها إلى ألمانيا والإستقراربها كى أبدأ حياتى المهنية هناك.

وبالفعل سافرنا معًا والتحقنا بها هناك، ثم قدمت فى العديد من المستشفيات الألمانية إلى أن قبلت فى إحداها، لأدخل بعدها فى فجوة زمنية مجهولة. فانهمكت فى العمل ليلًا نهارًا كى أتخلص من فراغى، فلا سبيل لتذكرها مهما حدث، ولكى تمحى تجربة مؤلمة عليك أولًا أن تعيشها بكل كيانك. تحتضر، تموت كى تولد وتبعث من جديد.

****

الفصل الأخير

"أنا لا أخشى الرحيل يا سيدتى

فلست أنا من يخشى رحيل

لكنى بعدكِ

أخشى من ليلٍ طويل

أخشى ضياع حلمٍ جميل

أخشى أن أبكيكِ دهرًا

وأطارد وجهك فى شمس الأصيل

أخشى أن تضلّ قُبلتى دربها

وسط زحام السنين

أخشى أن أعود طفلًا

يخيفنى الظلام، ويبكينى الحنين

أخشى أن تتوه الخطى

وتنسى الأمانى معالم الطريق

أخشى أن يحنّ علىَّ غريبٌ

ويشمت فى أحزانى الصديق

أخشى عمرًا من الأوجاع يأتي

وحلمًا بعد حلمٍ يضيع

أخشى أغانى حزينة

وأعوامًا تمر ثكلى

أنتظر فيها ولا يأتى الربيع"

خيوط رمادية تحلق بالأفق. مشاهد ضبابية كئيبة تملأ الأجواء. صمت ورتابة لا يفسد حميميتهما سوى حلقات متسلسلة من ترانيم الاحتضار تبرق أمام عينيه بين الحين والآخر. وطنين خافت يئز بالداخل. أنات موجعة تهز أحشاءه. عقل مشوش وأفكار مبعثرة. يشتهى ملاذًا آمنًا. خواء يختبئ به. روحاً بكراً تحتضن جسده المرهق. يحتاج لما هو أعمق من الحياة ليحيا به. يشتهى رحيلا طويلًا. دربًا لم تروِه أقدام من قبل. وتلك الأنفاس المتحشرجة بالحلق باتت على حافة السقوط؛ لكن الأغرب هو هذا الاستسلام الذى يعتريه. ولا يدري أهو اشتهاء للهلاك. أم ضجر بالحياة؟.

لقد كان حبّها فى قلبه أشبه بنسيم هواءٍ نقى ما أن يستقر بصدره حتى تعبق أنفاسه بأريجه ويجوب كل ذرة بجسده فتنتشى بخدره جُلَّ خلاياه حتى تثمل منه فتدمنه فلا ترضيه بعدها شهقة واحدة أو عدة شهقات.

كان مشهد حضورها أقرب إلى لوحة فنية خالدة أبدعت ريشة الخالق رسمها يتأملها كل لحظة فلا تشبعه نظرات، بل يزيدها سنا أحاسيسه بهجة وتضفى عليها دقات قلبه إيقاع صداح النوارس بصباح الأنهار ودندنة الموالك فى المساء فوق عيدان الآراك.

كانت أحاديثهما برغم ندرتها تعنى الحياة فى أروع معانيها وأرقى أثوابها، وشذا كلماتها كزهور بنفسج طيبة رقيقة حانية لا يمل سماعها أو تكرارها تشعره بأمان وإرتياح رحلا عنه منذ زمن، تذكره بتلك الليالى الغابرة فى طفولته حينما كان يصحبه أبوه لليالى أهل الطريقة والإنشاد والذكر يرتل مع المرتلين وينشد الموشحات الأندلسية ونوبات الرصد والإستهلال مع أهل الله الذاكرين، وحولهم

الأباريق النحاسية المملؤة بماء الورد الجورى وروائح البخور الهندى والعطور المغربية والدمشقية؛ تعبق بزوايا المكان لتشجى الأرواح وتنزع مادية الأنا من النفوس.

فيتركون العنان لأجسادهم تترنح يمنةً ويسرة حتى تخور سوقهم، فيتساقطون كجذوع الأشجار على الأرض فى متعة ولذة عارمة يتبعها نوم عميق شهى لا يستفيقون منه إلا قبيل صلاة الجمعة بسويعات قليلة.

كم وَدَّ لو كان أخبرها أن صوتها يمتلك قوى خفية تُعَربِد كالجنِّ بشراييننه فتتفضل على قلبه بعدة دقات إضافية لكنها دقات متمردة عصيَّة ما تلبث أن تهيج باقى نبضاته فتسمو بروحه عاليًا لتعانق فلجات السماء الزرقاء وتصادق أسراب الحمام فى باحة الشفق الدامى وقت الغروب. تراها ما زالت تذكر حلمهما الوردى؟!

لقد كانت جل أمانيه أن يغزل من أيامها حبات ياقوت وزمرد ليطوق بهما صفحات عنقها اللجى ويزين قسمات خصرها المتمرد.

لكم تمنى لو أطعمها من ثمر السعادة الطيب كل صباح. أن يهديها فى شجنه قبل أفراحه باقات ورود من حبه وابتساماته. أن يعوضها عن كل الزمن الغابر أن يأخذها بعيدًا عن أسوار العالم. يحلق بها فوق وجدان المشاعر. ليسكنا عوالم ما وراء السعادة، لكنه يعلم أن السعادة حق مكفول للجميع، أما الألم فهو واجب بل دَينٌ أبدى عليه.

كان مجرد عبور طيفها بخاطره بهجة له، فلا تحزنه أحزان العالم كلها ولو اجتمعت عليه. وكان يحزن لأحزانها فتختنق أنفاسه حتى ولو كان على أعتاب الجنة فجنته كانت دومًا وعدٌ سارحٌ حائر يسكن حجرات عينيها.

كم تمنى لو أخبرها عن تلك الرجفات المثيرة الممتعة التى تسرى بعروقه متى عبث طيفها الحانى بزوايا فكره. أوجالت عيناها الزرقاء بثنايا وجدانه.

كان يشعر أنها قد خُلِقت من أجله كما خُلق هو لأجلها، كجسدين تتلاقى روحيهما ما أن يتماسا، فتغفو ثورتهما وتستكين براكينهما، فـ شفتاها كثورين هائجين لا تخفتُ ثورتهما إلا حين يقبلهما فيعتصرهما كحبات الكرز الأحمر فلا يكتفى من رشف شهدهما الصافى فيعود ويلتهمهما كوحش جائع فتذوب شفاها فى فمه كفتفوتة سكر.

فلطالما كان كيانها يتوحد داخل أحضانه فتصير كقطعة جيلاتين هلامية شفافة هشة ترتعش من فرط النشوة بين ذراعيه وخجل يشع بريقًا من بين ثنايا الثغر الأخضر كلما أصابت سهام عينيه حنايا قلبها كزهرة ياسمين فى بستان ورود تتخفى من نظرات التوليب المتواطئة خلف كؤوس الزنبق وأعواد الريحان.

كان يديم النظر إليها كناسك بوذى يتعبد فى محراب عينيها. دومًا مشدوهًا لحديثها واسترسالها العذب المنمق فقد كانت تجول بخاطره فى اللحظة الواحدة ألف مرة؛ فاللحظة بجوارها عمرًا بأكمله. تتوقف فيها الأرض عن الدوران والأيام عن المضي.

كان يفقد هويته فى حضورها وتصبح هى وثيقة تعريفه وتأشيرة عبوره لكل العوالم الأخرى فوجوده صار وجودها هى بحياته. وفى أحضانها ينسى كيانه ويسبح فى ملكوت الحياة عابر سبيل يرفرف قلبه كقطيع سنونات بين جنبات الكون فى نشوة وبهجة غامرة.

لكن بعد غيابها عنه؛ صار رحيق الحياة يتسرب من جوفه. غربة لم يعتادها يومًا. فتلك المرأة كانت هى حضنه وسكنه ووطنه وكانت كطلاء سحرى يصبغ صفحات حياته بألوان السعاده والراحة والسرور.

وقد جعل حبها منه فارسًا عنيدًا قادرًا على تحدى كل الأعراف والتقاليد والمسلمات. الوقوف فى وجه أعتى الظروف والمحن فقد علمه التمرد على المنطق والثورة على المعقول.

وها هى سنوات عجاف مرت وما زال هائمًا على وجهه عند قارعة الزمان، يفتش عن اللاشئ داخل أروقة المستحيل، يلملم قطع السراب المتناثرة فى دروب الخيال، يفرغ جيوبه الخاوية، يتصدق قليلًا بما لا يملكه، يجوب كل زاوية وكل زقاق مظلم، يطارد الأشباح والغيلان داخل الكهوف والمغارات الموحشة، وعند كل منعطف ينتظر قليلًا، ينظر خلفه، يجدها تمعن النظر فى عينيه، لتذكّره بجرمه، يرتبك، فتتسرب الآمال من بين أصابعه. تدرك أن رسالتها قد اكتملت. فتتركه وضميره الساخط بلا عودة. ينظر إلى الجهة الأخرى، يجد الغربان تنهش أحلام النوارس والموالك قد أفجعها جنائن الآراك المحترقة.

بينما شمس الحب هناك ما زالت تبكى وتحتضر والشفق يغسل وجهه بدمائها، حاول أن يشفق عليها فلم يستطع، ظلت تختنق حتى إسود وجهها قبل أن تتوارى بالحجب، إقترب منها وتأملها جيدًا فوجدها كأى امرأة تحركها غرائزها؛ جففت دموعها المغشوشة، وضعت قناعا جديدًا، ثم إرتدت حلمه الوردى الذى أهداها إياه فى لقائهما الأول، تركت جواده وراحت تبحث عن جواد آخر يمتطيها، وحلم آخر تفترسه، لم تكن تعلم أنه ما من فارس بعده فقد كان آخر الفرسان فى

زمن العبيد والمماليك، آخر النبلاء فى عصر الحرافيش والصعاليك، وقبل أن يتركها وعهرها، نظر إليها وهتف قائلاً:

"اعلمى أيتها المرأة التى عبرتها رياحى وغمرتها أنهاري؛ أنك مهما ارتويتِ من أى نبع، أو رويت بماءك من تشاءين؛ ستظل أحلامك ظمأى ووحدها نبتتى التى ستزهر فى قلبك".

ثم راح يركض وحيداً خلف خيوط الأمل، مشتتًا بين وهمه بالعودة للوراء، وحلمه بالمضى قُدماً، يتخذ السراب درباً، زاده ذكريات مؤلمة، وراحلته ماضى حزين، يمتطى ألة زمنٍ معطوبة، يُحكم إغلاق نوافذها، يتعمد نسيان كُتيب إرشاداتها، يسلم إحداثياته للقدر، فلا رغبة له فى القيادة بعد اليوم، وتأتى أولى الخدع؛ ألة زمن لا زمن فيها، حيلة جيدة من القدر، إذن؛ سيسافر بلا وجهة وبلا وصول أيضاً، يسبح فى فراغ خلفه فراغ، ظلمات بعضها فوق بعض، ينهكه المسير، رغبات وآمال شتى يتعثر بها فى طريقه، ينكب على وجهه، ينظر إلى قدميه، يرى جداول الماء الأحمر تروى الأرض الظمآى تحت جسده، تتجرعه فى شره، كأنه يخرج مرغماً بفعل جاذبيتها لا بقوة دفعه، يزيد قلبه من إيقاع عزفه الركيك، تستيقظ رئتاه من غفوتهما فى فزع، يزداد اندفاع الشلال الأحمر أكثر، ترقص الأرض طرباً، يا له من مشهد ملحمىّ، يستمتع بحبات الماء الأحمر وهى تشق طريقها وسط التربة القاحلة، الآن أصبح للماء الراكد أعوامًا داخل عروقه فائدة، ينظر إلى محاولات قلبه البائسة كصاحبها فيبتسم، تتساقط ورقتى جفنه تدريجياً، تخفت إضاءة عينيه فقد حان سباتهما، يذهب وعيه فى إغفاءة قصيرة، يلملم فيها ما بعثره الزمن، يطلق بعدها أحدهم سراح عينيه فتصحو متثاقلة، تومض عدة مرات، كأنها فلاش كاميرا تأخذ بضع لقطات، يفتح بؤجته، يخرج من ذكرياته مقدار ما

يسد رمقه، يشعر برحيق الحياة يتحشرج فى جوفه (فلا يكترث). يعيد رفع ما تبقى من قوائم جسده، يمسح آثار الفكرة من مخيلته ويكمل رحلته، وما زال لا يدرى ما غايته، ولا عما يبحث، حسبه أنه ما زال يواصل السير، فوقع خطاه على الأرض وحدها ما يشعره بأنه ما زال على قيد الحياة.

كان يعتقد أنه بقطع رأس (القادريحى) سيشفى جراحه الغائرة ويريح قلبه قليلًا من جبال الهمِّ القابعة فوقه، لكنه وبعد أن أخذ بثأره وجد الأرض تضيق عليه بما رحبت، لا هدف من العيش بها، فلا أنيس يأنس به ولا جليس يسامره ولا حبيب يشتاق إليه، لقد شُتِّت شمله وشمل أهله، هدمت دورهم وشردت عائلته العريقة، فراح يجوب البلاد هائمًا لا يدرى له غاية، ولا يحن عليه موضع.

وفى ليلة شتوية شديدة الغيم والسواد وكأنها قد جمعت أصناف الهموم والأوجاع فوق قلبه الواهن فلم يستطع إكمال المسير، فأسند ظهره إلى سور حائط لأحد البساتين، ثم رفع بصره للسماء التى كانت تبرق وترعد بغضب وكأنها وحش ثائر يستعد للإنقضاض عليه، ثم تكالبت عليه همومه الثقيلة، فأخذ يلوم نفسه ويعاتبها على خذلانه لكل من اقترب منه، فقد خذل حبيبته التى توسمت فيه خيرًا وسلمته مفاتيح قلبها راضية مطمئنة بأنها بين أحضان فارسها الشجاع وملاكها الحارس فضيعها من بين يديه، وخذل أباه فتركه وحيدًا فريسة للقادر وحاشيته الباغية فقتلوه شر قتلة، كما خذل صديقه (عبدالرحمن) ولم يستطع نجدته، بل لقد خذل طليطلة بأسرها، فدنسها النصارى، قتلوا رجالها، وهتكوا أعراض نسائها، حتى أن الأسير المسلم صار يباع برغيف من الخبز أو جرعة من النبيذ، كما حولوا جوامعها ومساجدها العظيمة إلى كنائس وكاتدرائيات. وجاءت الطامة

الكبرى بمحاكم التفتيش التى أقاموها لأهلها، فلا أجرم ولا أظلم من أن يفتش بشرٌ فى نواياك، بل ويحاسبك عليها أيضًا.

ثم بدأت الأنفاس تتحشرج فى حلقه، فشخص ببصره أكثر وأكثر للسماء، حتى جحظت عيناه وكأنهما تحاولان الفرار من محجرهما، ثم أخذ يهذى قائلًا:

"واطُليطلاه". "واأبتاه". "واحبيبتاه". تمتَمَ قليلًا؛ فالركب يوشك أن يصل.

****

"صباح شتوى بنكهة الفراق
تعصف فيه رياح الحنين بأوصالى
بينما تشكو أحشائى حرقة الاشتياق"

بعد أن فرغت من اعترافاتى؛ كانت عينا (فريدة) قد اغرورقتا بالدموع، لتقول وهى تجاهد لتمنع سقوطها:

"أما زلت مغرماً بها بعد كل هذا العمر؟!" فنظرت فى عينيها ولم أرد، لتعقب هى قائلة:

-أعلم أنه لا يحق لى لومك أوعتابك على شيء، بعدما اتفقنا منذ لقاءنا الأول أن تخلو علاقتنا من أى التزامات، لكن لا أخفى عليك أن العالم قد اسود فى وجهى الآن، فلكم وددت لو كنت أنا مكانها؛ لتكنّ لى كل هذا الحب... فقاطعتها قائلًا:

-ألا يكفيكِ أنكِ بجوارى الآن، بينما هى هناك على الجانب الآخر من هذا العالم؟!

فلم ترد، بل استأذنت بالرحيل بعد أن طبعت قُبلة خفيفة على وجنتى، فلتت خلالها دموع من عينيها وسقطت على وجهى.

كنت أعلم أنها ستكون المرة الأخيرة التى أراها فيها، فقد قالت لى ذات يوم، أنها لن تسمح لقلبها بأن يفسد عليها حياتها مجددًا، لن تعانى ولن تتجرع الأذى مرة أخرى فى هذه الحياة وإن توجعت يومًا من علاقتنا فسترحل عنى إلى الأبد، فكانت كما قال باولو كويلو:

"بعد خيبتها العاطفية الأولى؛ لم تعطِ قط نفسها كليًا، خافت الألم والخسارة والفراق، وهى أمور لا مفر منها على طريق الحب ولإجتناب المعاناة ينبغى التَّخلى عن الحب. الأمر أشبه بأن نقتلع أعيننا كى نغشى نظرنا عن بشاعات الدنيا ".

ومع ذلك؛ لم أمنعها من الرحيل، رغم أنى شعرت وكأن جزء آخر من روحى يرحل معها، أو كأنى أشهد صورة مصغرة من فراق الأول.

يا الله فما أقسى الفراق، وقد أبدع فى وصفه عنترة عندما قال:

لحى الله الفراق ولا رعاه

فكم قد شكَّ قلبى بالنبال

أقاتل كل جبار عنيد

ويهزمنى الفراق بلا قتال

فأصعب ما فى الحب العظيم؛ عندما تُجبر على نسيانه، فالحب الكبير يولد كبيرًا ولا يرضيه إلا أن يحيًا دومًا كبيرًا، بينما حب الصغار يولد فى سماعات الهواتف ويموت على طاولات المقاهى.

ولقد حاولت كثيرًا أن أهرب من كل ما يذكرنى بها، يربطنى بها، يدفعنى إليها، جربت كل وسائل ووصفات النسيان، كل ما هو شائع منها، وتفننت أنا أيضًا فى اكتشاف وإبتداع وسائل أخرى، وفى كل مرة كان الفشل رفيقى، صديق وفيٌّ لم يتخلَّ عنى ولو لمرة واحدة، فنجحت فى أن أنسى كل شىء سواها، حتى أننى نسيت أنى أريد نسيانها.

فقد كانت متعلقة بجدران الذاكرة، محفورة فى ثنايا الوجدان، تحتل الجانب الأعظم من جزر التفكير، كانت هى ربان حياتى، وشراع أيامى فكيف يمكن أن أتناساها، كانت تذهب لتعود سريعًا مع لفحات النسيم فى لحظات صفاء

الذهن، كانت ممزوجة بعطر أى امرأة أصادفها، أعترف أن علاقاتى قد تعددت بعد رحيلها حتى أنى لا أتذكر أسماء أغلبهن أو حتى ملامحهن، فقد تصادفنى إحداهن فى الطريق لتستوقفنى وتخبرنى بما كان بيننا وصدقاً لا أكاد أتذكر شيئا مما تحادثنى به، ولا أذكر أين كان قلبى وعقلى حينما حدث كل هذا، وكيف أسمح أن أُلقى بنفسى بين أحضان امرأة أخرى غيرها، ربما كنت أتوهم مثل غيرى أن المرأة لا تُنسيها إلا امرأة مثلها، ولكن كيف أقع فى هذا الفخ الساذج فهى لم تكن كباقى النساء ولم تكن كل نساء العالم تكفى لنسيانها، ففى ذلك المساء الذى أعقب رحيلها كنت كنجم هوى من أعالى السماء، فتلقفتنى صدور النساء، فتذوقت الواحدة تلو الأخرى، وكأنى كنت أفتش عنها بينهن، لكن لم أعثر عليها مطلقًا.

فاعترت جسدى بعد فترة من الزمن برودة قارسة. أحسست بوحدة غريبة. غربة من لا وطن له، فقد كانت هى الموطن والملاذ فى سنوات ضياع الهوية، فى عصر شقاء الأحلام كانت هى ملجأ أحلامى، كانت تسكن فى أعماق أعماقى، متغلغلة فى كل ذرة بداخلى، كان طيفها وذكراها يطاردانى أينما ذهبت حتى عندما تركت مدينتى وحزمت حقائبى وأقسمت ألا أعود مجددًا، لعلَّ ذاكرة المكان هى ما يجعلها تمسك بتلابيب ذاكرتى.

فتبًا للذاكرة فهى مثل شعوبنا العربية إذا ما مضيت خطوة للأمام فإنها تأخذك مئات الخطى للخلف.

تركتُ دفاترى وكل أحلامى القديمة معها والتحفت التجاهل رداء لى ثم وضعت معطف النسيان فوق جسدى ليقيَنى من برد الحنين، وصقيع إشتياقى لها، حتى الكتابة قررت اعتزالها كى لا تصادفنى عند مفارق الكلمات.

كنت أحاول أن أتحاشاها قدر استطاعتى، فيكفينى ما مضى من العمر تحسرًا عليها واشتياقًا لها.

كنت أدرك جيدًا أنى أحببتها فى الزمن والوطن الخطأ، أجل أنا من كنت دومًا أجيد اختيار الأوقات، أخطأت فى اختيار وقتٍ لنا، وقتٍ تولد فيه قصتنا.

فارتكبنا معًا أعظم حماقاتنا باستعجالنا ميلاده، لذا ولد الحب غير مكتمل النمو، وُلد يتيمًا، محرومًا من كل شىء، محرومًا منى ومنها، فقد تنصَّل منه الجميع، ولم يجد من يحنو عليه أو يحتضنه فى أشد أوقاته إحتياجًا، فقد رفضه القدر، ولفظته الحياة، ولم يتوان الدهر فى وأده.

حقًا لقد أحببتها فى زمنٍ يكرهنا، ويكره وجودنا فيه، فكيف له أن يتبنَّى قصة حبنا؟!

وما كان إصرارى على ركوب القطار اليوم على غير عادتى، سوى محاولة منى لتأخير وصولى إلى موقع التصوير حيث سأجد هناك صديقى القديم (مصطفى كمال) الذى كان كعادته هو أوفرنا حظًا، فقد صار من كبار رجال الأعمال، وتزوج من حبيبته (سلمى) والتى صارت مذيعة مشهورة.

وكانت (سلمى) هى من إقترحت فكرة تصويرنا للحلقة هنا، بعد رفضى القاطع القدوم إلى القاهرة، كما أن زوجها كان يمتلك بعض المشاريع بألمانيا، فأرادت أن نسترجع سوياً ذكرياتنا القديمة وقصة كفاحنا.

وقد كنت أتحاشى التفكير بالأمر منذ الصباح، خوفًا من أن تجلب إشارات المرور طيفها إلىَّ أو أن أرى صورتها على لافتات الشوارع ومعالم الطريق.

لكن يبدو أن القدر لم يكن بهذه السذاجة لتنطلى عليه تلك الحيلة المتواضعة، فبينما كنت أحاول ابتلاع أنفاسى بحذر لطمأنة نفْسى وإقناعها بأن الأمور ستجرى كما خططت لها، كان هو فى الخفاء يدبر أكبر مكيدة لى، وبينما أنتظر أن يُفتح باب القطار لتفتح لى الأحلام ذراعيها من جديد، وأننى ربما أخيرًا سأحتضن الحياة وقد تعلو شفتاى إبتسامة رضا، إذ بالقدر يفتح أبواب الجحيم أمامى على مصراعيها، أبوابٌ اعتقدت خطًا أنها قد أُغلِقَت إلى الأبد.

فإذا بها تظهر بحياتى مجدداً كضيفة شرف، تمر بها كعابرة سبيل لا تنوى الإقامة، كمسافرة لن تعود هذه المرة، لأجدها تنزل من القطار؛ فنزلت معها أمانى ودعوات وابتهالات.

صدفة لم أتوقعها مطلقًا، رغم أنى كنت أودُ أن أصادفها فى كل مصادفة، فى كل موطىء قدم، وفى كل زاوية من زوايا الزمن، كنت أدعو دون أن أبوح لنفسى أن يبعثها القدر من جديد، وتلقى بها الحياة فى صحراء حياتى المجدبة القفراء.

كنت أستجدى قدمىَّ أن تتعثر بآثار خطاها، فقد كنت أحدق فى الطرقات عساى ألمح خطاها لتتلاقى خطاى بها فتستكين النار المستعرة كالجمر بداخلى، كان قلبى يهفو إلى كل عطر يهيج نيران الشوق بأعماقى المظلمة.

فما أدهشها الحياة! ما أن يبلغ بنا اليأس مداه؛ حتى نجد الأمل أمامنا فى الزمان والمكان الأقل توقعًا لتضرم النار فى مشاعرنا مجددًا.

أحسست حينها أن هائمًا اهتدى دربه بعد سنوات ضياع فى فلوات الفراق، غريبًا قد عاد لوطنه بعدما أضنته غربة الليالى وسطوة الأيام.

فاندفعت نحوها كأنما تُسيّرنى كل قوى الأرض، اندفعت بقوة الحب وقوة الشوق وقوة الحياة التى دبَّت فى الجسد الملقى منذ أعوام على رصيف الحياة ككتلة جليد لا يعنيها تعاقب الفصول، ولا تشغلها نوائل الدهر.

وارتديت أحضانها، فعاود شريان الدفء سريانه بعد سنوات الجفاف، فأذاب برودة الأحزان من أركان قلبى.

فكما قال (وليم شكسبير):

"كل آلام الفراق، تنتهى لحظة تجدد اللقاء".

لكن، كيف أخبرها الآن ما أشعر به من وحدة وغربة، فما أصعب أن يتغرب الإنسان داخل نفسه، يتغرب داخل أحلامه التى أسعدته يومًا، وكم كنتِ يومًا قريبة أيتها الغريبة البعيدة، وكم حمَّلتُ طيور الحب رسائلى وأشواقى لترسلها إليكِ رغم يقينى بأنها لن توصل واحدًا على المليون من إحساس افتقادى إليكِ.

ولكنها كانت مثل زماننا خائنة وضيعت الأمانة.

فقد كان كل ما أتمناه؛ أن تعلمى أنى أفتقد كل لحظة وكل لهفة شعرت بها معك.

والآن بت أتشبث بكل ذكرى تحمل عطر أنفاسك، بكل أشيائك القديمة، رغم أن كل ما أملكه منك مجرد ذكريات، لكنها أثمن وأقيم ما لدى.

أصبحت أطارد كل صدفة جمعتنى بكِ يومًا، أسترجعها كأنها تمر بى لأول مرة، أشهق مجددًا، أحادثك، أقول كلامًا قيل، وكلامًا كنت أتمنى قوله حينها، وهو أنى سيمر بى يومًا أفتقد تلك اللحظات.

تركت قطارى وجلسنا معًا فى المقهى، وهناك حدثتها عن مدى الألم الذى يعتصر كل جزء من كينونتى كلما اجتاحنى الشوق إلى عينيها، إستجديت وبكيت كثيرًا فى أحضانها وما كنت لأخجل وأنا فوق صدر المرأة التى ما وجِدْتُ فى هذا

العالم إلا لأحيا على ذكراها، أقتات من بقايا حبها فى قلبى، أقسمت لها أننى سأحبها إلى آخر قطرة من عمرى، سأحبها حتى تُفنى كل قطعة بجسدى، حتى بعد الموت سأحبها، سأستجدى ربى أن يعوضنى عنها "بها"، فإن كانت لغيرى فى هذه الحياة، فهى من حقى فى الحيوات الأخرى، ولن أتنازل عن حقى فيها تلك المرة.

أخبرتها أن قلبى لم يقبل بغيرها، لقد رفض بكل حزم ما هن سواها، لذا وهبتها أغلى ما أملك فى هذه الحياة ولم أبخل عنها، أعطيتها روحى وقلبى بلا تفكير، وزدتها عمرى عليه دون أن تطلب.

فأخبرتنى أنها أيضًا تحيا معه بنصف عقل، وبلا قلب، فقلبها ما زال ينبض داخل جدران صدرى.

ثم بكت هى أيضًا كثيرًا فوق ذراعى، أخبرتنى أنها ولأول مرة بعد رحيلنا تشعر بطعمِ لدموعها، إحتضنتها بقوة كنت أعتصرها وأعتصر فيها سنوات شقائى بعدها، آه وآه من امرأة تدغدغ كل كيانى، كفانا هربًا، كفانا هجرًا.

أتساءل الأن هل أثلج الفراق صدر كل منا؟. هل أسعدتنا دموعنا وأحزاننا؟ هل أراحت قلوبنا اتساع صحارى الحنين بينها؟.

أنا أشتاقها فى غربتي، وهى تشتاقنى فى وحدتها، لكن تتوه إشتياقاتنا فى متاهات وغياهب البعد.

فأحادثها كل ليله بين نفسي، بينما تبث هى شكواها لطيور الليل الشاردة، فما فائدة الابتعاد إذن إن كان كل منا لا يستطيع أن يعيش حياته؟! ما قيمة الحياة إن كنا سنعيشها نتخبط بين جدران الذاكرة؟! وما قيمة الحب إن كنا سنفرط فيه بالنهاية؟!

لقد حاولنا التلاعب بالقدر، فتلاعب هو بنا، وإنقلب سحرنا علينا، ولم تنصفنا ما تحمله جرابنا من حيل، فلم تنفعنا عُصيُّنا ولا حمامنا أو حيَّاتنا، وما أن نفذت كل ألاعيبنا؛ حتى جلس القدر يسخر منا، بل لقد أغمى عليه من شدة الضحك.

واكتوينا بنار الفراق، التى لم نتوقع أننا قادرون على تحمل عذابها ليلة واحدة، فما أشقى على العشاق إلا من ليل الفراق.

وبعدما أطفأ كلٍ منَّا حنينه فى الآخر؛ أخبرتنى أنها بألمانيا منذ الأمس، كى تعرض بعض التقارير والفحوصات الخاصة بحالة زوجها على بعض الأطباء، وقد قدمت رفقة صديقتها (سلمى الشهابى) المذيعة المشهورة.

لا أخفى ما انتابنى من دهشة ما أن عرفت علاقتها بسلمى، لكنها أزالت الغموض بقولها:

"أجل، (سلمى) صديقة مقربة لى" وقد أخبرتنى أنها ستسافر إلى ألمانيا كى تجرى معك حواراً، فأخبرتها أنى أود السفر معها كى أعرض حالة (حسام) هنا، لكن فى حقيقة الأمر، لقد كنت أود رؤيتك.

وقد كنت فى طريقى إليها كى أراك هناك، لكنى إلتقيتك هنا، لذا لم تعد لى حاجة بالذهاب الآن.

كما أردفت لتمحى كل الغموض:

"وكنت قد أهديت (سلمى) فى الماضى نسختين من روايتى التى لم تكن قد نُشرت بعد، فأهدت (سلمى) إحدى النسختين لصديقك مصطفى فى أول لقاء جمعهما في معرض الكتاب".

ثم قالت وهى تنتزع إبتسامة خجلة من بين أحزانها العميقة:

"أما زالت الزهراء تشغل عقلك؟". فقلت لها:

"وهل أفسده غيرها؟"

ثم أخذنا نرتشف قهوتنا، فإذا بها مع كل رشفة من قهوتها ترتشف ما تبقى لدى من أحلام واحدًا تلو الآخر، ثم دعتنى لنذهب معًا كى تبتاع بعض الأغراض، وبينما هى تبتاع أغراضها؛ إذا بى أبيعها قلبى مجددًا زادًا لرحلتها.

ولكن كنت أعلم فى قرارة نفسى أنه لم يعد يُجدى نفعًا، فقد أصبح جافًا متيبسًا كآثار الأشجار بحديقة بيتنا القديم بعد أن خاصمتها المياه، وضلت دربها قطرات المطر، فاستولت عليها ألسنة الشمس لتضرم فيها النيران، وتطلق عليها رصاصات الرحمة.

لم أكن قد رأيتها منذ فراقنا، ورغم مرور الكثير من الأعوام، إلا أن شيئًا بها لم يتغير، ما زالت تحمل نفس سمات الوجه الذى لطالما عشقته عيناي، شفتان تحملان من البسمات ما يكفى لإسعاد سكان المعمورة عشرات السنين، عينان تشعان بريقًا رغم ما تحملانه من مسحات حزن واضح رغم محاولات الميك أب المستميتة لطمس ملامحه، وإسكات صرخاته. جسد يزهو فخرًا بقوامه الباريسى الخلاب، والذى دائمًا ما جذب الأنظار، وشده الأعناق أينما حل، أزكاه ذلك الثوب الأزرق الذى كانت ترتديه لتمتزج نضرة ونقاء بياض بشرتها مع سحر وأصالة زُرقته مما جعل جاذبيتها برّاقة وحسنها لا يوصف.

وقد كان كل ما يجمعنى بها هو هاتف يأتينى فى منامى، ليؤنس ليالى غربتى. يفتح شراع أيامى. ينير طريق حياتى، وينتزع منه الوحشة كما تُنتزع العوالق من الذهب. يهمس بصوت حالم يهدهد كل قطعة بجسدى قائلًا:

"كل عام وحبك فى قلبى بكل خير". فأعلم حينها بأن حبنا ما زال فى القلب خافقًا.

يأتينى حينما أكاد أفقد الأمل فى الانتظار. يأتينى بعد أن أرغب عن الحياة.

فما أن أشعر به؛ حتى يعترى جسدى إحساس دفء أول شعاع شمس عانق وجه الأرض، كأول شهقة لجنين يستقبل نسمات الحياة، كأول رشفة من فنجان قهوة ساخن فى صباح شتوى بارد.

حقًا لقد بعثت الدفء فى أرجاء أيامى، وغمرتنى بنسائم الحياة، ومن غيرها قادر على أن يمنح الحياة.

كنت أشعر معها أننى أمتلك الدنيا بين أناملى، ولا أشعر بكمالى إلا فى حضورها.

رغم أنى بعد رحيلها لم أكن أملك دليلًا واحدًا على وجودها، بعد أن أحرقنا معًا فى آخر لقاء بيننا كل ما من شأنه أن يذكرنا بحبنا.

فأحيانًا كنت أكذب نفسى، وأدعى أنها لم توجد إلا فى مخيلتى، فمثلها يستحيل أن يولد فى عصرنا المكتظ بالأحقاد والضغائن، إنها امرأة الحب، ووجِدت لتحب ولتنشر رسالة الحب بين البشر، إنها المرأة الموفورة مشاعرٍ وأنوثة، إنها حقًا خليفة حواء بلا منازع.

كانت عجلات الوقت تركض مسرعة كأنما تسابق نفسها، وبعد فترة وجيزة أخبرتنى أن عليها استكمال مسيرتها، والعودة للفندق حيث تقيم، إستعدادًا للسفر فى صباح الغد.

فصُعقْتُ حينها وحاولت البحث كثيرًا فلم أجد فى معجمى ما ينصفنى من الكلمات فاكتفيت بنظرة عتاب أوضعتُ فيها كل أرصدتى من اللوم والإستجداء والتحسروالندم، ولكن لم تكن لتجدى نفعًا هذه المرة أيضًا

بل أخبرتنى أنى كنت مخطًا حينما اعتقدت أنها قد تخلت عنى وعن مشروع حبنا، بل إنه الحب هو من تخلى عنَّا، ربما وجدنا غير جديرين بحمل عضويته والانتساب إليه، وغير مؤهلين لنحتسب ضمن عشاقه، فالحب لا يقبل بأشباه العشاق، أو أنصاف القصص.

حينها انفجر بركان الكلمات بداخلى، فأخبرتها:

-إنه لا حياة لى بدونها؛ فالكون بدونها يخلو من الحياة، وأننى بكل لغات العالم أريدها، بكل لغات العالم أشتهيها وأفتقدها، فلا شىء يضاهى نظرة حب من عينيها، لا شىء يعادل الراحة التى يشعرنى بها صوتها.

ووحدها مَن تهيج فيضان الإحساس والمشاعر لتغمر كل زوايا وأركان حياتى بنسيمها الفواح وعبير شذاها الآسر. وحدها تسعر بركان الشوق غضبًا بداخلى. وحدها القادرة على إيقاظ مارد الحب الكامن بين جنباتى؛ بكلمة شاردة، بنظرة خاطفة، بإبتسامة عابرة، بإيماءة أو إلتفاتة حائرة تتحول حياتى فى لحظات من نقيض إلى نقيض آخر. وحدها القادرة على أن تجعل من غربتى وطناً ينتمى فيه كلٌ منَّا إلى الآخر.

فكم يلزمنى من المرات كى أخبرك أننى لن أصمد طويلًا أمام طرقات الحنين الموجعة، وأننى سأفتح فى كل لحظة بابًا من جحيم الذاكرة والإشتياق سيحرق كل ما تبقى داخلى من حياة، ويحدث بكيانى دمارًا شاملًا وعطبًا لن تُصلحه الأيام والسنوات.

فكشف وجهها عن ملامح الأسى التى تكسوه، ثم قالت لى فى تحسر:

"فى هذه الحياة؛ لا تثق بشيء مطلقًا، فالعباقرة قد يخونهم ذكائهم أحيانًا، والعشاق دائمًا ما يدفعون الثمن، أما الأوغاد فهم من يفوزون بكل شىء فى النهاية".

بعدها لم تنبس ببنت شفة، بل أغلقت شفتيها على كلماتها، كما أغلقت قلبها على أسراره، فدومًا كانت هكذا تترك بيننا مسافة المستحيل، أشتاقها فتتمنع علىَّ، أصارحها بدواخلى فتؤجل البوح بمكنوناتها.

لكم تجيد تلك المرأة تأجيج عواطفى وتحترف المشى فوق غرائزى، محترفة هى بكل شىء، ودومًا تغرينى فى النساء من تملك مفاتيحى ولا أعرف لأبوابها من سبيل، فلكم كنت بسيطًا معها ولكم كانت غامضة معى.

ثم صعدت قطار الفراق مجددًا واستأنفت رحلتها، بينما بقيت أنا أنتظر قطارًا تأخر قدومه كثيرًا، قطارًا أعلم جيدًا أنه لن يأتى، ألا وهو "قطار السعادة" الذى اكتشفت أنه يشبه الحياة "كلما هربت منه ازداد تشبثًا بك، أما إذا أقبلت نحوه بكل كيانك ووجدانك فإنه يعطى لك ظهره إلى الأبد".

فأى مصادفة لئيمة، وأى قدرٍ ماكر كان يحمل لى هذا الصباح!

فما أن التقت عيناى بعينيها حتى وجدت سنوات شقائى بعدها قد أُطيح بها فى الهواء. نسيان هش قد تحطم وتناثر أشلاء ذكريات صغرى فى مخيلتى.

فكيف لى اليوم أقابلكِ بتلك الدهشة الأولى وهذا الإنبهار الأول؟!. بعنفوان التهيدة الأولى ومتعة الشهقة الأولى؟!

للحظات فقدت إيمانى بنفسى وبالعالم أجمع. تسلقت براعم أيام وسنوات مضت بروعتها وخيباتها، بسعادتها وأحزانها، أيام كانت لنا ثم إنقلبت علينا. أحلام بنيناها معًا فخرَّت سقوفها فوق رؤسنا.

لقد شعرت وكأن حضارتين متباعدتين قد إلتقتا على سلم التاريخ. شعبين متناحرين قد أنهكتهما سنوات الفرقة والتشتت. عالمين سحيقين يفصلهما خاتم يقبع فى إصبع يدها اليسرى.

لتمضى مجددًا فى طريقها تاركة ألم وغصة أعرف مذاقهما جيدًا، ولتصاحبنى أنا دموع خيبة وحسرة استأنفت خط سيرها المعتاد على صفحة وجه طُمِست ملامحه منذ زمن. بينما إبتسم القدر الواقف على الجهة المقابلة للأحلام كعادته. ولكن إلى متى؟!

إلى متى سيظل هذا الحنين والإشتياق الموجع كلما ساقها القدر إلىَّ فى طريق عابر، فى لحظة فارقة تشعل النيران فى كل ذرة بى، يعاودنى شريط ذكرياتها بكل تفاصيله، يتحرك فوق أحلامى كسكين باردة تذبحنى وتريق دمائى بلا رحمة. ولمَ كل ذلك؟!

أليس من الظلم أن يحيا الآخرون حياتهم ويهنأون بكل لحظة فيها، بينما نظل أنا وهى وحدنا نتجرع الويلات طيلة حياتنا؟

لقد أتعبتنى تلك المرأة حقًا. أتعبنى حبها كثيرًا. وأرهقنى الوجد مرارًا. ونال منى الشوق أقسى منال.

أعوام تسرق منى وأنا لا أقوى على مجرد التفكير بغيرها، فقد توقف كل شىء بى وحولى. توقف العقل عن الحلم، وتوقفت الأيام عن المضى قدمًا، إلا ذاك

القلب الذى ما زال نابضًا بحبها، وينتفض كلما مر ذكرها على الخاطر، بل يكاد ينخلع من مربضه كلما دبر له القدر مكيدة كتلك.

فما أتعسها تلك الأوقات التى تجتاح فيها الذاكرة بلا رحمة، تعصف بكل شىء، وتستبيح كل محرم، فيحتضر فى حضورها كل شىء، بعدما كانت إكسير الحياة لكل شىء. تحتضر الراحة وتحتضر السعادة. يحتضر كل حلم وكل أمل بداخلى.

ولا أفقر مِن مَن يحيا بلا حلم وبلا أمل، ثم تترك خلفها شجرة يابسة لا تقوى على الصمود حتى فى وجه نفسها.

يا الله لقد خلقت لنا أشرس الأعداء، إنها ذاكرتنا التى تأبى الانصياع لأى شىء، بل وتعشق إذلالنا.

يُقال بأن انكساراتنا تفقدنا الاتزان للحظات، وبعدها إما أن تُخرج أسوأ ما فينا فلا يعد لدينا أى رغبة فى الحياة سوى الانتقام واسترداد كرامتنا وملمة ما تبقى من كبريائنا، أو أنها تأتى بأعظم مكاسبنا، حتى تهون وتتلاشى أمامها كل ما مررنا أو سنمرُّ به من إخفاقات وخسارات.

أما خسارتها، فلم تفعل بى أى من ذلك، بل لقد أوقفتنى مكانى وأوقفت كل شىء حولى، توقف الزمان والمكان وتيبست أفكارى وأبت التدفق. لقد غيرتنى تماماً.

لم تخرج أسوأ ولا أعظم ما فىَّ، بل أخرجت منى شخصًا آخر، شخصًا لم أعرفه ولم ألتقيه يومًا. شخصا ليس منِّى ولست منه.

فثمَّة خسارة لا يهم بعدها أى خسارات، ولقد كانت أعظم خساراتى، خسارة لا تضاهيها خسارة ولن يعوضها أى مكسب.

فأنا وبلا منازع أعظم خاسر على ظهر هذا الكوكب، لقد قتلتنى خسارتها، أخذتْ روحى وأودعتْ جسدى روحًا أخرى، روحًا شيطانية لا ملة لها ولا دين. تنتزع أحشائى فى كل لحظة. يرفضها جسدى وتتشاجر معها أنفاسى فى كل زفرة فتخرج تتحشرج كأنى أتنفس فوق الهيمالايا.

أصبح بعضى يتشاجر مع بعضى؛ فيتمزق كل شىء بداخلى. ثورة عارمة تعتري داخلى. أعراق وقبائل وشعوب شتى؛ تأبى الخنوع أو التفاوض.

فبتُّ الآن لا أقوى على التصالح مع نفسى ولا رغبة لى فى ذلك، فقد أصبحت أملُ الحياة. أمقت كل شىء، أكره نفسى وأكرهها.

أجل، أكرهها بشدة. أكرهها كثيرًا؛ فهى التى أفقدتنى متعة كل شىء، فلم يعُدْ يغرينى أى شىء، ولم أعد أشتهى أية لذة؛ فلكم أحببتها ولكم كرهتها.

لم أكن أريدها أن تبادلنى حبي؛ فقد كنت أحمل لها بين ثنايای حبًا يكفى لـ كلانا، ويكفى عشاق زماننا. حبًا لم يقوى قلبى على حمله أو كتمانه، فبادر بإخبارها منذ الوهلة الأولى. فيا ليته لم يُخبرها. ويا ليته لم يلتقِها يومًا.

فكما قالت أحلام مستغانمى:

"الأكثر وجعًا ليس ما لم يكن يومًا لنا، بل ما امتلكناه لبرهة من الزمن وسيظل ينقصنا إلى الأبد".

لكن على أى حال؛ فلم يعد الفراق مخيفًا، يوم صار اللقاء موجعًا هكذا، كما قالت (غادة السمان).

ولقد بتُّ أدرك الآن أن أيامنا الخوالى قد انتهت للأبد، لن تعود و لن تتكرر، وأن الخريطة الكونية قد تغيرت جذريًا بعد فراقنا الأول.

فقد جفت كل ينابيع الحب وتصحرت جنان الهوى، ومات طائر العشق قهرًا وقد عجزت أرحام النساء أن يأتين بمثيلاتها.

ثم قلت لنفسى:

"رجاءً يا صديقى لا تحاول البحث عن نسخ لها أو تحاول أنت استنساخها، بل عليك تقبُّلِ التعايش فى العذاب الأبدى إلى آخر نفس بك، فكما قال شاعر الياسمين:

"لقد رحلت كل الأساطير برحيلها وانتحرت شهرزاد".

****

تمت بحمد الله

إهـــداء الخاتمة

" إلى الاستثنائية التي أقسمتُ لها أنى سأخلِدها يوماً في كتاب؛

هأنذا يا سيدتى قد بررت بقسمى "

(المراجع)

ـ الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة – أبى الحسن على بن بسام الشنترينى

ـ الروض المعطار في خبر الأقطار – صفة جزيرة الأندلس للحميرى

ـ معجم البلدان - ياقوت الحموى

ـ نزهة المشتاق في اختراق الآفاق - الإدريسى

ـ تاريخ علماء الأندلس – ابن الفرضى

ـ المُغرب في حُلى المغرب - ابن سعيد المغربى

ـ البيان المُغْرِب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب - ابن عذارى المراكشى

ـ نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب – أحمد المقرى التلمسانى

ـ العلاقات بين الأندلس الإسلامية وأسبانيا النصرانية في عصر بنى أمية وملوك الطوائف – د رجب محمد عبدالحليم

ـ الحياة العلمية في عصر ملوك الطوائف في الأندلس – سعد عبدالله صالح البشرى

ـ الإسلام في طليطلة – عبدالمجيد نعنعى

ـ تاريخ مدينة طليطلة في العصر الإسلامي ، دراسة تاريخية حضارية ٩٢ هـ - ٤٧٨ هـ - رسالة ماجستير، إبراهيم بن عطية الله بن هلال السُّلمى